الرحلة الثانية
دواعي الرحيل وجهلنا ببلادنا
٣٦

كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الأقطار الراقية، يدرك لأول وهلة أننا عيال على الغرب والغربيين في كل شيء، وأنهم إذا قطعوا عنَّا أقل صادراتهم نعود أدراجنا على النحو الذي كنَّا عليه منذ بضعة قرون. وهذا ممَّا يصدق علينا في عامة شؤوننا. والعلم هو أول بضاعة يجب علينا أن نستبضعها من الغرب وهو رأس الحاجيات، وبدونه الممات.

وما كنا نظن بعد أن أحفينا مكاتب مصر والشام لدرس موضوع (خطط الشام) إننا كلما أوغلنا في تضاعيفه يتجلى كل التجلي جهلنا ببلادنا. وإننا سنحتاج بعد بحث نحو خمس عشرة سنة إلى أن نقصد إلى مكاتب أوربا نأخذ منها ما فاتنا في أرضنا من المواد التي لم يحوها المطبوع ولا المخطوط مما كتب لنا الإطلاع عليه في مكاتبنا الخاصة والعامة.

أي غضاضة على الشرقي أن يرحل باحث في شؤونه حبًا بإتقان عمله إلى غير أهله وبلده، وأن يتسقط الفوائد من الغريب، والقريب في معزل. بيد أن يومًا طويلًا امتدت لياليه السود على هذا الشرق سلبت منَّا بحكم تنازع البقاء وبقاء الأنسب. تراث أجدادنا في هذا الوجود وجردنا من منافعنا ومرافقنا وكتب أسلافنا العرب كانت أول ما رحل عنَّا غير آسف إذ لم يعرف لها الأخلاف قيمتها الحقيقية. والأسفار في كل الأعصار. هي

هي مفتاح فتح الامصار، والعلة الأولى في سعادة البشر، ونقل المدنيات من النظريات إلى العمليات.

هاجت الخواطر في النفس خصوصًا عندما ذكرت أن أميرًا واحدًا من أمراء إيطاليا وهو البرنس لبوني كايتاني مؤلف تاريخ الإسلام الكبير هو الذي جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير في الغرب نفسه فيها كل ما يحتاجه باحث في تاريخ الإسلام والعرب وبلادهم فاستنسخ من المكاتب الخاصة والعامة في أوربا وأميركا وآسيا وإفريقية كل مخطوط عربي فيه شيء من هذا القبيل وما لم يقدر على نقله أخذ له بالتصوير الشمسي فمن زار هذه المكتبة فكأنه زار مكاتب العالم أجمع واطلع على ما فيها من المواد التاريخية والجغرافية في هذا الباب.

شبهتني وأنا أشد الرحال قاصدًا إلى رومية للبحث في مكتبة الأمير الإيطالي بطلاب العلم في أوربا في القرون الوسطى وكان بعضهم من الإسرائيليين يقصدون بلاد الأندلس ليقرأو على علماء العرب علومهم ويرجعوا من كتب المسلمين بلة تروي غلة جهلهم، فسبحلت وحوقلت. قائلًا: ما أغرب تبدل الأمم والبلاد. وما أهنأ الغرب بما صار إليه من دواعي المنعة وأسباب العلم وما أشقانا بما فعل السفهاء منا.

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقوامًا بأقوام

وليت شعري أيعود ذاك العهد السعيد بالعلم على العرب ويصبح أبناء اليوم يفاخرون بالقاهرة والقيروان وفاس ودمشق وبيروت وحلب وبغداد والموصل وصنعاء ومكة كما يفاخرون بغرناطة وإشبيلية ولشبونة وغيرها من المدن في الأندلس وصقلية التي استعمرها العرب بالعقل والعلم وأضاعها بعد ذلك جهل أبنائهم وغرورهم

أيظل الشرقي يا ترى يعتقد في نفسه الكفاءة والغناء ويقلع عن القول بأن الغربي يغمطه حقه باستباحته حماه واكتساحه دياره الحين بعد الآخر؟ أم يهب باحثًا عن جميع علل هذاالارتقاء عندهم والتدلي عندنا ويتعلم ما جهل مع الشكر لكل من يعلمه وينعشه من سقطته.

حكوماتنا هي السبب الرئيسي في إظلام العقول واشتغالها بالفضول وأهل الغرب هم الذين قوموا معوج حكوماتهم فهل ندرك جيلًا من الناس يقوم إعوجاج حكومات الشرق ونتمتع على الأقل بمعرفتنا بأنفسنا ومن عرف نفسه عرف به.

دار الدعوة والإرشاد في القاهرة
٣٧

اغتنمت فرصة مقامي بضعة أيام في القاهرة لقضاء بعض المشاكل أثناء شخوصي إلى إيطاليا لأزور دار الدعوة والإرشاد التي أنشأها صديقي السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار في السنة الماضية وكان ينوي إنشاءها في الآستانة أولًا لو صادف من القابضين على زمام الأمر تنشيطًا على مشروعه وغرضه الأول من إنشائها إيجاد هيئة صالحة بالعمل من رجال الدين يجمعون إلى معرفة الدين النقي وأسراره وحكمه المطابقة لأحوال الزمن معرفة أحوال العصر حتى تحل هذه الطبقة محل الهيئة القديمة التي كادت الأمة تنزع ثقتها منها.

أنشأ هذه المدرسة الصديق الرصيف أو (جماعة الدعوة والإرشاد) وهي جمعية مؤلفة من أهل الفضل والعقل والتدين (لتخريج علماء مرشدين قادرين على الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والإرشاد الصحيح وإرسالهم إلى البلاد الشديدة الحاجة إليهم) و(يرسل الدعاة إلى البلاد

الوثنية والكتابية التي فيها حرية دينية ولا يرسلون إلى بلاد الإسلام إلا حيث يدعى المسلمون جهرًا إلى ترك دينهم والدخول في غيره مع عدم وجود علماء مرشدين يدفعون الشبهات عن الإسلام ويبينون حقيقته لأهله).

وقد جاء في النظام الأساسي لجماعة الدعوة والإرشاد أنه (تتكون أموال الجمعية من الاشتراكات الموقوتة والإعانات والتبرعات والهدايا والوصاية والأوقاف التي توقف عليها أو ما تناله من ريع أوقاف أخرى ومن ريع رأس مالها) و(يضاف ربع دخل الجمعية السنوي إلى رأس المال للاستغلال وهذا ما عدا المبلغ الاحتياطي) وكان تبرع لهذه الجمعية بعض الأجواد من العرب وفي مقدمتهم الشيخ قاسم آل إبراهيم من كرماء جزيرة العرب بألفي جنيه مباشرة ولعله يتبرع بغيرها كل سنة.

في جزيرة الروضة [1] المشهورة الآن بالنيل حيث قام في جنوبها مقياس النيل المبارك بين جسر (كوبري) عباس وجسر الملك الصالح أو بين القاهرة المعزية ومديرية الجيزة قامت اليوم دار الدعوة والإرشاد في أحد مصايف أبناء شريف باشا الوزير المثري المشهور وقد ضمت في حجرها إلى الآن صنفين عدد طلبتهما الداخليين ٣٥ والخارجيين يختلف بين ٢٠ إلى ٣٠ يعلمهم عشرة معلمين منهم أناس من رجال الدين وآخرون أساتذة علوم صرف وطعام الطلبة ونظافتهم ونظامهم في قيامهم ومنامهم ممَّا لم يعهده طلبة العلوم الدينية اللهم إلا أن يكون طلبة مدرسة القضاء الشرعي في مصر لأن مؤسس مدرسة الدعوة والإرشاد أفراد

(١) هذه الجزيرة هي التي ورد ذكرها كثيرًا في شعر المصريين منذ القديم وتع؟؟ بمحاسنها وللسيوطي كتاب في تاريخها اسمه (كوكب الروضة) من جملة مخطوطات الخزانة التيمورية ومجموعة أحمد تيمور باشا من علماء القاهرة وأعيانها.

ومؤسس مدرسة القضاء الشرعي الحكومة والحكومة أقدر على البذل من الأفراد.

ويستفاد من نظام مدرستنا هذه أنها تدرس العلوم والفنون التي تدرس عادة في الكليات مع التربية الدينية وزيادة العناية بالعلوم الإسلامية تنشأ أقسامها بالتدريج يبدأ منها بقسم عال لتخريج الدعاة إلى الإسلام والمرشدين للمسلمين بالوعظ والتدريس ولسان التدريس فيها اللسان العربي ويتحتم فيها تعلم لغة من لغات العلم الأوربية ويجوز أن تدرس فيها عدة من اللغات الشرقية والغربية ولا سيما لغات الشعوب الكبيرة من المسلمين كالتركية والفارسية والأوردية والملاوية. ومدة صنف المرشدين ثلاث سنين وكذلك صنف الدعاة ويختار طلابه من متخرجي صنف المرشدين يمكثون ثلاث سنين أ يضًا وذلك ما عدا السنة التمهيدية الأولى.

التعليم في قسم الدعاة والمرشدين من المدرسة مجاني والمدرسة تنفق على الطلاب الداخلين فيها وتكفيهم كل ما يحتاجون إليه فيها وتعطيهم إعانة شهرية بحسب الحاجة والاجتهاد والتهذيب لاتقل عن ريال مصري في الشهر وأما الطلاب الخارجيون فلا تنفق عليهم شيئًا.

وممَّا يشترط في قبول الطلبة الداخليين أن تثق المدرسة بأن طالب الدخول حسن السيرة وتكون سنه بين ٢٠ و٢٥ وأن يكون حافظًا لطائفة من القرآن الكريم بحيث يسهل عليه إتمام حفظه قبل إتمام دراسة الصنف الأول وأن يكون قد حصل قدرًا صالحًا من النحو والصرف والفقه وعرف القواعد الأربع من الحساب على الأقل وأن يكون صحيح الإملاء حسن الخط في الجملة جيد المطالعة في الكتب العربية ومن أصل قديم في الإسلام وتتحرى المدرسة أن يكون طلابها من الأقطار المختلفة وتمرنهم

على القيام بالفرائض والسنن وعلى الرياضة البدنية والتخاطب باللغة الفصحى داخل المدرسة وخارجها.

وإذا وفقت هذه المدرسة الى تطبيق فصل العلوم والفنون التي تدرس فيها حق التطبيق يجيء ولا شك من متخرجيها طلاب يشبهون دعاة الكثلكة والأرثوذكسية والبرتستانتية في علمهم واستعدادهم خصوصًا ومن غرض المدرسة في باب تربية الأخلاق أن يعلم الطالب (الفرق بين زماننا وزمان القرون الأولى من المسلمين في الحاجة إلى سعة الثروة وتوقف حياة الأمة عليها الآن وعدم توقفها في ذلك الزمن وكون الزهد الصحيح والقناعة الفضلى لا يناهيان تحصيل الثروة وعمارة الدنيا لأنهما من صفات القلب وفائدتهما أن يجعل الإنسان فصل ماله لنفع أمته ومجد ملته وأنه لا ينبغي تعمد ترك تحصيل الثروة إلا لعمل أنفع للأمة والملة). ويعلمون في باب انتقال الأمم والدول من حال إلى حال مثل قوله سبحانه {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} وقوله {وتلك الأيام نداولها بين الناس}.

هذا ما أمكنني التقاطه ممَّا عساه يفيد وإني لأرجو لرئيس جماعة الدعوة والإرشاد محمود بك سالم أحد علماء مصر العاملين وسائر مؤازريه الفضلاء الخير في الدارين لعملهم المبرور وآمل أن يكتب البقاء لهذا العمل العظيم بهمة جامع شمله الأستاذ محمد رشيد رضا ناظر المدرسة ووكيل الجمعية وأن يكون أساسه على صخر متين سداه الماديات ولحمته المعنويات فيكون من مادياته مخرجًا إلى معنوياته والسلام.

في طريق رومية
٣٨

أول ما يلاحظ المسافر من الأرض العثمانية إلى الديار الأوربية أن كل ما يقع نظره عليه هو غريب عنه ليس له منه إلا النظر. فسبحان من جعلنا في بلادنا وبلاد غيرنا غرباء مساكين.

ركبت هذه المرة القطار من دمشق إلى بيروت وهو لشركة فرنساوية ثم أبحرت من ثغر الشام على باخرة إيطالية (تيفرا) حتى إذا بلغت الإسكندرية وأردت الركوب منها إلى نابل ميناء رومية ركبت الباخرة (البرنس هنري) من بواخر شركة نوردتش لويد الألمانية وهكذا كنت عالة في تنقلي على الفرنساوي والإيطالي والألماني ولو قصدت وجهة أخرى لكنت في ضيافة الروسي والنمساوي والإنكليزي والروماني!

حالة يأسف لها وأيم الحق كل من ينبض فيه عرق الوطنية لأنها تصغر نفسه في عينه ومن ساء ظنه بنفسه انحطت عن كل عمل. نعم يتألم الفؤاد من هذه الحركة الاقتصادية المباركة لأن العثمانيين عامة والسوريين خاصة بعيدون عنها كل البعد ليس لهم علم الغربي يذكرون به ما ينهضهم من كبوتهم ولا مضاؤه ليتمثلوا به في جهاد الحياة الراقية ولا أسبابه المادية التي تبعثهم على تقليد الناهضين من شعوب العالم المتحضر في هذا العصر.

نحن وياللأسف نريد أن نعيش في القرن العشرين عيش ابن القرن العاشر ونرى لسوء حظنا أن مجدنا القديم يكفي تذكره وحده ليحيينا إلى الأبد حرة طيبة رشيدة ونتطال إلى أن نقنع العالم بل أنفسنا بأننا شعب

راق بمجرد إيراد الشواهد على أيامنا الغر المحجلة في تاريخ المدنية السعيدة ولكن حضارة الغرب اليوم لا تبقي على ضعيف في قوته ومعرفته ومادته وحكومته. هي تبتلع العالم والشاهد على ذلك استصفاؤها قارة إفريقية وتوشك أن تستغرق قارة آسيا لولا بقايا شعوب مستقلة عظيمة كاليابان والصين.

مدنية أوربا هي التي حملتنا في البحر المتوسط من بيروت إلى الإسكندرية في ٣٢ ساعة ومن الإسكندرية إلى نابل في ٧٠ ساعة ومن نابل إلى رومية في أربع ساعات على السكة الحديدية. والبخار والكهرباء هما صفوة العلم الأوربي بل المثال الحي من هذه المدنية الحية التي سيعم فضلها كل بقعة من بقاع الأرض شاء أهلها أم أبوا فتحيا الأمم التي تقوم بما قامت به أمم الحضارة الحديثة وتموت لا محالة الأمم التي لها من حكومتها أو من تقاليدها أو من ضعفها ما يعوقها عن الانبعاث والحركة.

تهتز نفس الشرقي وأي اهتزاز عندما يدوس أرض الغرب وتتوارد الخواطر عليه والتذكارات والمؤلمات وتتنازعه عوامل المنشطات والمثبطات. هكذا كان حالي يوم أزعجني القدر منذ أربع سنين فنزلت مارسيليا ثغر الفرنسيس وهكذا أنا اليوم وقد وافيت نابل ثغر الطليان. وليس في هذه الفرضة من جديد فإن حركة المدن الساحلية والعواصم الغربية واحدة إجمالًا تكاد تتشابه لأنها قائمة بالعمل قوامها انتظام أحوال تلك الحكومات وتناغي سكانها بوطنيتهم وذهابهم بفضل العلم والنشاط وتميزهم بالذوق واللطف.

من أجل هذا كانت نابل مثالًا مصغرًا من حضارة الطليان ورومية وهذه هي العاصمة المثال المكبر والفرع يدل على أصله والكتاب يقرأ من

عنوانه. لم يتسع لي الوقت وقد قضيت يومًا في نابل أن أزور معالمها وكليتها وآثار بومبي الرومانية خصوصًا وهي على مقربة منها لأنني في صدد البحث عن تاريخ أجدادي وبلادي لا تهمني أولًا إلا الغاية التي أنا قاصد لها من البحث عن المخطوطات حتى إذا كان في الزمن متسع أزور من معاهد هذه الديار ومصانعها ما نستفيد منه عبرة لنا ولأمتنا وينفعنا في الأخذ بمذاهب الرقي إن صحت نياتنا عليه.

إلى ساعة كتابة هذه السطور لم أتمكن من معرفة شيء من أحوال إيطاليا اللهم إلا ما هو معروض في الأزقة والشوارع والساحات ومحال القهوة والمتنزهات وهذا لا يبنى عليه حكم ومع أن الطبقة الراقية تكلمك باللغة الإفرنسية وكذلك تتخاطب مع أهل الفنادق والمخازن الكبرى وبعض الأماكن العمومية فإنك تجد صعوبة في التفاهم مع جميع طبقات القوم لجهلك لغتهم الوطنية. هذا مع تقارب اللغتين الإفرنسية والإيطالية إحداهما من الأخرى واللغات اللاتينية أي الإفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتقالية متشابهة لأنها من أصل واحد كما أن اللغتين الألمانية والإنكليزية متشابهتان لأنهما من أصل سكسوني واللغة الروسية والرومانية والبلغارية والصربية متشابهة لأنها من أصل سلافي.

ومع أن جليسك تنقبض نفسه منك في العادة إذا لم تكن لك معه لغة مشتركة لا تجد فيما تسمعه في المحال العامة ودور التمثيل والموسيقى هنا ثقلًا على سمعك من لغة الطليان وإن كنت لا تفهمها بل تبلغ نبراتها صماخ أذنك كأنها أوتار موسيقار تتكلم ألحانها أكثر من ألفاظها. ولا عجب فإيطاليا مهد الصناعات النفيسة بل هي بلاد الموسيقى والشعر والتصوير والبناء عرفت بذلك منذ اوائل عهد الإسلام وباعت من الغرب بل ومن الشرق موسيقاها وشعرها وتصويرها وهندستها وهي بلاد النهضة منها نشأت وانتقلت إلى فرنسا وأوربا كلها وطليان الجنوب يشبهون

السوريين في كثير من عاداتهم وملامح سحناتهم وكلما تقدمت نحو الشمال تزيد المدنية ويفخم العمران.

وعلى ذكر الجنوب والشمال لا بأس بأن يعرف القارىء إن البلاد الأوربية كلما قربت من سمت الشمال كانت أقرب في الجملة إلى الأخذ بأسباب الرقي والحضارة وهذا مشاهد محسوس. فإنك تجد شمالي إيطاليا أرقى وأعمر من جنوبها وكذلك فرنسا بل إن ألمانيا في جنوبها أحط منها في شمالها وهو سر غريب من أسرار هذا الكون ولعل الباحثين في طبائع الأقاليم بحسب القرب والبعد من خط الاستواء لا يعدمون تعليلًا لذلك. أما رومية فهي مجموعة بدائع الطليان ولا جدال لأنها معدودة من أواسط إيطاليا على ما سنذكره.

الأمير كيتاني
٣٩

كان الأغنياء والأمراء في الغرب قبل أن تتقرر قواعد المدنية الحديثة وترسخ أصولها يدلون على شعوبهم بحكم التغلب وقوة المال وأرجحية القدم. أما الآن فإن أمثال هذه الطبقة أدركت أن كل تلك الامتيازات والاعتبارات قد ألغتها القوانين الدستورية في الأمم الحرة النيابية فلم يبق من أسباب الفخر إلا شخصية المرء وعلمه وعمله ولذلك لا تسمع بأمثال هؤلاء الناس إلا إذا أتوا عملًا ينفع المجتمع ويخدم الحضارة أو يرقيها درجة أخرى.

وممن جمع بين فضيلتي المجد القديم والمجد الحديث فعد عصاميًا عظاميًا الأمير ليوني كايتاني من كبار الأسر القديمة في رومية التي يرد تاريخها إلى زهاء ألف سنة ومنها خرج رجال خدموا أمتهم على اختلاف

العصور والمنازع فكان منها الباباوات ورؤساء الدين والقواد والحكام ولقد سار سليل هذا البيت على سنة كثير من أمراء الغرب فلم تبطره الزخارف ولم يستهوه المال والمجد القديم وتنكب عن الرفاهية منذ صغره فدرس في كلية رومية الآداب وأتقن من اللغات الإيطالية والإفرنسية والإنكليزية والألمانية واللاتينية والفارسية والعربية.

ولما أحرز حظًّا وافرًا من العلم والآداب سمت به همته وهو قبيل الخامسة والعشرين أي منذ زهاء عشرين سنة أن يضع لأمته كتابًا في التاريخ الإسلامي بلغتها يغنيها عن أكثر الكتب ويرفع كثيرًا من المشاكل في تاريخ العرب الذي أدهش العالم. فجمع لذلك مكتبة ضخمة باللغة العربية وغيرها من اللغات واستنسخ وأخذ بالتصوير الشمسي كل ماعرف من تاريخ العرب من المخطوطات وكان مبعثرًا في مكاتب أوربا وغيرها فجاءت مكتبته خير مكتبة في الشرق والغرب في موضوع التاريخ الإسلامي خاصة ومن رآها فكأنما زار مكاتب الغرب للبحث عن آثار العرب ومدنيتهم.

ولقد نشر حتى الآن من تاريخه ستة مجلدات ضخمة ولم ينجز بها أكثر من عشرين سنة من تاريخ الإسلام وهو يرجو أن يفسح الله في أجله عشرين سنة أخرى ليكمل القرن الأول للإسلام فيقع في خمسة وعشرين مجلدًا [1] ولا يطبع من تاريخه أكثر من مائتين وخمسين نسخة يوزعها على المجامع العلمية في بلاده وفي الغرب وعلى بعض أصحابه من العلماء فقط وقد جعل شعاره فيها قول الشاعر العربي:

---

(١) عجيب صبر الإيطاليين على تآليفهم فإن المستشرق ميشل اماري قد تعلم اللغة العربية وأتقنها خاصة ليكتب كتابًا في تاريخ صقلية فكتب مطولًا لم يسبق إليها عند قومه وهو المرجع اليوم في تاريخ هذه الجزيرة الإيطالية التي دانت للعرب قرنين ونصفًا وقد نشر اماري جميع ما كتبه مؤرخو العرب عن هذه الجزيرة باللغة العربية في كتب ورسائل كثيرة.

كفـاف عـيش كفـاني ذل مـسألة وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

يقول كفاف عيش وثروته وثروة أبه فيما بلغني تقدر بمئة مليون فرنك دع ثروة حليلته الأميرة وهي غنية أيضًا ولهم المزارع الواسعة في ضواحي رومية إذا استثمرت حق الاستثمار على أحدث الطرق تزيد ثروتهم أضعافًا والأمير مع هذا تفرغ إلى العمل في مزارعه ويتعهدها كما يتعهد رياض العلم كل يوم ويصرف على إتقان عمله الذي صرف شبابه وها هو يصرف الآن فيه سن الكهولة وسيصرف فيه أيضًا سن الشيخوخة بحول الله شطرًا ليس بقليل من المال فعنده ثلاثة مترجمين من اللغات المختلفة ينظر فيما يترجمون لكتابه من المواد ما عدا ما ينفقه في الكتب وطبع كتابه ولكن كل ما ينفقه في سنة لا يعادل ما ينفقه غني واحد من فساق أغنياء الأميركان أو الروس مثلًا في ليلة واحدة في باريز أو مونت كارلو فسبحان من أودع في كل قلب ما أشغله.

طاف الأمير كثيرًا من بلاد الشرق ولا سيما الهند وفارس والشام ومصر ودرس أحوالها وطابق بين ماضيها وحاضرها فإذا تكلم في تاريخنا صدر عن علم نظري وعملي. ولقد ذهب منذ ست سنين إلى بلاد الشام ليرى بعينه المكان الذي كانت فيه الوقعة الفاصلة بين العرب والروم في اليرموك. وهذا قلمًا يتيسر إلا لمن أوتي همة شماء واستسهل ركوب كل صعب في سبيل تحقيق رغائبه.

وما زال منذ بدأ في التأليف وهو يدأب وراء منضدته في مكتبته كأنه عامل بسيط فإنه يبدأ في عمله كل يوم الساعة الخامسة صباحًا على الغالب ولا يزال أكثر النهار يعمل ويطالع لا تعرو همته ملل ولا ينظر في سفاسف الأمور. ولقد كان نائبًا في الانتخاب الماضي في مجلس النواب

فأضاع في النيابة شيئًا من وقته ولكن لم ينتخب هذه المرة فكان ذلك من حظ العلم والآداب لأنه توفر بجملته على خدمتهما.

وعدم انتخابه ناشيء من أن خصومه السياسيين اتخذوا من خطة الأمير في مسالة فتح إيطاليا لطرابلس وبرقة حجة أناروا بها الراي العام حتى لا يعودوا إلى انتخابه وذلك أن الأمير أحب أن يتكلم بلسان العالم المنصف ولم يعقه حبه لأمته عن أن يقول لها وقت قامت حكومته لفتح تلك البلاد إن هذا العمل منها ضرب من ضروب اللصوصية لا يليق بأمة متمدنة وليس له مسوغ معقول قال هذا بالتلميح في المجلس وكتبه في الصحف الإيطالية وغيرها بالتصريح فحنق عليه من حنق وأثاروا الخواطر من جهته وقد بذل مالًا كثيرًا للنيابة عن أمته قيل إنه عشرون ألف ليرة ولكن خصمه بذل خمسة وثلاثين ألف ليرة ففاز عليه.

والأمير على ما رزق من الشهرة العلمية لجمعه بين المجد التالد والطارف رقيق الحاشية يغلب عليه عدم التكلف ولما قابلته لأول مرة حاملًا إليه من صديقه أحمد زكي باشا العالم المصري كتاب توصية ليقبلني للبحث في مكتبته اعتذر عن كونه قابلني بثياب عمله وقال إن عنده شيئًا من المخطوطات العربية أخذت بالتصوير الشمسي ولا يدري إن كان فيها حاجتي على أنه تفضل ودلني على مظانها وما برح اليوم بعد الآخر يشير علي بالرجوع إلى كتاب كذا ففيه مادة لكتابي وهو يبش ويقول في الأحايين إنه مسرور لعثوري على شذرات تهمني كل هذا وهو لا يضيع دقيقة من وقته الثمين وناهيك بارتفاع أسعار الأوقات في الغرب ولا سيما عند المشتغلين بالعلم والتأليف ومنهم أرباب الصحف والمجلات ومنشؤها مثلًا.

لئن امتازت الخزانة التيمورية في مصر بأنها تحوي أمهات كثيرة من مخطوطات علماء الإسلام في علوم مختلفة وامتازت الخزانة الزكية بالقاهرة بجمعها أنفس المطبوعات العربية في العرب فإن الخزانة الكايتانية في رومية تحوي على الغالب أهم كتب التاريخ الإسلامي أو ماله علاقة فيه وذلك باللغات المختلفة ولا سيما العربية مما هو جدير أن يرحل إليه من الصين لا من دمشق.

وقديمًا كان أمراء المسلمين وعلماؤهم يفتحون خزائنهم للباحثين والمؤلفين ينزلونهم على الرحب و السعة كما فتح منصور بن نوح الساماني خزانة كتبه لأبي منصور الثعالبي فألف فقه اللغة وكما فتح علي بن يحيى المنجم من أهل القرن الثالث في قرية له نفيسة بكركر من ضواحي القفص خزانة كتب عظيمة في قصره الجليل وسماها خزانة الحكمة فأخذ الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى وكما وقع من غيرهما كثير أما اليوم فإن هذا المعنى كاد يتفرد به علماء الغرب وأمراؤه وأصبح الشرق بلقعًا حتى من كتبه وآثاره وانتقل تراثه بحكم الطبيعة إلى من أحسن تعهده واستثماره سنة الله في خلقه.

نساء الإفرنج

٤٠

الإنكليز أعجب أمم الحضارة في أخلاقهم وعاداتهم لا يقبلون الجديد إلا بشق الأنفس ولكنهم إذا قبلوه تناغوا فيه وحرصوا عليه وبرزوا على من سبقهم وسابقهم.

والغالب إن كل الحاجيات تمت أو كادت في هذه المدنية الغربية حتى قامت بعض نساء الأمم وطالبت بإشراكهن في حقوق المدنية فأصبحن ينتخبن نائبات في المجالس النيابية ويشركن الرجل في أعمال السياسة ومن الفائزات السابقات في هذا السبيل نساء فنلندا وأوستراليا وزيلاندة الجديدة والنروج.

رأى النساء الراقيات من الإنكليزيات ذلك ورأين حقوقهن مهضومة مع الرجل وغرن -والغيرة من خصائصهن- من اللاتي سبقنهن من بنات جنسهن وقمن منذ ثلاثين سنة يطالبن حكومة بريطانيا العظمى بحقوق بنات حواء وما زلن منذ عقدت العقيلتان كوب وميلنر احتجاجًا في لندرا سنة ١٨٨٤ وهن على وتيرة واحدة من السعي وراء مقصدهن لم يدخل الملل على نفوسهن.

خطبت إذ ذاك العقيلة ميلنر وقالت إنها أزمعت أن لا تدفع الخراج الذي عليها للجابي بحيث تضطره إلى أن يكسر بابها ويحجز متاعها وهكذا تقاوم الحكومة وكل سنة تزيد قسوة وإملالًا. فضحكت الصحف من هذا القول إذ ذاك ومن الغد أرسل إليها من جميع أطراف إنكلترا إبر للخياطة. إشارة إلى أن المرأة هذا شأنها ولا يليق بها أن تخرج عن هذا الحد.

ولكن المطالبات بهذا الحق ظللن يجمعن قواهن هذا وهن على عهد الملكة فيكتوريا التي سنت للملكات دع نساء الطبقات المختلفة من السوقة سنة توفر النساء على تربية أولادهن وتدبير منازلهن والقيام على أسراتهن وبيوتهن حتى قالت في مفكرتها إن أحسن امرأة هي التي تبدو صالحة لزوجها وأولادها.

ولقد ربت ملكة إنكلترا وإمبراطورة الهند بناتها على التربية البيتية الراقية حتى إن الأميرة أليس دي هيس درامستاد كتبت إلى أمها تقول: ها قد صنعت الفساطين اللازمة لبناتي الصغيرات في الشتاء فعملت منها سبعة ولم أطرزها فقط بل فصلتها وخطتها وعملت أيضًا رداء من الصوف للطفل الذي ننتظر قدومه وأنا التي أتولى حسابات الدار ولذلك تريني مستغرقة في العمل. إن أسرتنا الصغيرة تزداد بسرعة وستقضي علينا الحال بعد بضع سنين أن نعيش باقتصاد زائد.

في مثل هذه الأمة التي ملكتها وأميراتها على هذا الطراز من حب الانصراف إلى الأعمال البيتية يقوم ربات الحجال في أقصى بلاد الشمال ويعمدن إلى القسوة في المطالبة بحقوقهن السياسية حتى لقد لجان كما قالت جريدة الماتين من مقالة افتتاحية إلى استعمال القوة في مقاومة رجال الضبط والربط بل ان تلك الأيدي اللطيفة التي يجب أن تكون رباتها ملكية الأخلاق بلطفها ودعتها هي التي تتهمها (التيمس) بأنها تشعل الحريق في بعض بلاد الإنكليز لتحمل الحكومة على إجابة تلك المطالب وأنه قد حرق في شهر تشرين الأول الماضي في بريطانيا من الأملاك ما يقدر بنحو ستة ملايين فرنك ونصف ونبت بالتحقيق أن للمطالبات بحقوق النساء يدًا في نحو عشر حرائق منها وأن النساء المتحمسات لهذه الفكرة يطلبن شيئًا من المال فلا يلبث أن يحمل إليهن فقد طلبن مرة مئة ألف جنيه وأخرى ربع مليون جنيه وكلما طلبن مالًا يأتيهن عفوًا ويقدر ما يصرف النساء الإنكليزيات في الشهر بنصف مليون فرنك على تحقيق مطالبهن.

هذه هي أعمال النساء الإنكليزيات ومعظم البشر لا يوافقونهن على استعمال القوة في مقاومة القوة ولكن هذا الثبات يدل على روح غريبة لا أثر لها في الشرق وكيف تكون حال نساءنا مرضية وهن راضيات عن

تقهقرهن فرحات بجهلهن. العاقل لا يطلب لنساء الشرق أن يشاركن الرجال كما هن في الغرب فإن تقاليدنا وأديانا وعاداتنا لا تنطبق مع هذا ولكن كل ما تتقيد به من قديم لا يحول بين نسائنا وبين التعلم وليت شعري كم مدرسة فتحت لتربية البنات في عهد الدستور في القطر السوري وكم رجل فكر أن يعلم بناته فن تدبير المنزل كما يعلم في الغرب.

القشور التي يتلقفها بعض بناتنا في مدارس الأميركان والفرنسيس والألمان ومدارس الحكومة لا ترقى أمة تشكو الليل والنهار من جهلها وجاءتها وتجيئها جميع المصائب من تعشيشه في صدور كبرائها فما بالك بالصغار. إن ما يراه السائح في أوربا من مظاهر تربية المرأة ومضاهاتها الرجال في جلائل الأعمال يبكيه على الشرق ولا سيما الشرق الإسلامي الذي تأتيه العبر عن أيمانه وشمائله ولا يعتبر.

تسعى إيطاليا اليوم لإعطاء المرأة حقها في التصرف بمالها كما تحب دون أن تكون مقيدة بإرادة زوجها أو وليها كما كانت حتى الآن وفي الشمال حاز بنات نوعهن كل هذه الحقوق وهن يطالبن بحقوقهن السياسية ونحن حتى الساعة لم يفكر نساؤنا ورجالنا في شيء لإنهاض المرأة من كبوتها فما أبعد الفرق بين الجنوب والشمال في تربية الرجال وربات الحجال.

وبعد فإنا نشاهد كل آن العجب العجاب في هذه الديار الغربية من مشاركة الرجل للمرأة في أعمال الحياة مشاركة هي على غير الطريقة التي جرى عليها الشرقي الأقرب الذي جعل المرأة في منزلة يصح أن يقال إنها أقصى دركات الانحطاط وهيهات أن تنجح أمة نصفها عاطل لا يعمل ولا

يفكر ينظر إليه بغير العين التي يجب أن ينظر إليه بها وينزل منازل الجهل والخمول.

قلنا إن العاقل لا يطلب لبلادنا أن تكون المرأة فيها كما هي في الغرب فإن هذا أشبه بمريض يحتاج إلى جرعة من الدواء قدر درهم فتعطيه رطلًا وبذلك تقتله لا محالة. نعم لا نريد لنسائنا الآن أن يكون لهن حق المشاركة في السياسة ولا الاختلاط بالرجال على مثل هذه الحال ولا أن يكن منقطعات إلى العلم والآداب فقط بل نريد تعليمهن التعليم الابتدائي الراقي الذي يكون محوره ترقية عواطفهن الدينية والمدنية ليكون من المرأة أم تحسن التوفر على تعهد بنيها وبيتها وتدخل السرور على قلب بعلها ومحارمها وأن نقتطع فئة من هؤلاء المتعلمات للتعليم ليتخرج بهن البنات والصبيان على السواء وهن يكن من الدارسات العلوم العالية بالطبع.

قرأت الآن في (الجورنال) مقالة افتتاحية لأحد المشتغلين بالتعليم عند الفرنسيس جاء فيها بمناسبة القانون العسكري الجديد وجعل الخدمة ثلاث سنين إن فرنسا استاقت ألفًا وستمائة معلم في سن القرعة للخدمة العسكرية وأنها ستستعيض عنهم بالمعلمات يعلمن الصبيان قال الكاتب إنه ساح في أوقات مختلفة في عدة بلاد كانت فيها المدرسة الابتدائية تقبل الفتيات كما تقبل الفتيان معًا على نحو ما تقبل المدارس العليا الطالبات مع الطلاب فرأى أن ذلك لا يضر بالآداب بل ينفعها فإن الرجال لما كان شأنهم أن يعيشوا مع النساء فمن السخف أن يفصل بعضهم عن بعض عشرًا وخمس عشرة سنة وأن يعود كل جنس أن يعتبر الجنس الآخر دخيلًا وخطرًا فإن التعليم المشترك يغرس في الفتيان الشعور بالرجولية وفي الفتيات حياء بدون أن يكشرن عن أنيابهن. فإنا نجد في البيوت التي يكون للبنات فيها إخوة وللإخوة أخوات يحرزن صفات

ليست أصلًا لغيرهم من الأولاد ونحن لا نريد مدارس مختلطة بل مدارس للصبيان تسلم أزمة التعليم فيها للنساء.

المرأة تحب الأولاد وتعرف مراميهم فإن فطرة الأمومة التي تتنبه في الفتاة تحبب إليها الأولاد وتعرفها بهم ويكون الأولاد في الحال على ثقة مع معلمة فتاة كانت أو عجوزًا في حين أن شبان المعلمين لا يتيسر لهم أن يحبوا الأولاد وذلك لأن المتزوج رب الأسرة ربما توسع في حبه أولاده فأحب أولاد غيره على ما يوحي إليه العقل ولكن معلمًا في العشرين لم يتزوج لا يحب الأطفال بل يضربهم ولا يبالي بهم لأنه يعتقد نفسه بأنه أشبه بالمرضعة وأن درجته انحطت فيجب مراعاة لمصلحة التعليم والأولاد معًا أن يوسد أمر التعليم في مدارس الأطفال إلى النساء بدون استثناء فإن الطفل الذي يبدو شيطانًا أمام معلمه يحاول أن يرضي معلمته كما هو الحال في المقاطعات المتوحشة في غربي الولايات المتحدة فيستبدل بمعلمة كل معلم لا يحسن التصرف مع الأولاد فيعود نظام المدرسة إلى أحسن ممَّا كان.

قال إن للمرأة أسرارًا في اللطف والصبر والثبات الممزوج بحب وحسن النظر يجهلها حتى المعلم الخبير فما بالك بالمبتدئ بالتعليم. المرأة تعلم وتفهم ألف أمر لا يستطيع الرجل أن يفهمها ولا يحرزها. إنها رزقت جميع أسباب اللطف التي ترافق الإحسان.

هذا ماله تعلق بموضوعنا نقلناه فمتى تنشأ لنا مدرسة في كل حاضرة من حواضر بلاد العرب تعلم الفتيات ليكن معلمات للبنات أولًا وإن أمكن للصبيان أيضًا وريثما تنم هذه الأمنية يكتفي اليوم بالمتخرجات من مدارس المبشرين أو المدارس الطائفية ويوسد إليهن تعليم البنات والبنين.

وما أظن إلا القليلات من المتعلمات في بعض المدن العربية والقليل من المتعلمين يفكرون في هذا المطلب الجليل الذي هواهم الأدواء القتالة في جسم مجتمعنا وهيهات أن يحصل على شيء من البرء إلا بتعليم البنين والبنات بل إنه بدون العناية أولًا بتعليم البنات لا تستقيم لنا مدنية وتكون تعليمها الأمور النافعة بحسب ما تقضي به عاداتنا ومعتقداتنا فينهض المجتمع العربي بإنهاض شأن المراة وبدون ذلك لا أمل لنا بإصلاح بيوتنا.

المدنية لا تشفق

٤١

أحببت أن أخدر أفكاري موقتًا عن النظر في أخبار بلادي فأخذت أطالع بكثرة صحف هذه الديار ولا سيما باريز منها وأعني عناية خاصة بالحوادث الداخلية مما لا يتيسر للصحافي الشرقي كل حين فأتلو كل يوم مرات أخبار القتل والانتحار والاعتداء والفجائع والفظائع بتفاصيلها وكلها تدل على استهانة الغربي بالحياة جريًا على ما ورد في المثل العربي (احرص على الموت توهب لك الحياة).

لا ينكر أن من الحوادث الطارئة هنا ما يسوق إليه اختلال الشعور من الإكثار من الخمور وانحلال العقيدة باليوم الآخر ولكن منها ما يدل على شمم وعزة نفس وتوقع المجد والشهرة. وبينا نجد ابن البادية عندنا يقتل عابر سبيل ليذهب ببندقيته أو فرسه أو كيسه أو ثوبه ترى الغربي ينتحر هو وزوجه أو ولده تخلصًا من شقاء الحياة أو تفاديًا من الوقوع في فضيحة أو لسائق غضب أو غير ذلك من الأسباب ومنها التافه ولكنها كلها تدور على احتقار الغربيين للحياة.

قرأت الآن في (البتي جورنال) أن العلماء بدأوا يتحركون لفقد بعض أجناس من الحيوان كادت تضمحل بسوء تدبير الإنسان وظلمه وقسوته وأن المجمع العلمي الباريزي قد حصر جلسته الأخيرة في البحث عن أسباب حماية الفيل والكركدن والحوت والطيور التي تكثر في البلاد الحارة وتصاد بلا شفقة ليتزين نساء الغرب بريشها وإذا لم ينظر في طريقة تحفظ بها أنسال هذه الحيوانات تنقرض بعد بعض سنين لا محالة فيكون الناس أشبه حالًا بحكاية من قتل الدجاجة اعتقادًا منه أن في بطنها بيضة ذهب.

قال صاحب المقالة: منذ عرف العالم ما زال الإنسان يظلم ويطمع في القضاء على الحيوانات ويسيء استعمال الأسباب التي جعلتها الفطرة أمامه فلأجل نفع معجل بل وربما كان لجلب سرور بربري يقتل بدون خشية أنواعًا من الحيوانات النافعة التي يحدث من فقدها اختلال في ميزانية هذا الوجود. هو يقتل الفيل لأن العاج ثمين جدًّا ويذبح كلب البحر لأن جلده يباع بثمن غال ويصيد الجوارح والطيور لأن ريشها تزدان به رؤوس النساء المتبرجات إلخ.

وبينا أتصفح هذا وأعجب من رقة شعور القائمين بهذا الأمر وعطفهم على الحيوان وخوفهم من انقراضه مخافة أن يحدث منه خلل في ميزانية عالم الكون والفساد، إذا بي أرى في الصفحة الثانية أخبارًا من فجائع الطيارات وهلاك الطيارين مما يحدث مثله كل بضعة أيام في الغرب لأن مدنيته لا تشفق بل لا تقوم إلا ببذل بعضهم أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة العلم.

كان بعض رجال الرحلات من الغربيين منذ قرون يهلكون في الصحاري القفار أو في القطبين وتجشم أخطار البحار أما اليوم فبعد أن

اكتشفوا العالم الأرضي أصبحوا يريدون أن يكتشفوا العالم السماوي كانوا بالأمس يعملون في البسيطة وهم اليوم يريدون أن يسخروا الجو وما ندري غدًا ماذا يخبأ العلم والاختراع من بدائع المستحدثات التي تباع في تحقيقها الأرواح بيع السماح.

كنا بالأمس نقول إذا تلونا سياحة أحد أرباب الرحلات من الغربيين إن كاتب الرحلة في حلم يملى من عالم الخيال ليرى أنه لقي أهوالًا من سفره ويشتهر بين جيله وقبيله ونرجح أن معظمها أشبه بقصة السندباد البحري وحكاية ألف ليلة وليلة بيد أن ما نقرأه اليوم بل نشاهده عيانًا من أخبار الطيارين في طيارات السماء كاد يدعونا إليى تحسين الظن بأكثر ما أورده أرباب الرحلات وأن هذه المدنية التي نتمتع بها إن هي إلا ثمرة الاستهانة بالحياة في سبيل الأغراض الشريفة.

مدنية الغرب تقتل الحيوان لفائدة الإنسان بل تقتل الإنسان لفائدة الإنسان وهذه التجارب التي خص الغربي بطول الروح عليها هي التي نشأت منها أكثر الاختراعات والاكتشافات الماثلة حسناتها للبشر اليوم منادية بأن الأمم التي قام أبناؤها بشيء من هذه الأعمال حرية بأن تنال ذروة المجد لأن من سخر قوى الطبيعة الصعبة لمنفعته لا يعسر عليه أن يسخر الإنسان للإنسان.

مدنية الغرب لا ترحم أحدًا ومتى رحم من لا يرحم نفسه. والغرب لا يحزن لفقد ألف أو ألوف من أبنائه قذفًا من الجو وهم يطيرون لأنه موقن بأن هذه التجارب تنجلي في النتيجة عن خير لهذا المجموع فمتى نرى أناسًا من الشرقيين ينهجون هذا المنهج ويقلدون الغرب في صالح أعماله فإن ممًا يخجل الشرق أن يعمل الغرب كل هذه الأعمال المدهشة وهو

نائم باهت وأن يقتل الشرقي أخاه في غرض تافه ولا يقتل نفسه في تحقيق عمل مجيد ومجد مؤثل:

وبعض خلائق الأقوام داء ... كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء أن يعطي مناه ... ويأبى الله إلا ما يشاء
وكل شديدة نزلت بقوم ... سيأتي بعد شدتها رخاء
ولا يعطي الحريض غنى لحرص ... وقد ينمي على الجود الثراء
وبعض الداء ملتمس شفاه ... وداء النوك ليس له شفاء

تكريم الرجال
٤٢

عرف الغربيون حسن الانتفاع من كل شيء فصاروا إلى زمن هم في العالم كل شيء لأقول إلا قولهم ولا مدنية إلا مدنيتهم التي هي خلاصة مدنيات العالم بأسره فيها اندمجت مدنية رومية وأثينة وبابل وأشور ومصر وفينيقية والأندلس وبغداد وفارس.

إن هذه المدنية التي تتمثل لنا كل يوم في صور شتّى قامت بعقول الرجال وأعمال الأبطال ولذلك كان الحري بالتبجيل مصدر هذا الفضل والمعول الذي كان عليه المعوّل في نبث المدفون واختراع المعدوم.

يكرم الغربيون رجالهم حتى ليخال الشرقي أنهم على شيء من المبالغة وأكثر الأمم إيغالًا في ذلك الفرنسيس على ما رأيت فإن رجالهم لقوا من التكريم والتنويه ما لا يكاد يراه أمثالهم في الأمم الغربية نفسها. وإن المرء ليعجب كل العجب من تغنيهم حتى اليوم بجان دارك إحدى فتيات القرون الوسطى التي بزت الرجال بشجاعتها ودافعت عن وطنها

أمام جيوش الفاتحين من الإنكليز وإلى اليوم هي المهماز الأعظم لفتيات فرنسا بل لشبانها تقام باسمها المعابد وتسمى الشوارع وتنصب التماثيل وتؤلف القصص التمثيلية وغيرها في وصف سيرتها.

ولا بدع فإن الفرنسيس كما قال برزبابين -أشهر رجال الصحافة الأميركية- ورثوا عن اليونان والرومان نبوغًا كانوا به أدلة وموحدين بالأفكار للعالم منذ عند شارلمان فقد كانوا الأولين في الحركة العقلية السابقين في شجاعة القلب وشجاعة الفكر المجلين في فن الحرب وفن الهندسة وفن الجرأة الطبيعية الخارقة في إنشاء السيارات والطيارات وفي عامة الأعمال التي تحتاج إلى عقول لا تخاف وتتطلب إقدامًا عليها لساعتها.

قرأت أمس في (الماتين) مقالة جاء فيها إن الفرنسويين يتأهبون للاحتفال بعيد مرور مئة سنة على موت بارمانتيه (يوم ١٣ كانون الأول سنة ١٩١٣) وربمًا يقل في قراء العربية من يعرفون هذا الرجل ويودون الاطلاع على طرف من ترجمة حياته ليذكنوا على الأقل من هو الذي يعاد ذكره بعد أن نصبت له التماثيل وصيغت باسمه الصفائح التذكارية وأنشئت الجواد والشوارع بل أنشئت قرية باسمه في الجزائر.

بامانتيه هو مخترع البطاطا في فرنسا أو مدخلها إليها على صورة عمَّ استعمالها جميع طبقات الناس فخدمتهم في اقتصادهم وبيوتهم وتغذيتهم مدة القرن الماضي. كان هذا الرجل من أبناء العامة سافر من بلده مونتيديه إلى باريز ليسابق في وظيفة صيدلي في الجيش فقبل وأرسل مرات إلى ساحات القتال ومنذ سنة ١٧٩٣ حتى يوم وفاته كان يتولى أعظم الوظائف الصحية العسكرية مثل عضو في مجلس الصحة ومفتش عام وصيدلي أول في الجيش الفرنسوي وفي خلال حرب السبع سنين أخذ أسيرًا وفي

أسره تسنى له أن يدرك ما في البطاطا من المواد المغذية وكانت في معظم الأوقات الغذاء الوحيد له ولأصحابه الأسرى.

حملت البطاطا من أميركا إلى أوربا من سنة ١٥٨٠ إلى ١٥٨٥ نقلها الإسبانيون أولًا ثم الإنكليز من فرجينيا وكانت غير معروفة كثيرًا في فرنسا وينظر إليها في الجملة نظر ازدراء. وما زال بارمانتيه منذ استقر أمره في صيدلية (الانفاليد) بباريز يكرر في منشورات منوعة فوائدها ويدفع اعتراض المعترضين بشدة لأنهم كانوا يحملون عليه حملات منكرة قائلًا إن رأي الناس في البطاطا أنها غير صالحة لغذاء الإنسان ساقط لا يؤبه له وكذلك دعواهم أنها تضعف الجسم وتحوي الأخطار وعلى العكس فهي لذة للأغنياء ومعوان للفقراء وسلوى في الشدائد.

وكان هذا المحسن مدفوعًا إلى ذلك بالعامل الذي وضعه بعضهم بقوله: لا يكفي من أراد أن يكون نافعًا لأبناء جنسه أن يقول لهم مرة واحدة ما رآه وما عمله وما يجب أن يعمل بل يجب عليه أن لا يمل من تكرار دعوته على صور مختلفة وطرق منوعة اللهم إلا القوة فإنها لا تستحب. ولا تنفع العلوم إلا إذا عمت الطبقات كلها. هكذا كان شأن بارمانتيه حتى انتشرت البطاطا بفضل مساعيه المتواصلة وأصبحت تزرع في أرض تبلغ مساحتها مليونًا وستمائة ألف هكتار في وطنه.

ولم يقتصر بارمانتيه على الدعوة إلى البطاطا وتحبيبها إلى الناس بل كان له أثر محمود في الخبز والخبازة ودرس الأغذية الرئيسة عند هذه الأمة وله العمل المهم في تنظيم المستشفيات الثابتة والنقالة العسكرية والمدنية إلى غير ذلك من أعماله في تنشيط الأشغال العلمية والصحية والزراعية والصناعات الوطنية ونشر التطعيم وطبخ الأحسية الاقتصادية هذا إلى جمعيات البيطرة والإحسان والمآوى التي كان عضوًا فيها أو

مديرًا لأعمالها مباشرة بحيث كان كما قال فيه أحد واصفيه السابق إلى كل مكان يمكن العمل فيه كثيرًا وأن يخدم بدون عوض ويجتمع لعمل الخير ويتأتى لمن يدعوه أن يكون على ثقة من أنه بإشراكه بارمانتيه في العمل يتسلط على وقته وقلمه وعلى ماله عند الاقتضاء.

هذا هو عمل الرجل وربما يتساءل القارىء وكيف وجد من قلبه متسعًا للقيام بكل هذه الأعمال التي تحتاج إلى بضعة رجال والجواب أن بارمانتيه كان يصحو باكرًا ويجلس إلى منضدة عمله في الساعة الثالثة بعد نصف الليل صباحًا. قالت (الماتين) وما أحق مدارسنا الابتدائية أن تتخذ من هذا الولد ابن الشعب مثالًا يبعث الهمم على العمل فإنه قد خرج من مسقط رأسه مستخدمًا صغيرًا في الصيدلية لا سند له ولا مال بل ولا تعليم إلا التافه القليل وتمكن بعمله المتواصل من بلوغ المناصب العالية وجلس في الصف الأول بين المحسنين إلى الإنسانية.

أبعد هذا نلوم الفرنسيس إذا غالوا بحمد رجالهم؟ وهل نشأ لنا نحن يا ترى معاشر العرب نصف رجل مثل بارمانتيه منذ بضعة قرون وكان بسيرته وعمله حريًا بأن نحتفل به ونذكره بكل شفة ولسان ونخلد اسمه في سجلات الأزمان.

صناعة الفنادق

٤٣

لعل بعضهم يعترض على هذا العنوان فيقول وهل أصبحت الفنادق والإنزال صناعة حتى تحدثنا بها ولكن من رأى الفنادق في الغرب ولا سيما في البلاد التي يكثر إليها اختلاف السياح كفرنسا وايطاليا وسويسرا مثلًا يهون عليه أن يتصور معنى الفنادق فيرى قصورًا شاهقة ذات حدائق

غناء مجهزة بأجهزة قصور الملوك أو أكثر وفيها من التحف والألطاف وبدائع الصناعات ما يلفت عقل البليد دع الحساس الذكي.

صناعة الفنادق لا تتمثل حق التمثل إلا لعين من كثرت سياحاته إلى الأقطار المختلفة وهناك يدرك خطرها كما يدرك قدر الصحف فيرى إدارة كل نزل أشبه بديوان كبير من دواوين الدول أو مصرف عظيم أو جريدة منتشرة. وإتقان تلك الصناعة متوقف على العلم الحديث فكلمَّا تأصل في الشرق والغرب وكثر الترف والنعيم زاد رواءً وإتقانًا.

إن ما نراه في مصر والشام من إتقان بعض الفنادق إن هو إلا جزء ممَّا أوجده العلم في القارة الأوربية والأميركية وفي مقدمة الأمم التي استفادت من فنادقها وأحسنت القيام عليها الأمة السويسرية حتى سمى بعض الفرنسيس أهل سويسرا (الفندقيين) تحقيرًا لهم مع أن هذه الصناعة كغيرها ممَّا لا يثلم الشرف ولا يعبث بالمروءة شريفة في ذاتها ولا يعد التوفر عليها سبة وعارًا. وكفى السويسريين بأن أهم الفنادق في إيطاليا وغيرها هي بأيديهم يديرونها ولايفوقهم أحد في هذا الشأن. ليس الفندق أو النزل الحديث كما يتخيل بعضهم عبارة عن خان من الخانات متقن بعض الشيء فانه قد يوجد في الفنادق الحديثة من أسباب الرفاهية والنعيم مالا يوجد مثله في قصور العظماء. الفندق الحديث هو معهد مؤلف من عدة أمور تحتاج حسن سيرها إلى عناية وملاحظة، خذ لك فندقًا متوسط الكبر تجد فيه بحسب طبقته ومساحته أعمال الكهربائية (مراجل ودينامو) وآلات التدفئة والتهوية وأدوات لاستخراج الجليد وحجرًا مبردة وأفرانًا للخبز والحلويات وآلات للتصعيد ومطبعة ومكتبًا للبريد والبرق واصطبلات ومحال لحفظ المركبات والسيارات وعقودًا وقد يساوي ما يحويه الفندق من المواد مئات الألوف من الفرنكات تكفي النزل الشهرين

والثلاثة ومعملًا للتصليح ومحل نجارة وحدادة إلى آخر ما هنالك ممَّا لا مقابل له بالعربية للتعبير عنه.

وللفندق خدام يقومون على غاباته وحدائقه ومتنزهاته وطرقاته وسواق تامة أدواتهم لنقل الأمتعة والأثقال منه وإليه على الخيل أو السيارات. ورجال إداراته أكثر من رجال وزارة فمنهم المستقبلون والقائمون على إعطاء التعليمات لمن يطلبها ومنهم العارفون بالسكك الحديدية وآخرون للمحاسبة وبعضهم للصحة وغير ذلك.

فالفندق مستعمرة صغيرة ينقسم أقسامًا قد يختلف عدد القائمين بأعماله من ١٠٠ إلى ٣٥٠ شخصًا. ومدير الفندق سواء كان مالكه أو مديره مسؤول عن كل ما فيه يديره ويعنى به ويمونه ويلاحظه ويسأل عن كل غلط يأتيه رجاله العاملون بإشارته أو النازلون عنده. والقانون يسأله وحده فقط عن كل ما يحدث.

ولذا لا يكون صاحب الفندق في الغرب رجلًا عاديًا يكتفي منه أن يكون حسن البزة عارفًا بالقراءة والكتابة والحساب بشوشًا مؤنسًا بل هو رجل متعلم من الدرجة الأولى يحسن إدراك ألوف من التفاصيل في إدارة تحتوي غرائب معقدة بحيث يكون أهلًا لأن يتصرف في الحوادث اليومية التي قد تقع اضطرارًا في عمل يحوي في جملته أعمالًا صناعية وتجارية مختلفة وليست الأدوات التي يقوم بها الفندق ميكانيكية بل عقلية قد تتعارض فلا بدع إذا طلب هنا من صاحب الفندق أن يكون مهندسًا نقاشًا سياسيًا تاجرًا بل طبيبًا للأرواح والأشباح.

عرفت الأمم الممدنة مكانة هذه الصناعة فجعلت لها المكان الأول في حياتها الاقتصادية والتجارية والصناعية وفتحت المدارس لتعلمها كما فتحت مدارس لتدبير المنزل الذي تتوقف عليه حياة البيوت وسعادتها

وغبطتها. ولقد كانت النفس تحدثني وأنا أشهد من لذاذة الحياة في فنادق الغرب ومساكنه (بانسيون) وحذاقة طهاتها ونظافة خدامها وخادماتها بأن يأتي أناس من الطبقة المستنيرة المثرية من أبناء بلادي ليروا شاهدًا عيانيًا محسوسًا على ترقي الغرب وتدني الشرق ويفاضلوا إذا رجعوا إلى أهلهم بين حالنا وحال غيرنا وينقلوا بعض ما يمكن نقله من أسباب النظافة وحسن تحضير المآكل وتنويعها وجمال السرر وبساطتها والغرف وفرشها والمقاعد والخزائن والمغاسل والحمامات وأماكن الاطمئنان وغير ذلك من أساليب الراحة والنعيم الذي لم يظفر ببعض بعضه أغني الأغنياء فينا اللهم إلا بعض عقلاء الكبراء في الحواضر الكبرى وخصوصًا في مصر.

ولكم كنت أشتهي أن يأتي بضعة شبان ممن سبق لهم الخدمة أو النظر في فنادق مصر والشام واختلطوا بالإفرنج وعرفوا خصائصهم وتأنقهم في مطعمهم ومنامهم وملبسهم أن يقضوا ولو شهرًا في الفنادق الكبرى ويحضروا ولو سنة دروس مدرسة الفنادق وتدبير المنزل في سويسرا وأظن أن من يفتح فندقًا ويحسن النظر فيه بحيث يضاهي به أو يكاد فنادق الغرب المتوسطة ينفع نفسه وأمته في اقتصادياتها أكثر من ألف موظف في الحكومة متوسط المعارف لا يهمه إلا رضا من سبقه في الدرجة وانتظار آخر الشهر لقبض الراتب.

سورية بمناخها تشبه سويسرا ولكن هذه تأخذ في السنة من المصطافين والمشتين فيها قناطير مقنطرة من الذهب وذلك لأنها عرفت من أين تؤكل الكتف في خدمة الناس وتوفير أسباب الهناء والصفاء لهم بحيث يتأتى للمرء أن يكون في النفدق سعيدًا كما هو في بيته وزيادة. وإن اتهم بعضهم الدماشقة بألا يفكروا في غير الأكل والنوم وأن هذه العادة غالبة عليهم ولكن يشفع في ذلك حالة الغرب واهتمامه بهذه الشؤون

الحيوية أيضًا وأن يكن الفرق بيننا وبين غيرنا أننا نكثر التفكر في ذلك وهم يجعلون له وقتًا لا يبحثون فيه بغيره والسلام.

رجال الكثلكة

٤٤

يجدر بنا ونحن في مهد انتشار الدين المسيحي وكل ساعة يقع نظرنا على قساوسته ورهبانه ونرى بيعه ونسمع أجراسه أن نحدث قومنا بعمل هؤلاء الرجال وتفانيهم في واجبهم.

من يمر في شوارع رومية يجد الرهبان والقسوس سائرين زمرًا زمرًا ويجدهم على الجملة يحلقون شواربهم ولحاهم ويلبسون لباسًا أسود في الأكثر على عادتهم في الشرق ويختلف هذا اللباس فالألمان والمجريون منهم يلبسون أردية حمراء فقط والفرنسيس والإنكليز يلبسونها سودًا والايكوسيون سودًا مع زنانير زرقاء وياقات سوداء والبلجيكيون يلبسون سودًا فيه شيء من الحمرة والبولونيون يكتسون السواد وغيارًا أخضر والبوهميون سوادًا وغيارًا ممزوجًا بزرقة فاتحة واليونان والروتنيون يلبسون زرقة وزنانيرحمراء مبقعة بزرقة وقسوس أميركا الجنوبية يلبسون الأسود مع غيار أزرق وبطانة زرقاء والأميركان يلبسون لباسًا أسود واسع الأكمام والأردان وغيارًا أحمر وأعضاء الدعوة إلى الدين يلبسون أردية سوداء مع غيار وبطانة هما إلى الحمرة.

هذا هو الشكل الظاهر في طلاب المدارس الأكليريكية الذين يأتون من أنحاء العالم الكاثوليكي ليدرسوا ويتخرجوا بآداب دينهم ثم يعودوا إلى بلادهم أو غيرها يعلمون ويرشدون. وهم قسمان قسم القسوس وهؤلاء يتعلمون في مدارسهم وبعد الدرس يذهبون إلى منازلهم وقد

يعيش بعضهم بين أهله وذوي قرباه فمن هؤلاء لا يطلب إلا أن يسيروا بموجب القواعد المقررة وهم أحرار فيما عدا ذلك أما الرهبان فدائرتهم أضيق لأنهم يعيشون في مدرسة واحدة مع أقرانهم ويطعمون طعامًا واحدًا ويكون في الأكثر طعام تقشف ولا يخرجون إلا برخصة أي أن هؤلاء مقيدون كثيرًا ولا قيد صغار الطلبة في المدارس الداخلية.

والرهبنات أقسام منها الفرنسيسكانيون والدومينيكيون واليسوعيون والعازريون وغيرهم ولهم أنظمة وقوانين مشوا عليها منذ قرون وأفادوا النصرانية بنشرها في البلاد التي لم تدخلها ولا سيما في الصين والهند واليابان وأواسط إفريقية وغيرها من البلاد النائية.

وكان لليسوعيين يد طولى في هذا الشان وهم بين الرهبان والقسوس أي أنهم يترفهون ويأكلون ما يشاؤون لكنهم يأوون إلى بيت خاص خلافًا للرهبان الذين يأكلون أكلًا معينًا وخلافًا للقساوسة الذين يأوون إلى بيوتهم واليسوعيون أشبه بجند منظمون على نظام غريب لم يختل على كثرة ما نالهم من اضطهاد الحكومات في الأزمان السالفة.

قال الأمير بورغزه في كتابه (إيطاليا الحديثة): إن تأسيس طغمة اليسوعيين المشهورة هو من غرائب النظام الحقيقي فتراها جمعية مؤلفة من عناصر مختارة تخضع على الدوام لإدارة الرئيس مباشرة والداخل فيها يربى على الطاعة بالتدريج والخروج المطلق عن شخصيته وإرادته. ويتراءى للناظر في نظامهم أن واضعه جندي فإن كل شيء فيه يشعر بالنظام. وقال إن نظام هذه الرهبنة ربما جرى في وضعه أغناس لويولا مؤسس اليسوعية على قواعد بعض الجمعيات الإسلامية التي كانت مشهورة في الأندلس فبنى نظام رهبنته على طاعة لا نهاية لها فتوصل بهذه

الصورة أن يؤلف جيشًا يتصرف به رؤساؤه تصرفًا مطلقًا وتفنى إرادة صغيرهم في كبيرهم.

ولمعظم الرهبان والقسوس أعمال علمية وغيرها يتعاطونها ويبرزون فيها فإذا انقطعوا للتدريس تخرج بهم طلاب كانوا صورة صحيحة منهم وإذا أخذوا بالتأليف قد يعدون من كبار المؤلفين ولذا ترى الناس في إيطاليا وفي غيرها كثيرًا ما يفضلون أن يربى أولادهم على أيدي القسوس وإن كان آباؤهم ملاحدة مارقين من دينهم.

ترى الرهبان إذا أخذوا بالزراعة والصناعة ربما سبقوا من تخرجوا فيها أعمارهم والحكومة هنا قد جعلت رواتب لقسوس الطليان كما عينت راتبًا للحبر الأعظم منذ يوم أخذت حكومة الوحدة الإيطالية أزمة الأمر بيدها واستولت على أموال الرهبنات وكنائسهم وأوقافهم سنة ١٨٧٠ لأن جميع مرافق البلاد المهمة كانت بأيديهم إذ ذاك فغيرت بعض المعاهد وجعلت بعضها مدارس ومتاحف ودواوين حكومة وثكنًا للجند وغير ذلك وحظرت على أي جمعية دينية امتلاك ملك إلا أن لرئيس الجمعية أن يملك ما يشاء وقد عادت الملة النصرانية فأخذت تدر المال على رجال الدين بعد الوحدة الجديدة ولذا تراهم يعيشون عيشًا حسنًا وأديارهم وكنائسهم منظمة وواردتهم دارة نامية والفضل في ذلك يرجع إلى المتدينين من أغنياء الكاثوليك في العالم.

قلنا إن الحكومة الإيطالية عينت منذ زهاء أربعين سنة راتبًا لإمام الأحبار ولكنه لم يقبله بعد أن نزعت منه السلطة الزمنية وكانت بيده هي والسلطة الروحية بيد أن الحكومة وضعت المبلغ تحت أمره في المصارف وفي كل خمس سنين ترفع منه الفائدة فقط وتبقي رأس المال بحاله الذي يزيد كل سنة حتى بلغ فيما بلغني (١٨٠) مليون فرنك

وحضرة البابا لا يريد أن يتناوله وهكذا عف هو وأسلافه وسيتعفف أخلافه عن أخذ مال ممن يرونهم غاصبين حقهم معتدين على سلطتهم.

إن انشقاق ألمانيا وإنكلترا وغيرهما عن الكنيسة الكاثوليكية بقيام أمثال جان هوس وكلفن ولوثيروس في أوائل القرون الحديثة وتلك الأزمنة التي دخل فيها المقام البابوي إذ ذاك لم تؤثر كثيرًا في سلطته على الأرواح والأشباح وكذلك تغلب الحكومة الزمنية في إيطاليا على جيش البابا لم يؤثر كثيرًا فبقي مقام حضرته مقدمًا وكذلك الكرادلة والأساقفة والقسس والرهبان وذلك لأن عمل هؤلاء الرجال قائم على أنظمة وقواعد معينة لا تغيرها الطواريء والرزايا ولأن هذه السلاسل في مراتب الكهنوت لا يصل إليها المريد إلا بالتعلم والتهذيب على الأصول المنبعة وكل ما جعلت التربية والتعليم أساسه يثبت ويعم أثره ويوفق الناهضون به.

ولقد لاحظنا أن الفتن الدينية التي أثارها التعصب الديني في القرون الوسطى كانت في إيطاليا أقل مما هي في فرنسا وإسبانيا حتى إن الإسرائيليين في أسبانيا لما ذاقوا العذاب الأليم جلوا عن بلادهم فكان من إيطاليا أن قبلتهم وهذا ناشئ من لين أخلاق الشعب هنا ويرجح أن كل ما وقع من الاضطهادات لم يكن مما وقف الرؤساء على حقيقته.

ولو رجعنا إلى تراجم أكثر عظماء هذه الملة من بابوات وكرادلة ورؤساء أساقفة لوجدنا كثيرين منهم خدموا المدنية والآداب خدمة تذكر فتشكر كانوا كذلك يوم كانوا ملوكًا زمنيين وروحيين ويوم أمسوا روحيين فقط فقد حدثنا التاريخ أن الباباليون العاشر في القرن الثالث عشر للميلاد وهو من أسرة ميديسيس المفضلة على العلم قد وسع نطاق الآداب وبث كلمة العلم حتى عد قرنه القرن الذهبي وكان يبسط جناح حمايته

للمصورين والنقاشين والمهندسين والأدباء ويفضل عليهم وبالطبع إن من يأتي بعده في الدرجة يحاول أن يقلده في محامده. والله أعلم

العرب والطليان
٤٥

وصل العرب إلى بلاد الأمة التي هي وارثة الرومان منذ القدم أوائل عهد فتح إفريقية وما برح العرب يطمعون في فتح جزيرة صقلية [١] لقربها

(١) وصف ابن جبير الأندلسي في عودته من الشرق ما قاسوا من البحر قرب مسينة حتى كادوا يغرقون وقال إن قد وقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله قال ومن العجب أن هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء المسلمين يتطامون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لأن أصحاب الزواريق أغلوا الناس في تخليصهم فسأل عنهم فأعلم بقصتهم وأمر لهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام. ووصف مدينة مسينة فقال إن أسواقها نافقة حفيلة وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان وإن كنت غريب لوجه واليد واللسان وقال إن مرساها أمين عجيب لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب فيها إلى البر خشية يتصرف عليها. ووصف مدينة برية ووصف بلارمة قاعدة جزيرة صقلية وما فيها من المساجد وسرقوسة. وقال إن شان ملك صقلية عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتحاد الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم لحالته متمسك بشريعة الإسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى إن الناظر في مطبخه من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون خاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ومأمنهم الأمن له الماشية والخيول والاتباع قال وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جدًا وله الأطباء والمنجمون هو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذكر له أن طبيبًا ومنجمًا اجتاز بلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة ومن

من الشاطئ المقابل لإفريقية حتى تم لأسد بن الفرات فتحها سنة ٢١٢هـ قال المؤرخون كان ابتداء حصار بلرم عاصمة صقلية في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين ودام إلى شهر رجب سنة عشرين ومائتين وفتحت بالأمان وفي سنة خمس وعشرين ومائتين استأمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها حرصه وقلعة البلوط واللاطنوا وقلعة ماروب ومرنا وغير ذلك.

عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكر الأنعمه وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن. ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طرازا الملك إن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخير أمور عجيبة وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة ولا زل مرجعة دعر لها هذا الملك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكرًا لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحتقهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن ندين به تسكينًا لهم وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم إلا شهر تطوعًا وتأجر أو يتصدق تقربًا إلى الله وتزلفًا ويفتك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم ويفعل الخير ما استطاع.

وذكر مدينة شفلودي وثرمة من جزيرة صقلية فقال في ثرمة سرنا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر وارد وطوائف النصارى يتلقوننا بالسلام علينا ويؤنسوننا فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل. وكانوا يكلمونه بالعربية وقال إن زي النصرانيات في مدينة صقلية زي نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات خرجن في العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة والتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعاية الأدبية قول الشاعر

إن مـــن يـــدخل الكنيـــسة يومًـــا ... يلـــق فيهـــا جـــآزرًا وظبـــاء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدي إلى أباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدي إلى تفنيد أنه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة اهـ.

وهذه القلاع ما زال بعضها إلى اليوم أسماء مدن تبدأ بلفظة (قلتا) أي قلعة فيقولون قلتا جيرونة وقلتا بلونة وقلتا لستا وكلها من تلك الحصون والقلاع بقيت أسماؤها كما بقيت أسماء كثيرة عربية في لغة سكان هذه الجزيرة فيقولون مثلًا (منديللو) للمنديل وغير ذلك مما يشهد بأن العرب حكموا هذه الجزيرة قرنين ونصفًا وأثرت في أهلها مدنيتهم ولسانهم وعاداتهم كما هي عادتهم في كل ما ملكوه.

راجت حضارة العرب زمنًا في صقلية ومنها تسربت إلى البلاد المجاورة فكان يرشح منها شيء كثير إلى الأقرب فالأقرب من البلاد ولعل تلك الحضارة راجت أيضًا في جزيرة قورسقة وأهلها يتكلمون بالإيطالية أيضًا وهم اليوم تحت حكم فرنسا. وملك العرب جزائر ميورقة ومنورقة المعروفة بجزائر البالايار ويابسة (المقتبس م٧ ص٦١٩) وكانوا يغزون شطوط أسبانيا وفرنسا ولا عجب بعد ذلك إذا دخلت كلمات عربية كثيرة في لغات الفرنسيس والطليان والأسبان والبرتقال.

ومن يعلم أن تلك الجزائر ممَّا راتفع عليه علم الإسلام وأن اقريطش (كريت) وقبرص ورودس ومالطة كان حظها كذلك يعرف أن العرب كانوا رجالًا في البحر كما هم رجال في البر وأنه لا سبيل إلى الأمن من الداخل إذا لم يحفظ الساحل بالجزائر والمواني والفرض ولطالما كانت الحكومات تمتلك الساحل فلاتلبث أن تبسط سلطانها على الداخل.

كان الأدارسة حكام تونس هم المتكلفين بغزو جزيرتي سردانيا وصقلية ففتحوا صقلية وكذلك ملوك جزائر الغرب أخذوا على عهدتهم غزو منورقة وميورقة فاستولوا عليهما وعامل العرب الإيطاليين والأسبانيين بالحسنى على نحو ما يأمر به دينهم ولما رأى الإيطاليون هذه المعاملة لم يشاؤا أن يغيروا شيئًا من مصطلحاتهم حتى إن الملك رجار

الذي عاد فاستولى على صقلية سنة ٤٨٥ كان يتكلم بالعربية وهو الذي أفضل كثيرًا على الشريف الإدريسي الجغرافي الذي وضع كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الإفرنج كلهم كما دهشوا للساعة الدقاقة التي أهداها أمير المؤمنين الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا.

قال الإدريسي في رجار هو الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وإيطالية وانكبردة وقلورية أمام رومية الناصر للملة الناصرية إذ هو خير من ملك الروم بسطًا وقبضًا.

ولقد كان أهل الشرق على صعوبة ركوب البحر في أيامهم يرحلون إلى بلاد إيطاليا كما يرحلون إلى الأندلس فيكتبون عليها في رحلاتهم ماتقع عليه أنظارهم وممن زار بعض إيطاليا الجغرافي ابن حوقل فقد قال إن مدينة ملف (ويقال لها الآن ملفى) تتصل بأرض نابل وهي مدينة صالحة بحال دون ملف في كثير من الأحوال وأكثر أموال نابل من الكتان وثياب الكتان وقال إنه رأى بها ثيابًا لم ير في سائر أقطار الأرض لها شبيهًا ولا يستطيعها صانع في جميع طرز الأرض وهو ثوب يعمل مائة ذراع في خمسة عشر إلى عشرة ويباع الثوب منها بمائة وخمسين رباعي وزائد وناقص.

ووصف ابن حوقل صقلية فقال إن طولها سبعة أيام في أربعة أيام والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وجميع أرضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم وهي قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال وهي خمس جادات محدودة غير متباينة ببعيد مسافة وإن كانت حدودها ظاهرة فمنها المدينة الكبرى التي تسمى بلرم عليها سور من حجارة مانع شامخ يسكنها التجار وفيها مسجد

الجامع الأكبر وكان بيعة للروم وفيه هيكل عظيم ومدينة تعرف بالخالصة ذات سور أيضًا من حجارة وليس كالسور الأول يسكنها السلطان وأتباعه وفيها دار صناعة البحر والديوان.

وبعد أن وصف أسواقها وباعتها استطرد إلى كثرة مساجدها وقال إن فيها نيفًا وثلاثمائة مسجد وفي قرية البيضاء مائتا مسجد قال ولم أر مثل هذه العدة في بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به وقد رأى على مقدار رمية السهم نحو عشرة مساجد يدركها البصر ومنها شيء تجاه شيء وبينها طريق قال وسألت عن ذلك فقيل لي إن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يحب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته وربما كان أخوان منهم متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجدًا لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده وفي جملة هذه العشرة مساجد التي ذكرتها مسجد لولده ابتناه ليتفقه فيه وغرض كل واحد منهم أن يقال مسجد فلان لا غير. قال وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحنة بالبطالين والفساق ووصف أبواب بلرمة التسعة وقال إن هذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقيها إلى غربيها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله إلى آخره بضروب التجارة.

ووصف الشريف الإدريسي جزيرة سردانية فقال إنها كبيرة القطر كثيرة الجبال قليلة المياه وطولها مائتان وثمانون ميلًا وعرضها من المغرب إلى المشرق مائة وثمانون ميلًا وطولها مارًّا من الجنوب إلى الشمال مع قليل تشريق وفيها ثلاث مدن منها الفيطنة وهي ممَّا يلي جنوبها وهي مدينة عامرة ممدنة ومنها مدينة قالمرة وهي رأس المجاز إلى جزيرة قرسقة ومدينتها الثالثة تسمى قشتالة وأهل جزيرة سردانية في الأصل روم أفارقة متبربرون متوحشون من أجناس الروم وهم أهل نجدة وحرم لا يفارقون

السلاح وفي جزيرة سردانية معادن الفضلة الجيدة ومنها تخرج الفضة إلى كثير من بلاد الروم وبين سردانية وجزيرة قرسقة مجاز طوله عشرون ميلًا.

ثم وصف جزيرة قرسقة وجزيرة البتة وبانوسة وقبريرة وقبرة وشكلة وبنت برة ومونسة وبونسة واسترنجو وجزيرة البركان وليبر ودندمة وفيكوذة واركوذة واشتقة وجزيرة الراهب واليابسة وغيرها وقال في وصف مدينة بلرم: وبها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهي على قسمين قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة فالسماط الأول يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والسماطان الباقيان فيهما أيضًا قصور سامية ومبان فاخرة عالية.

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات مدينة رومية فقال إنها مدينة رياسة الروم وعلمهم وهي في شمالي غربي القسطنطينية وبينهما مسيرة خمسين يومًا وهي في يد الإفرنج ويقال لملكهم ملك المان وبها يسكن البابا الذي تطيعه الفرنج وهو عندهم بمنزلة الإمام الذي يكون واجب الطاعة ومدينة رومية من عجائب الدنيا لعظم عمارتها وكثرة خلقها ذكر الوليد بن مسلم الدمشقي أن استدارة رومية أربعون ميلًا في كل ميل منها باب مفتوح فمن دخل من الباب الأول يرى سوق البياطرة ثم يصعد درجًا فيرى سوق الصيارفة والبزازين وذكر أن بين يدي السوق سوق آخر على أعمدة نحاس كل عمود منها ثلاثون ذراعًا وبين هذه الأعمدة نقير من نحاس في طول السوق من أوله إلى آخره فيه لسان من البحر تجري فيه السفن فتجيء السفينة في هذه

النقرة وفيه الأمتعة حتى تجتاز على السوق بين يدي التجار فتقف على تاجر تاجر فتختار منها ما تريد ثم ترجع إلى البحر.

وذكر أشياء عجيبة عن كنيستها وقال إن فيها عشرة آلاف دير للرجال والنساء وبها جامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوم والحكمة والهندسة وغير ذلك قالوا إنها مائة وعشرون موضعًا قال وقد مثل في الكنيسة صورة كل نبي بعث من وقت آدم إلى عيسى عليه السلام وصورة مريم عليها السلام كأن الناظر إليهم يحسبهم أحياء وحكى أن أهل رومية يحلقون لحاهم ووسط هاماتهم فسئلوا عن ذلك فقالوا لما جاءهم شمعون الصفا والحواريون دعوهم إلى النصرانية فكذبوهم وحلقوا لحاهم ورؤوسهم فلمَّا ظهر لهم صدق قولهم ندموا على ما فعلوا وحلقوا لحى أنفسهم ورؤوسهم كفارة لذلك.

وممن رحل إلى إيطاليا جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضي القضاة بحماة وكان إمامًا مبرزًا بالعلوم العقلية عارفًا بالمنطق والهندسة والأصول والفقه والهيئة والتاريخ توفي سنة ٦٩٧ ذهب هذا رسولًا إلى صاحب صقلية من قبل الملك الظاهر بيبرس الصالحي وذكر أنه أقام عنه وفي مدينة من مدائن البر الطويل المتصل بالأندلس من مدينة أنبولية واجتمع به مرارًا ووجده متميزًا ومحبًّا للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس قال وبالقرب من البلد الذي كنت فيه مدينة تسمى لوحارة أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الإسلام.

وفي هذا القرن كان الإيطاليون هم رجال التجارة والأساطيل في البحر المتوسط وكانت لسكان بيزه وهم من إقليم طوسكانيا تجارات واسعة في الشام وقال ياقوت إن السعة ظاهرة عليهم وجمهوريات بيزة

وجنوة والبندقية هي أكثر البلاد الإيطالية في القديم والحديث اختلاطًا بالشرق ولما كان الطليان يأتون بلاد مصر والشام وسواحل البحر المتوسط منتجعين للرزق والاتجار كانت بقية امم أوربا غائصة في مفاوز الجهالة.

نشر المستشرق ميشيل اماري في مدينة فلورنسة الشروط والعقود السياسية بين ملوك بيشة (بيزة) وفلورنته (فلورنسة) أو أفلورنسا وبين ملوك المسلمين في تونس والغرب الأقصى ومنها عقد من الملك قايتباي للفلورنتيين ذكر في شروط البنادقة أن تجار المسلمين يبتاعون من تجار البنادقة أصنافًا من متاجرهم من جوخ وصوف وغير ذلك وآخر هذه العقود سنة عشر وتسعمائة هجرية وأولها في منتصف القرن السادس.

وهكذا عاد العرب فاستخلصوا بلادهم من الطليان فكان الاختلاط على أتمه بين الأمتين ولا سيما عندما تضع الحرب أوزارها وكثيرًا ما كان رسل ملوك الإسلام يأتون إيطاليا فقد ذكروا أن ابن خلدون المؤرخ جاءها رسولًا من قبل صاحب تونس وصوره الطليان إذ ذاك على الحجر وجاءها في القرن الحادي عشر الأمير فخر الدين المعني صاحب لبنان وأقام بها عدة سنين ملتجئًا ووصف عمرانها بالضخامة وتفنن أهلها في النقش والرسم والبناء.

ولا يتسع المجال هنا إلى ذكر كل من زاروا إيطاليا من العرب ومن زاروا من الطليان بلادنا إلى هذا العصر. ولقد كانت اللغة الإيطالية في مصر والشام معروفة أكثر من الإفرنسية والإنكليزية إلى منتصف القرن الماضي ثم تراجعت وخلفتها هاتان اللغتان.

هذا وكان رجال الدين من كاثوليك الشرق يختلفون إلى رومية منذ القديم ويتعلمون لغتها ويدرسون الدين فيها وهم أكثر من أن يحصوا وفي

مقدمتهم السمعاني اللبناني المشهور واللبنانيون الموارنة على ما يظهر أشد الكاثوليك رغبة في المهاجرة إلى رومية وتاريخ رجال الكهنوت عندهم شاهدة بذلك.

لذائذ الغربيين
٤٦

قرأت في الصحف الباريزية إن إمبراطور ألمانيا منع ضباط مملكته من رقص (التانغو) (وألوان ستب) في الحفلات الرسمية وكذلك فعل ملك الإنكليز وهما رقصتان قيل إنهما من أصل أميركي في أقصى ما يكون من الخلاعة خلافًا للرقص الذي اعتاده الأوربيون في حفلاتهم الراقصة خاصة كانت أو عامة.

ولعل الآن بعضهم يقول وأنت الآن تحدثنا عن الرقص وأمامك محيط أوربا وكله ممَّا يستملي القرائح مهما كانت كليلة للكتابة والتأمل. نعم إن البحث في الرقص هو ممَّا يجب البحث فيه أيضًا لشرقي يبحث في مدنية الغربيين.

إننا بحسب عاداتنا واصطلاحنا سكان المدن العربية لا البوادي ننكر الرقص ونعده حطة ولكن الغربيين يرون غير رأينا فيه يرونه من الحاجات الطبيعية لبسط النفس ولذلك لا تكاد ترى الكبير والصغير والرجل والمرأة إلا ويعتادون الرقص على أنواعه من غير نكير اللهم إلا رقص التانغو وألوان ستب فإن العقلاء أنكروه لأنه باعث الشهوات البهيمية ومخرج للرقص عمَّا وضع له.

والرقص [١] في الغالب يكون على إيقاع النغمات الموسيقية على لحن متساوق وربما أشفع بغناء. فالرقص والموسيقى والغناء هي من المستحبات وربما تجوزنا وقلنا من الواجبات في بلاد الغرب لا يعد الفتى ولا الفتاة من أهل الظرف بدون الأخذ بحظ وافر منها فكأن الغربيين رجعوا في مدنيتهم إلى الفطرة الأولى وذلك لأنا نرى سكان البوادي في الشرق أيضًا يرقصون ويغنون ويضربون بطبل أو ينفخون بمزمار. أمور يأتونها على الفطرة وعلى حالة أولية ولكنها على كل حال تدل على أن سكان غير المدن في شرقنا أقرب إلى الفطرة من المتحضرين.

كانت الطبقة العالية من رجالنا أيام رقي العرب في الأندلس ومصر والعراق والجزيرة وفارس وغيرها من البلاد التي تأصلت فيها الحضارة لا تستنكف من الضرب بالعود أو غيره من أدوات الطرب أو ترفع أصواتها بالغناء ولا من ينكر عليها ذلك ولطالما كنت ترى بينهم الفقيه والمحدث والطبيب وصاحب الوقار من القضاة والعمال.

انحطت الحضارة عندنا والفنون الجميلة آخر ما تستعيده الأمة الناهضة وأول ما تفقده المنحطة وما الغناء والموسيقى إلا من الفنون الجميلة فارتقاء صناعة الغناء والموسيقى في أمة دليل ارتقائها فهما

---

(١) قال طاش كبرى في مفتاح السعادة: علم الرقص وهو علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهدها وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والأغنياء والأمراء ومن يجري مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي ويعلمونها الغلمان الحسان والجواري الفائقات ليلتذ السمع والبصر معًا بمشاهدة حسنهن واستماع نغماتهن وغنجهن حتى تكمل اللذة والحبور والفرحة والسرور وأهل الهند ماهرون في أنواع الرقص ولهم فيها يد طولى إلا أن هذا العلم محرم في شريعتنا وقد قيل التلذذ بالغناء وضرب الملاهي كفر اهـ.

محركان عظيمان لأرواح أبنائها ومهمازان قويان لترقية شعورهم وتحسين عواطفهم يصرفون فيهما آونات الفراغ فيدخل بهما السرور على القلوب.

تصدر هذه العجالة من بلاد هي مهد الرقص والغناء والموسيقى، من أرض أين اتجهت في حواضرها وبواديها تجدها تطرب وتتغنى، من بلد قام فيها من الموسيقيين القدماء أمثال روسيني وبلليني ودونيزيتي ومن المحدثين أمثال فردي وبوتنشيني وماسكانيه وليون كافاللو ومن المغنيين في المحدثين بونشي وماركوني وكاروسو وديللوكا وباتستيني وغيرهم من المغنيات والموسيقيات ممن أعظمت الأمة منزلتهم وأحلتهم في منزلة علمائها وفلاسفتها ورجال نهضتها.

وكل ما نراه من الموسيقى ونسمعه من الغناء يكون على ضرب (النوتة) بأدوار وتقاطيع مخصوصة وهو ما لم يتم حتى الآن عند العرب اللهم إلا الموسيقى الوترية في مصر ولما يعم استعمالها فإذا أصبحت موسيقانا وغنانا ضمن دائرة القانون يكون قد وضع الحجر الأول في أساس نهضة هذه الفنون الجميلة في شرقنا العربي على نحو ما جرى عليه سكان الآستانة وأفلحوا فيه من تقليد الأوربيين في موسيقاهم وغنائهم.

الموسيقى والغناء هما مثال من حالة النفس ومن لا يريد أن تكون نفسه شفافة وبراقة حساسة ولكل أمة غناؤها قد تتبرم به الامة الأخرى وتعده منكرًا ولكنه يفيدها ويلذها كما ذكر ابن رندقة الإسكندري من سياح القرون الوسطى في وصف أهل شلشويق (أي أهل شلزويك هولستاين في شمال ألمانيا) وقال إن لهم نوعًا من الغناء يشبه عواء الكلاب ولو فهم معناهم لما حكم هذا الحكم الذي يقوله اليوم أيضًا كل من لا يعرف لغة غيره ولا تأثير موسيقاه وغناءه ومراميهما

اللذائذ الثلاث هما من أول ما تدور عليها الحياة الغربية اليوم ولا تضر بالوقار بل تعد من أدوات الظرف والكمال ولعل شرقنا يحتذى في الموسيقى والغناء حذو الغرب مع تعديل تقتضيه طبيعته وعاداته واشتغال البيوت أو الأصحاب آونة الفراغ بضرب من ضروب الموسيقى والغناء أنفع ألف مرة من لغو الحديث وانتقاص بعضهم بعضًا والحط من أقدار أنفسهم والسلام.

نهضة إيطاليا
إيطاليا القديمة
٤٧

كنت أحب أن أسطر قبل الآن ما أعرفه وعرفته عن النهضة الإيطالية إلا أنني انتظرت ريثما قضيت شهرًا في هذه الشبه الجزيرة ورأيتها إجمالًا من جنوبها إلى شمالها.

وقد اعتمدت فيما أكتب على من وقعت لي معهم صلة تعارف من خاصة الطليان أو ما قرأته بأقلام الطليان بالإفرنسية أو ما كتبه الفرنسيس عن الطليان وهو وإن لم يكن مجموعًا صحيحًا من كل الوجوه لكنه أقرب إلى الصحة من كثير من الأحكام التي يصدرها صاحبها عفو القريحة باديء الرأي.

وكنت أود لو سمح لي الزمان بتعلم مباديء من لغة الطليان الرقيقة لأخاطب العامة كما أخاطب الخاصة بلغتهم نفسها وأسمع تصوراتهم وألقي عليهم الأسئلة وأدرس أحوالهم بالنفس ولكن المدة التي قضيتها لا تكفي لأن يتعلم المرء القدر الكافي للتفاهم بهذه اللغة مع قربها جدًّا من

الإفرنسية ولولا الخوف من علماء أصول اللغات لقلت إن الإيطالية تحريف الإفرنسية أو هذه تحريف تلك.

ثبت كل الثبوت بعد الرحلة إلى إيطاليا أن مسألة اللغة من أهم المعضلات الاجتماعية التي يصعب حلها إلا بأن يتعلم المشتغل بالعلم والتجارة عدة لغات من اللغات الحية كما يفعل الغربيون اليوم وإن العامة أيضًا لا غنية لهم عن تعلم ولو مباديء طفيفة من لغة راقية منتشرة وأن من كان يبيع منًّا أفكاره الصائبة بأن الموظف يستطيع أن يحكم في بلد لا يفهم لغة أهله وأن التاجر يستطيع بواسطة الترجمان أن ينفق سلعة ويربح ويستفيد من كان كذلك لم تكن أفكاره أرقى من أنفه إذ لم يستند فيها إلى تجارب ولا إلى تاريخ واجتماع.

وها نحن نتكلم على نهضة إيطاليا فنقول: قضى مركز إيطاليا الجغرافي أن تكون في الأزمنة القديمة مركزًا عظيمًا من مراكز المدنية لتوسطها بين الشرق والغرب وكانت رومية نقطة هذا الاتصال وواسطة هذا العقد منذ قام الرومان الأول وأخذوا يدوخون الأمم والشعوب لسلطانهم. ولمَّا وضع الشعب اللاتيني أول جسر على نهر التيبر وهو نهر رومية المقدس ومن أكبر أنهر إيطاليا أصبحت رومية مطمح الأنظار وصار هذا الجسر الذي كان بناؤه أقرب إلى الفطرة ممَّا يستهوي قلوب شعوب الشمال للإغارة عليه لأن منه يخلص المرء إلى ساحل البحر المتوسط على أيسر سبيل ولمَّا دفع اللاتينيون عن جسرهم غارات الأتروسكيين واليونان أصبح مقدسًا ومن ملكه كان هو الزعيم بلا مدافع.

تمثلت بالقرب من هذا النهر ثلاثة مطالب أساسية للمرء والمجتمع وهي ضمانة الحياة المادية وموافقة الحياة الأدبية والصعود إلى الحياة

العقلية بمعنى أن المرء يعيش ويحب ويعرف وأن يكون في المجتمع قانون ودين وعلم.

قارب الرومان القدماء هذه المظاهر الثلاثة ولكن الحياة المادية كانت أتم عندهم لأنهم محاطون بأعداء إن لم يحاربوهم بالمادة يهلكون لا محالة. وكانت الحياة العقلية في كثير من أدهارهم نامة بالنسبة لتلك الأيام ونظام الأسرة ثابت الدعائم وحب الجندية مغروسًا فيهم حتى كان الوالد يقدم ولده للخدمة العسكرية في السادسة عشرة ليعفى منها في السادسة و الأربعين وعلى قلة عدد السكان إذ ذاك وهو كما قال المؤرخون (١٥٠) ألف نسمة في رومية وذلك قبل المسيح بخمسة قرون في أرض ذرعها ٤٥٠ ميلًا مربعًا كان للرومان جيش مؤلف من ثلاثين إلى أربعين ألف نسمة يخرجون به من فتح إلى فتح.

وكان الرومان إذا فتحوا بلادًا يقبلون في الحال ما يتراءى لهم حسنًا من عادات أهلها وصناعاتهم وأسلحتهم وهذا سر وضع القانون الروماني الذي هو ابن الأوضاع الكثيرة وسليل شعوب عدة ألف في قرون وتعاورته الأيدي بالشرح والتذييل والإنقاص حتى أصبح دليل الحكمة الرومانية بل هو مجلة الحقوق الإنسانية التي لا تتغير. وكانت تلك الحروب الرومانية من مجددات حياتها وحماستها الوطنية حتى لقد قال ليكورك الخطيب اللاتيني ليس أحسن عاملًا من الحرب في تقوية الشعب لأنها تعلمه احتقار الأخطار والإخلاص لسلامة غيره ولأسرته ووطنه.

ولما تخلص الرومان من السيزيليين كاد القرطاجنيون أن يهلكوهم فظفر الرومان بهم وورثت رومية مجد قرطاجنة التي سقطت بعد الحروب البونيكية وقضت رومية على أنيبال القرطاجي الذي جاء وهددها في عقر دارها وكان فتح الرومان لمصر وكثير من أقطار آسيا ومنها الشام من أكبر

دواعي قوتهم فجلبوا به ثروة وأعلاقًا نفيسة وكان من أكبر المشوقات للعسكر الذي أخذت رومية تستخدمه بالأجرة إن كان يعطى له شيء من الأنفال والغنائم لا كما كان في القديم يستأثر بها الزعيم أو رب الأسرة.

ولما جعلت رومية بلاد اليونان ولاية رومانية أخذت عنها الذوق في الفنون الجميلة وكلما كان الرومان يجلبون من كورنت وآتينة أثرًا من آثار الهندسة والنقش والجواهر كانت تتربي أذواقهم ولم يكتفوا بالآثار بل جلبوا معها مؤثريها من مثل الخطباء والسفسطائيين من الحكماء فأصبح للخطابة شأن مهم في الحياة العامة وصار ملعب (الفوروم) المشهور الباقية إلى اليوم آثاره عكاظ الرومان يخطبون فيه ويتناقشون وأخذوا يبعثون بفتيانهم إلى أثينة يتعلمون على حكماء الوقت إذ ذاك ما ينفعهم ثم هاجر كثير من العلماء الأتينيين إلى رومية وأنشاؤا يعلمون كل طالب وبلغت هذه النهضة أشدها على عهد الإمبراطور أغسطوس وسقطت بعده بقليل شأن أكثر مدنيات العصور السالفة كانت من عمل حاكم أو أمير أو بضعة حكام ثم يتناسى الأمر ويزهد فيه.

جاءت أزمان أدخل فيها اليونان على الرومان أمورًا أضعفت من سلطة الوالد على أولاده وتركت الحياة الجندية وأخذت الشبه والشكوك تسري إلى العقول وكثرت الموبقات بكثرة الرفاهية فكان بذلك انهيار ذاك البناء وخراب العالم الروماني فقضى على رومية وذهبت تلك المدنية كما ضعفت في النفوس آثار الوثنية وأخذ الاضطراب يدخل في نظام تلك الحضارة ويبعثرها وكثر الانتحار واليأس من الحياة ومن لم يحبوا الانتحار يؤثرون العزلة وسرى اليأس في الطبقة الممتازة والأغنياء إلى البائسين والخدمة ولما كانت الحال على ذلك والنفوس تضيق من هذه المظاهر جاءت النصرانية على أنقاض المدنية الرومانية وكان لها من

النساء أكبر عون على الانتشار فرأى فيها من دانوا بها عزاء لهم وسلوى. والدين وازع قوى في الدنيا والآخرة.

اضطهد القائمون بالدعوة الدينية أيضًا وقام أمثال نيرون يظلم ولا يبقي على أحد وبينا كان يحرق المتنصرين أحياء ليضيء بهم حدائق الفاتيكان كنت ترى أولئك المنتصرين يذهبون إلى الحرق باسمين لاعتقادهم بأن في العالم الآخر حياة سامية لا يخيب من فضى في سبيلها. وكلمًا كانت الشدة تنال أولئك المضطهدين كنت ترى أشباعهم يكثرون.

وكان النزاع بين الإمبراطورية الرومانية والدين المسيحي من أعظم ما ذكره التاريخ حتى دان الإمبراطور قسطنطين بالدين الجديد فكان من انتشار الدين بعد الوثنية منافع اجتماعية مهمة في البلاد خصوصًا والدين أخذ يوافق ميول المتدينين به وحاجاتهم.

توطد أمر إيطاليا بعد ذلك وأخذت تقطع أشواطًا في سبيل جمع شملها وتتناسى ما نالها في سبيل انتشار النصرانية التي عمت إيطاليا وبينا الأمر على ذلك كان برابرة الشمال يتجمعون ليغزوا إيطاليا للاستفادة من مادياتها وقد أهلكهم الجوع ولم يكن لرومية طاقة يدفعهم فجاؤا يغشون العالم المتمدن ولكن من أولئك البرابرة من لم يلبثوا أن دانوا بالدين الجديد وتطوعوا بالدعوة إليه في القاصية بيدأنهم لنقص فيهم حرفوا ما تلقنوه ولم يعملوا بتعاليمه فأتوا مظالم كثيرة حتى اضطر الباباوات أن يجعلوا لهم سلطة مدنية فعمدوا إلى القوة علمًا منهم بأن سلطان الروح لا يؤثر كثيرًا إن لم يكن وراءه سلطان القوة.

وهذا كان مبدأ مزج الدين بالسياسة خصوصًا على عهد شارلمان وليون الثالث وهما الملكان اللذان حاولا هذا المزج وحرصًا عليه ثم كثرت البدع والإلحاد وقاومها الباباوات بالشدة وإن جاء من هؤلاء

أنفسهم من لم تحمد سيرتهم أحيانًا ولقد كانت إيطاليا خلال القرون الوسطى ميدان العراك بين الباباوية والإمبراطورية فنتج من ذلك تمازج بين العناصر المختلفة في الغرب ثم جاءت الحروب الصليبية على الشرق وكان الدافع إليها دينيًا ثم انتهت بالماديات وبعد سنة ألف للمسيح حدثت حوادث غيرت معالم العالم الغربي وكانت الدواعي إلى الحماسة الدينية حب الظهور والإتيان بالغرائب ولا سيما في نفوس العامة والزعماء من الأمراء ولكن حرب المسلمين قرنين لاستعادة الأرض المقدسة لم ينتج منه إلا أن جمهوريات إيطاليا أصبح لها مكاتب تجارية على شواطيء البحر المتوسط وباختلاط إيطاليا بل أوروبا بالمدنية الشرقية البديعة عاد إلى الغرب شيء من الحياة أصيبت به الصناعة والآداب وكان أثر الحروب الصليبية في إيطاليا أثر تقاليد اليونان المغلوبين على أمرهم في مدينة رومية.

إيطاليا في القرون الوسطى
٤٨

جاء عهدان على رومية طمحت فيهما إلى أن تحكم العالم فالأول على عهد عظمة قياصرة الرومان وقد تم لها ذلك بعض الشيء والثاني على عهد التحمس الديني وبلوغ سلطة الباباوات حدها وكان من أثر الحروب الصليبية ورؤية القوم للفنون القديمة البيزنطية والمغربية إن تمت لهم مقدمات النهضة الأولى. ثم إن المقاطعات تحررت من سلطة من كانوا يرهقونها من أمرها عسرًا فأخذت تتنافس في إقامة الأبراج وتحب كل منها أن تكون كنيستها أوسع وأكثر بهجة وأغنى وخطيبها أفصح ومتفننها أشهر. وأنشأت تبحث عن الرجل الذي يكون أقدر من غيره على التغني بأمجادها في أشعاره وتعظيم أعمالها الصناعية وبدائع النقش

والرسم وبفضل هذه المباراة اغتنت المدن والقرى بالمعاهد البديعة فكنت ترى الكنائس الكاتدرائية في كل مكان تناطح الجوزاء والقصور تسمو من الأرض إلى الأجواء.

وانتشر في جميع شبه جزيرة إيطاليا ميل حقيقي للجمال فحدث منه ازدهار الفنون التي لم تزل تبهرنا إلى اليوم فكان هذا العهد مناسبًا لتكوين أعاظم الرجال ليستطيعوا أن يحدثوا أعمالًا غريبة باقية وكان للقديسة كاترين دي سين والقديس توماديِ آكيك والقديس فرانسوا داسيز في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أثر يذكر في السياسة والعلم فكانت هذه النهضة الإيطالية الأولى متشبعة بالفكر الديني إلا أنها كانت تحوي في مطاويها بذورًا أنبتت بعد النهضة الثانية.

وقام على الأثر الشاعر دانتي الإيطالي واضع أساس اللغة الإيطالية الحديثة وأخذ ينادي في شعره ونثره بفصل السلطتين المدنية عن الدينية. ينطق في ذلك بلسان طبقة كبيرة في عصره فلم يكد يصرخ صرخاته حتى جاوبه على الأثر أرباب الأفكار الحديثة ممن أخذوا ينزعون ربقة الدين بل ينحون عن جوهره. وكان في هذا القرن أيضًا أناس من أرباب الفنون الجميلة يؤمنون بما يصورون ويريدون به خدمة الدين ومنهم من كانوا يصورون وينقشون حبًا بالمجد والشرف والمال خصوصًا وهم يرون كم كانت أسرة ميديسيس إذ ذاك تغدق الهبات على أرباب تلك الصنائع. حتى لقد قيل إن رافايل المصور رفض أن يكون بابًا وآثر العمل بالتصوير. وهذا العصر يسمونه بعصر ليون العاشر الذي كان من أكرم الباباوات وأكثرهم علمًا وعصره كعصر أغسطس قام فيه أرباب الأفكار الحديثة وأخذوا يشيرون من طرف خفي بتحكيم العقل في المسائل فأصبح أهل العلم والأدب مرغوبًا فيهم أكثر ممَّا يرغب في الأمراء وساعدهم اختراع الطباعة إذ ذاك فأخذوا يبثون أفكارهم في روح القوم على صور مختلفة

حتى غدا أمثال بوج وفيللف وأرتين الحاكمين المتحكمين بالأفكار في عصرهم يصرفونها كما يشاؤون.

في ذاك العهد أيضًا نشأ للطليان أمثال المؤلف لورانزو فالا فخدم الآداب والتاريخ والخطابة والفلسفة خدمًا تذكر له على الدهر ومثله جيور دانوبرنو الذي أحرق لأفكاره الفلسفية وكان عالمًا كاتبًا مؤثرًا دينيًا كانت الأفكار تتمخض على هذه الصورة قامت حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر ومنشاؤها من بيع الغفرانات واستئثار الباباوات بالسلطة المركزية يريدون أن يتم كل شيء في رومية في الأمور الدينية والملوك يريدون من حيث السياسة أن ينزعوا هذا العبء الثقيل عنهم والتخفيف من وطأة الارتباط بالمقام البابوي والفلاسفة والأدباء يريدون أن يحرروا العقل من قيوده وكلمًا كان المجتمع يدخل في طور الكمال كانت الحالة تستدعي تقسيمًا أكبر في العمل وتوجيه المناحي وجهاتها حتى إن أكثر من واحد من المتدينين جدًا قد طلبوا التفريق بين السلطتين وبعد شؤون وشجون انفصلت ألمانيا وإنكلترا عن رومية.

كان العلم في أواخر القرن السادس عشر قليلًا وقام أمثال غاليله الذي قال بدوران الشمس حول الأرض فأوذي لمَّا نادى بآرائه العلمية وإن التجربة هي الشرط الضروري في تحقيق المسائل العلمية وقد طبق ليونارد بعقله العجيب هذا الأسلوب على جميع المسائل المبحوث فيها وأخذ ماكيافل واضع فن سياسة الخداع يتشبع بها في كتبه السياسية وكما كان الشاعر دانتي يطالب بضرورة فصل السلطة المادية عن السلطة الدينية كان العالم غاليله يثبت بأن العالم العلمي يجب أن يكون منفصلًا ومستقلًا عن الاعتقاد الديني وهكذا لم يبرح غاليله يؤكد مع شدة احترامه للدين أن العلم والدين أمران مختلفان ليس بينهما تناقض ولا ارتباط. ويرى أن الكنيسة هي الحاكمة في المسائل الدينية وليس لها أدنى سلطة في

المسائل العلمية وينبغي لها أن تحاذر من الحكم في مسائل هي غريبة عنها تمامًا.

رأت الكنيسة بعد عصر دانتي أن تحافظ على كيانها السياسي بالقوة وأرادت بعد غاليله أن تحافظ على كيانها العلمي بالتعليم خصوصًا بعد أن شاهدت النتائج التي تمت على أيدي اليسوعيين باتخاذهم العلم آلة للدين واتحدت الكنيسة مع الأمراء وأخذت تلقن الناس الطاعة والخضوع فلم تحدث بعد ذلك ثورات وأمن الناس واغتبطوا ولكن ظهر بعد قرنين من انتشار الإصلاح الديني بقيام لوثيروس ونزع ألمانيا وإنكلترا يدها من الكنيسة الكاثوليكية إن الانحطاط اخذ يبدو على الشعوب التي ظلت كاثوليكية على اختلاف في عناصرهم ومناخ بلادهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية وذلك لأن التعليم كان محدودًا عند هؤلاء الشعوب ومقصورًا على بعض الطبقات والعدل فيه شدة وضعف والطاعة أبدًا يرغب فيها فقلت في هذه الشعوب القوة المبدعة على أن الرفاه المادي كان مضمونًا لأهل إيطاليا بما أنشئ فيها من المعاهد الخيرية ولكن كل ذلك لم يخرج الشعب عن حالة التثبت والتراجع.

وعلى عهد مثل هذه الإدارة ينزل ميدان العقل من كل وجه فقد أمست الصناعات والآداب والعلوم لا ترتقي إلا ببطء حتى إن الشاعر كيودي المتوفى سنة ١٧١٢ من أعظم شعراء ذاك القرن كان يتغنى بمدح عصره معرضًا بالجفاء البربري الذي كان يشاهد من خلال أعمال قبائل رومية القديمة الذين لم يكونوا يحلمون إلا بفتح العالم.

ومن حسن الحظ إن إيطاليا لم تعدم في ذاك الدور أناسًا ينهضون هنا وهناك يثيرون العواطف وينادون قومهم بأن ما هم فيه باطل لا بد له من التجديد وأن هذا العالم ليس عالم الأموات. فقام بيتروميكا بالدفاع عن

تورينو وقام فيليكايا يتغنى بأغانيه الحربية لينبه سكان هذه الشبه الجزيرة المتخدرة ونهض الأمير أوجين دي سافوا يحمل أمجاد الحرب والسياسة إلى القاصية وأخذ بيكاريا يقيم الحجة على فظائع المحاكم وقام غيرهم بأعمال كثيرة نبهوا فيها العقول من رقادها ما أمكن.

إيطاليا في القرون الحديثة

٤٩

بينا كانت إيطاليا غارقة في هذا السبات كانت أفكار غاليله قد وصلت إلى إنكلترا فتلقاها الفيلسوف باكون وعادت إلى إيطاليا منعكسة من طريق فرنسا في كتابات الفيلسوف ديرو وأخذت السلطة الدينية تضعف أمام حقوق العقل وجاء انتشار دائرة المعارف (سنة ١٧٥١-١٧٧٢) فأحدث حركة في أهل الطبقة المستنيرة وساعد فيها أهل الطبقة الوسطى من الفرنسيس آملين أن يروا منها سلاحًا يحاربون به رجال الكهنوت والإشراف أمَّا العامة فقد استعملوها واسطة للإرهاب وقد كفت فرنسا ثلاثون سنة حتى تأتي أفكار دائرة المعارف بعملها في التخريب وذلك لأن فرنسا كانت مستعدة أكثر من كل أمة لقبولها لأن السلطة كانت فيها على أشد ما تكون ثم إن صلاتها مع الشعوب البرتستانتية كانت مستحكمة العرى أكثر من غيرها فكانت ألفاظ (الحرية) و(المساواة) و(الأخاء) تؤثر في السواد الأعظم من القوم فتدفعهم إلا الأعمال الخارقة في باب الرجولية ولما ظفرت جيوش الفاتحين من الفرنسيس بفتح شبه جزيرة إيطاليا سنة ١٧٩٦ كانت حالة الأفكار في فرنسا مخالفة كل المخالفة لحالتها في إيطاليا ففي الأولى مضاء واعتماد على النفس وفي الثانية ضعف وخضوع ولذلك كان الأمراء ينهزمون من وجه الجيوش الفرنساوية على صورة بشعة بل ربما ركبوا عار الفرار قبل أن تحتل بلدهم

فلمَّا استحكمت سلطة الفرنسيس في إيطاليا قلبوا كثيرًا من أوضاعها باسم الحرية ووضعوا لها القانون الفرنساوي وألغوا امتيازات رجال الدين والأشراف بيد أن ما حدث من الاحتلال الفرنساوي لإيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر قد نبهها من سباتها العميق وحدا بها أن تعقد مع سائر أوروبا الممدنة علائق ولم يفهم العامة من الطليان ما يراد بهم فكانوا يساقون كالأنعام ولكن الطبقة المستنيرة ورجال الأعمال بعثت هممها حالة الفرنسيس فأخذت تدرك إمكان إعادة الوطن وتأليف شمله المبدد وتبحث عن الطرق لتحقيق هذه الأمنية فلم تمض على ذلك خمسون سنة حتى أثمر جهاد أرباب الأفكار تأليف الوحدة الإيطالية الحديثة وحدة قوامها المساواة أمام القانون ومنح الحرية السياسية.

أعاد رجال السياسة في مؤتمر فينا خريطة أوربا إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩ وعاد الباباوات والملوك والدوجات والأمراء إلى سابق أمجادهم تحميهم الحراب الأجنبية ولكن استحال الرجوع إلى الحالة الأصلية لأن رجال الشعور الخارق للعادة ومنْ تؤهلهم الجاذبية العقلية الشديدة إلى أن يتحرروا بعض الشيء من الوراثة والمحيط قد عدلوا في وجهة الأفكار وجددوا ميدان آمالهم فكان الشعراء وأساتذة الكليات والقسس والأشراف المتعلمون في مقدمة من تبدلت عقولهم بتأثير الحوادث وما تم لفرنسا من المجد قد أفهمهم معنى الجمال الذي ينطوي في مدارج القوة. وتراجع الإيمان بالحق الإلهي وعادت الفلسفة فتأثرت بتأثيرات المجددين وضربت مقعد الكنيسة الرومانية ضربة قاسية وتحمس الأذكياء وأرباب القلوب لفكرة أن وطنهم سيستعيد بهاءه ويعود عظيمًا جميلًا فأخذوا يعملون بمضاء وحماسة تدعو كل من اطلع على أعمالهم أن يمجدهم ويحترمهم وكثر تجدد طبقات من الشعراء أخذت على عاتقها أن تنبه بلسان الشعر وألحانه الرخيمة شعبًا متناومًا منذ قرون فتناول

الشاعر جيوشي سوط الهجاء الذي سقط من يدباريني وأخذ يضرب به وتحمس الشعراء بلليكوا ومانزوني ونيكوليني حماسة الغيري المفجعة. وساعدت قصائد فوسكولو وأغاني برشت الوطنية على هذا النشور.

بيد أن الدعوة الأدبية لا تستطيع أن تعمل إلا في الأفكار المستنيرة ولو قليلًا فأخذ الأشراف والطبقة الوسطى من الأحرار يدركون ضرورة نشر هذه الحركة بين العامة فأنشأوا يدخلون التعليم إلى القرى. وكان تكثير سواد القائلين بفكر التجدد وضم الشمل في المدن قد تسهلت أسبابه بارتقاء مستوى العقل في الشعب واستعداده لقبول الجديد ولكن بث الدعوة كانت خطرة، ولطالما أعار بعض الكتبيين مؤخرة حوانيتهم لعقد الاجتماعات يتهامس فيها المتهامسون بأفكارهم وآمالهم وأحلامهم في المستقبل ونهضة البلاد.

ثلاثة عوامل أعانت على تخمير هذه الثورة الجديدة وتنمية بذورها: قدماء الضباط والموظفين على عهد نابليون والجمعيات السرية ورجال الشرطة ومعظمهم كانوا دخلوا في الجمعية الماسونية فتعلموا فيها أساليب الاجتماع، وجمع الشمل وحب النظام، وبالنظر لحالة البلاد إذ ذاك لم يتأت أن تنعش من سقطتها إلا بجمعية سرية وذلك لما عرا الأخلاق من الانحلال و الضعف ولقلة عدد أرباب الشخصيات الراقية فكثرت الجمعيات السرية من أجل ذلك في البلاد كلها. وكان أشياعها كثارًا أولًا في الكليات ودخل فيها أبناء الطبقة الوسطى وكثير من أبناء الأسر الكبرى وجماع الإسرائيليين. وكان أكثر الداخلين مدفوعين إلى ذلك بعامل المنفعة الشخصية الممكنة وكلهم يرمون إلى جمع شمل الوطن.

كان للإسرائيليين في هذه الحركة الكعب المعلى فإنهم وإن كانوا في إيطاليا أقل حيفًا من حيث مادياتهم خلافًا لما كانوا عليه في سائر أوربا

لكنهم كانوا خاضعين لقانون يحرمهم من الوصول إلى المناصب التي يؤهلهم إليها ذكاؤهم وثباتهم المتواصل على العمل، ولقد علمهم احتقار الناس لهم فضائل تجرد منها ظالموهم، فكانوا محتقرين وسذجًا في الصورة الظاهرة ويتذكرون أحيانًا شيئًا من الخير نالهم ولكنهم لا ينسون على الدوام العار وهم على تبلتهم وحسابهم للعواقب قد أصبحوا متضامنين بدواعي مقاومتهم للعدو المشترك يكتمون أمرهم ويسرون ما يجول في قلوبهم وهم قد أثروا إثراء مهمًا فكانت منهم قوة لا تعاد لها قوة لمقاومة نظام سياسي تكرهه نفوسهم.

فلم يكونوا يعتقدون أن في وحدة إيطاليا قلب الأوضاع التي طالما قاسوا منها الأمرين بل كانوا يرون فيها صورة من صور الانتقام من إنكلترا المسيحية في رومية الباباوات ولذا يمكن أن يقال في ذاك العهد إن جميع الماسون في إيطاليا إن لم يكونوا كلهم إسرائيليين فإن جميع الإسرائيليين كانوا ماسونًا وإذ كانت القوانين والعادات تبعدهم عن الحياة العسكرية فقدوا الشجاعة التي تورثها صناعة حمل السلاح فكانت معاونة الإسرائيليين ما عدا بعض الشواذ مالية أكثر منها شخصية وعظمت معاونتهم المالية في هذا السبيل حتى إن الحكومة الموقتة في ميلان بالنظر لما أدره عليها الإسرائيليون من المال بعد مغادرة النمساويين للبلاد قد شكرتهم على إعانتهم الكريمة في سبيل الحرية.

وما كان القسيسون غرباء عن هذه الحركة فإن أول من صاح (إيطاليا واحدة وحرة) كان قسًا فمات في هذا السبيل وآخر من قضى في هذا المقصد هو قسيس أيضًا كان في صحابة إسرائيلي، وكان هذا شأن جميع المستنيرين من عامة طبقات إيطاليا يريدون أن يحيوا وطنهم ولا يبقوه أرض الأموات. وما صادفته هذه الدعوة من العواطف في طبقة رجال الدين لا يعجب منها إذا علم أن البابا بيوس السابع كتب إلى الكونت

بورو بمناسبة أعضاء جمعية الكاربوناري الثورية (إنهم يحبون إيطاليا وأنا أحبها مثلهم) وكذلك كان الأشراف الذين لم تكن لهم مناصب تشغلهم في الحكومة وأقصاهم الملوك عن قربهم فإنهم شاركوا في الحركة الجديدة حق المشاركة.

قلنا الكاربوناري وهي جمعية اشتقت من الجمعية الماسونية وأعضاؤها من الجند والضباط على عهد نابليون فقامت منذ سنة ١٨٢٠ بثورات عسكرية في مملكة نابولي أولًا ثم في معظم إمارات إيطاليا، ولكن قلة عدد أعضائها وفقدان المرددين لأعمالها غادرت حركاتها قاصرة. ولما قام مازيني الكاتب الذي كان يؤثر لأنه كان متأثرًا يرمي إلى إنهاض إيطاليا وجد أنصارًا وأعوانًا وإن كان العيب الوحيد أنه كان يتعجل قطف الثمرة قبل نضوجها، ويضيق المجال إذا أردنا إحصاء من دعوا إلى هذه الوحدة ومنهم الراهب فنسانزو جيوبرتي الذي أغضب الكنيسة بعمله، فقضى آخر أيام حياته شريدًا في باريز لأنه قال بضرورة فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ومنافع ذلك للسياسة والأخلاق.

وكانت نيران الثورة تشتعل تارة وتخمد أخرى فيظن أن البلاد عادت إلى حالتها من الأمن والطمأنينة، ثم لا تلبث فوهة البركان أن تقذف حممها، وقد انفجرت لآخر مرة يوم قامت فرنسا وقلبت الملكية ونادت بالجمهورية وأخذت تهتز أعصاب أوربا فتحركت إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها كأنها متأثرة بمجرى كهربائي فقامت قيام الرجل الواحد من بلاد الألب إلى صقلية أي من الشمال إلى الجنوب وظهر أن الملوك تظاهروا بالاشتراك بالحركة والبابا كذلك وإن شئت فقل إنه كان أكثر من غيره وتنازل الأمراء عن سلطتهم المطلقة ومنحوا دساتير لشعوبهم والكل يريدون أولًا طرد النمساويين من البلاد التي كانوا احتلوها.

ولقد تمثلت الثورة العامة في سنة ١٨٤٨ في جميع الطبقة الوسطى لمناهضة السلطة المطلقة فصادفت أولًا عطفًا من البابا وغيره فلمَّا تحقق مقاصدها مزقت الدساتير المعطاة وأعيدت البلاد إلى نظامها السابق فلم يثبت من ولايات الشبه الجزيرة سوى البيمون وكان لها فقط جيش يحسن الكر والفر وله نظام بزعامة الملك الجديد فيكتور عمانوئيل الثاني وما كانت المهمة التي انتدب إليها هذا الملك بالأمر السهل بل كانت تحتاج إلى سلاح ماض وطرق مواصلات منظمة ومعارف منتشرة وضم شمل أحرار الطليان وتهدئة خواطر الكاثوليك وهم كثار متحمسون في إقليم البيمون وإقناع أوربا التي لا تصدق أو هي معادية لهذا الفكر واتخاذ أنصار من حكومات أوربا ليفتوا في عضد العدو العظيم. كل هذا ولا مال لتلك المملكة الصغرى وهي مدينة بمليارين من الفرنكات هذا المركز من أحرج المراكز ولحل مشاكله يجب له نابغة من الرجال وهذا الرجل الذي تهيأ له هو (كافور).

قام هذا السياسي العظيم وعرف بما خص به من حسن الانتفاع أن يستخدم أمثال غاريبالدي ومازيني للمقصد الذي يرمي إليه في حين كانا يريدان المناداة بالجمهورية لا بالملكية. ومن دهاء هذا الرجل أنه بعث من إقليم البيمون جندًا إلى حرب القريم يعاون الدول الأوربية التي عاونت الدولة العلية إذ ذاك فعد العالم عمله خرقًا في الرأي على أمة صغيرة فقيرة مثقلة بالديون ولكن هذه المناداة هيأت لإيطاليا بل لمملكة البيمون مركزًا بين الدول وصار لها الحق أن تبعث بمن يمثلها في مؤتمر باريز. ولا عجب فالأعمال بمقاصدها ونتائجها أتم هذا النابغة كل ما كان يظن أنه مستحيل ولا يعرف اليوم ماذا كانت حال إيطاليا لولا قيام هذا الرجل. وقد جبر بدهائه ما بدر من الضعف في الجمعيات السرية الثورية التي اندمجت في جمعية (جيوفاني إيطاليا) لأن عملها لم يؤد إلا إلى فظائع

فقام كافور يربط بحكمته القلوب حول عرش صاحب بيمون وغدت أسرة سافوا محط رحال الآمال وساعد أن كان الإمبراطور نابوليون الثالث الفرنساوي من أعضاء جمعية الكاربوناري منذ صباه فاضطر إلى مساعدة إيطاليا ولمَّا أيقن الملك فيكتور عمانوئيل بمعاضدة الجيش الفرنساوي نهض بالعمل بصورة أفخم وأعظم وأعلن الحرب على النمسا وقد قال لوزرائه عندما وقع على إعلان الحرب إني سأكون بعد عشرة أشهر ملك إيطاليا أو المسيو سافوا.

ظفرت الجيوش الفرنساوية في مونتبللو وبالسترو وماجنتا وسولفيرينو، وبموجب معاهدة زوريخ تركت لومبارديا لمملكة البيمون وقامت طوسقانة رويدًا رويدًا على دوجها الكبير وأعلنت انضمامها إلى البيمون. ونزل غاريبالدي إلى صقلية وتآخى مع سكانها وكانوا مربوطين بعهود الإخاء من قبل مع جمعية مازيتي السرية ثم اجتاز المضيق ودخل ظافرًا إلى نابل وكاد يزحف على رومية ليفتحها وبعد أيام أعلنت جزيرتا صقلية وسار دانية انضمامهما إلى الوحدة الإيطالية وفي ١٨ شباط ١٨٦١ اجتمع البرلمان في تورينو ونادى بالملك فيكتور عمانوئيل الثاني ملكًا على إيطاليا وتوفي كافور بعد بضعة أسابيع كأنه انتظر حتى أتم عمله المجيد مخلفًا لقومه شعاره (الكنيسة الحرة في المملكة الحرة).

وبقيت البندقية ورومية فقط لم تفتحا فقام أخلاف كافور، وعقدوا محالفة مع بروسيا فأخذوا البندقية وسمح استدعاء الجنود الفرنساوية من إيطاليا سنة ١٨٧٠ للجيش الإيطالي أن يدخل ظافرًا إلى رومية مقاتلًا جيش البابا الذي قاوم بعض المقاومة ولكن ما حيلته أمام هذا التيار العظيم وإرادة الأمة في نزع السلطة المدنية من يد صاحب السلطة الدينية فحصرت سلطة البابا بعد ذلك في دائرة معينة لا تتعدى حد السلطة الروحية.

إيطاليا بعد الوحدة

٥٠

ها قد ألقينا نظرة مجملة على ماضي إيطاليا وأصول مدنيتها وأمجادها ودرس الماضي عون على فهم الحاضر ولقد ترك كل دور دخلت فيه البلاد طابعًا في صورة إيطاليا الحديثة كما أثرت فيها المؤثرات الجوية والجغرافية والعنصرية ولم تقو التربية إلا على تغيير قليل فيها، ونشأت مؤثرات أخرى نفعت في نهوضها كل النفع وهي سرعة المواصلات وكثرة التنقل والصلات المتواصلة مع الأمم الأخرى وغير ذلك، وبعد أن صرفت إيطاليا كل جهادها الماضي إلى سنة ١٨٧٠ في تكوين الوحدة الإيطالية وإلغاء امتيازات الأشراف ورجال الدين وتأسيس ملكية ديموقراطية وجب عليها أن تنظم هذه القوة، فاختارت القانون الأساسي الذي كان معمولًا به في إقليم البيمون مع بعض تعديل أخذته عن القانون الفرنساوي.

ولقد حق على القائمين بهذه الوحدة من أهل الطبقة الوسطى وأبناء الأشراف من الدرجة الثانية والإسرائيليين والماسونيين والبيمونتيين وكل من وجدوا مصلحتهم في قيام هذه الوحدة أن يرعوها فلم يجدوا أمامهم إلا العامة يتقوون بهم فأنشأوا لهم مسائل الاشتراكية والنقابات الصناعية واعديهم فيها بوعود خلابة أقلها أن الجمهور يعيش بدون أن يعمل. وكل ذلك لمناهضة الأشراف، ورجال الكهنوت ففقدت طبقة الأشراف كل موازنة ولم تبق لها تلك المكانة المعروفة لها قديمًا. أما رجال الدين فاحتفظوا بمراكزهم وذلك لأنهم يمثلون شيئًا لا يبرح حيًا في نفوس الشعب ولأن لهم قانون يضم شملهم.

التفتت الحكومة بعد الوحدة إلى تنظيم الجيش وكان الفكر الحربي مفقودًا من معظم طبقات الشعب فما برحت تزيد فيه وكان عدده على عهد أوائل الوحدة مئة ألف نسمة فأصبح الآن خمسمائة ألف جندي منظم مدرب حين السلم وثلاثة ملايين وخمسمائة ألف جندي زمن الحرب يدخل فيهم البوليس. وكل إيطالي بلغ سن العشرين يدخل الجندية فيخدم فيها ثلاث سنين ويكاد السكر لا يعرف في الجيش والضباط يقومون على تدريب الجند بإخلاص ويلقنونهم الفضائل الحربية ولذلك نرى مجلس النواب الإيطالي يمنح ميزانية الحربية وهي ٣٦٤ مليون فرنك كل سنة بدون أن ينظر فيها ثقة منه بأنها تصرف في سبيلها على أبناء الأمة، وممَّا يعمل لنفع الجند أنهم أنشأوا بالقرب من بعض الثكن في البلاد دروسًا زراعية عملية يتعلم فيها العسكر مدة خدمتهم ما ينفعهم مع التعليم العسكري إذا رجعوا إلى قراهم من العمليات الزراعية.

أما البحرية وميزانيتها ١٨٦ مليونًا فيمكن أن يقال على الجملة إن إيطاليا لمَّا تكونت لم يكن فيها أثر للقوة البحرية فأخذت منذ سنة ١٨٧٣ تنظم بل توجد بحريتها ليكون لها شأن في البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي ورجال البحرية الذين يتخرجون في مدرسة ليفورنه يبدون كل إخلاص في تخريج الجند البحري.

وهكذا تعمل إيطاليا على تحسين بريتها وبحريتها لتستطيع بذلك أن تجد موردًا لأمتها التي يكثر نسلها وتريد أن تجد لها مرتزقًا في الأرض ولا سيما بعد أن طلبت بعض الحكومات التي تكثر مهاجرة الطليان إلى أرضها أن يحمي العملة من غير الطليان الحماية الكافية التي تخولهم عدم منافسة العامل الإيطالي. وإن إيطاليا لمضطرة بحكم الطبيعة أن تكون أمة بحرية من الدرجة الأولى لأن شطوطها على البحر المتوسط تبلغ ٦٠٠٠ كليو متر على حين ليس لفرنسا سوى ستمائة.

وتناسل السكان والخوف من إغلاق أبواب أميركا ذات يوم في وجه المهاجر الإيطالي دعا إيطاليا أن تفكر في فتح طرابلس وبرقة حيث يجد أبناؤها ولا سيما في الجنوب مناخًا يشبه مناخ بلادهم ويكونون على مقربة من أرضهم ومساقط رؤوسهم وممَّا دعاهم إلى الغارة على شمالي إفريقية ذكرى أن أجدادهم الرومان فتحوا تلك البلاد واستعمروها أيام عزهم وقد كلفت هذه الحرب ٩٢٧ مليون فرنك

ربما كان الإيطاليون من أكثر الأمم الأوربية حبًّا بالهجرة وذلك لأن بعض الجنوب من بلادهم فقير بزراعته ولأنك لا تجد في إيطاليا طبقة وسطى على الأغلب فأمَّا فقير معدم يولد له كل سنة ولا يجد في أرضه من المواد الاقتصادية ما يقوم بعيشه أو غنى كبير وهم قلائل ولذلك لم يبق أمام الطليان غير الهجرة فقد كان عددهم سنة ١٨٦١ أي بعد الوحدة بقليل ٢١ مليونًا وهم اليوم ٣٥ مليونًا بحسب الإحصاء الأخير دع الطليان المنبثين في أقطار العالم. وعدد من يسكنون في كل كيلو متر مربع ١٢٢ ساكنًا أي أكثر من معدل السكان في ألمانيا وفرنسا ولا يفوق إيطاليا في كثرة عدد السكان بالنسبة لمساحة الأرض من الممالك الأوربية إلا البلجيك وإنكلترا وبلاد القاع (هولاندة).

وأكثر المهاجرين يهاجرون هجرة مؤقتة وقلائل منهم من يهاجرون هجرة قطعية بل إن من المهاجرين من يقضون الشتاء في أميركا ويأتون في الصيف يحصدون أرضهم ويقطفون ثمرات أشجارهم ولولا النقد الذي يحمله أولئك المهاجرون من أميركا يضعونه في المصارف وصناديق التوفير لبطلت حركة إيطاليا الاقتصادية لأن النقد قليل فيها حتى تضطر الحكومة بل الأمة أن تجري أكثر معاملتها بالورق ولا تكاد تجد الذهب إلا نادرًا. وقد بلغ من هاجروا إيطاليا من أبنائها في الشهور التسعة الأولى من هذه السنة ٢٢٥ و٣٣٥ مهاجرًا ولا يقل عدد المهاجرين كل سنة عن

خمسمائة ألف ومنهم من يهاجرون إلى البلاد المجاورة ولا سيما جنوبي فرنسا ومنهم إلى أمريكا.

والعامل الإيطالي قنوع للغاية يقتصد جانبًا من أجرته ومنهم من يعودون برؤوس أموال إلى بلادهم المتعلقون بحبها فالعامل الإيطالي يقبض دولارًا ونصفًا في الولايات المتحدة فيصرف النصف دولار ويقتصد الباقي حتى إذا عاد إلى قريته تحدثه نفسه أن يبتاع له أرضًا يبني فيها كنه ولذلك ارتفعت أسعار الأراضي في القرى أكثر من ارتفاعها في المدن الكبرى ولا سيما بعد أن أنشئت جمعيات ومكاتب للمهاجرين ومنها ما أسسته الحكومة ومنها ما أسسه الأفراد لتسهيل المهاجرة ووقاية المهاجر من التلاعب به وليس لإيطاليا من المستعمرات ما عدا طرابلس وبرقة غير الاريتره وبنادر والصومال الإيطالية وهي مجاورة فيهما لفرنسا وإنكلترا. وإيطاليا جاءت إلى عالم الاستعمار بعد وحدتها وقد تقاسمت أوربا مغانم إفريقية وآسيا وتوزعت ممالكها بينها.

احتاجت إيطاليا بعد وحدتها وتأليف هذا الجيش الضخم والبحرية القوية إلى موارد كثيرة فالتفتت فلم تر أحسن موردًا من الزراعة، وثلث الإيطاليين يعملون بها في أرض مزروعة تقدر بنحو عشرين مليون هكتار تخرج سنويًا مئة مليون هكتولتر من الحبوب حنطة وذرة وأرزًا وأربعين مليون هكتولتر من الخمور وعشرة ملايين قنطار من الزيت والثمار دع أعمال الألبان وتربية الحيوانات والحرير الخام وغيرها من الموارد التي تعد من جملة الزراعة ويبلغ مجموعة قيمتها نحو خمسة مليارات فرنك كل سنة وزراعة الشمال راقية على الطرز الحديث وقد أدهشنا ما رأيناه من بدائعها في ضواحي فلورنسه وضواحي بولونيا وذلك لأن إقليم طوسقانة وعاصمته فلورنسة عامر منذ القديم وهو مقر أمجاد الطليان وكذلك حال العمران من سفوح جبال الألب إلى طوسقانة فإن أرضها

حدائق غناء.وهذه البلاد الشمالية تختلط كثيرًا بالأمم الراقية المجاورة لها مثل السويسريين والفرنسويين أما سكان الجنوب ولا سيما في صقلية وساردنيا وغيرهما من الأقاليم الجنوبية فإن المناخ مؤثر في أخلاق أهلها وليس عندهم نشاط سكان الشمال ولا معارفهم، وسكان الجنوب أشبه بالأمم الشرقية النازلة على شواطئ البحر المتوسط.

وصناعة إيطاليا وتجارتها راقية على نسبة زراعتها فقد كان لهذه المملكة سنة ١٨٦٠: ٢١٩٨ كيلو مترًا من الخطوط الحديدية فبلغت سنة ١٩٠٩: ١٨٠٠٠ كيلو متر يضاف إليها خمسة آلاف كيلو متر من الترامويات والأتوبوس وكانت الطرق العادية على عهد الوحدة ٤٨ ألف كيلو متر فتجاوزت اليوم ١٤٠ ألفًا وكان لإيطاليا سنة ١٨٦٢: ٥٧ سفينة بخارية تجارية تحمل ١٠,٢٢٨ طنًّا و٩,٣٥٦ سفينة شراعية تحمل ٦٤٣,٩٩٦ فأصبح لها سنة ١٩٠٨: ٦٢٦ سفينة بخارية محمولها ٥٦٦٧٣٨ و٤٧٠١ سفينة شراعية محمولها ٤٥٣,٣٢٤ طنًّا وبلغ عدد السفن الإيطالية التي خرجت ودخلت في الموانى الطليانية ١٩٠,٥٥٥ سنة ١٨٦١ فبلغت في سنة ١٩٠٩: ٢٤٦,٢٤٦ وكان إذ ذاك عدد الداخل والخارج إلى الموانى الطليانية من بواخر الأجانب ٢٣,٨٣٦ فبلغ في العهد الأخير ١٧,٤٣٤ واشتركت في ذلك جميع موانى إيطاليا وفي مقدمتها جنوه ثم تجيء نابل وليفورنة والبندقية وبلرمة وكان لإيطاليا عام ١٨٦٠: ٨٠٠٠ كيلو متر من الأسلاك البرقية ولها الآن ٥٤ ألف كيلو متر. تضاف إليها الأسلاك البحرية والتلغرافات اللاسلكية مع ما لها من الخطوط التلفونية ولم يكن البريد بالشيء الذي يذكر في بعض أصقاع إيطاليا على عهد الوحدة بلغ وارده في سنة ١٨٨٦: ١٦ مليونًا وفي سنة ١٩٠٠ بلغ ١٠٧ ملايين فرنك.

وكانت الصناعة أيام الوحدة غير موجودة إلا في إقليم البيمون ولومبارديا فعمت الآن أقاليم إيطاليا كلها ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة فقد كان سنة ١٨٨٩ معمل واحد للسكر في جميع إيطاليا فأصبح لها ٣٢ معملًا وارتقت صناعة حياكة الصوف والقطن والحرير والحديد والعربات والسيارات ارتقاء هائلًا، ووجدت الكهربائية في إيطاليا محيطًا حسنًا للغاية بالنظر لما خصت به هذه البلاد من الأنهار السريعة في جريتها، ومن هذه القوى النافعة تخدم الصناعة أجل خدمة، وربما أوصلت الكهربائية إلى مسافات متنائية، ولا تسل عن معامل الأسلحة وبناء السفن مثل معمل انسالدو في مقاطعة جنوه وغيره كثير. وإذا ضم ما يرد إيطاليا من صناعتها إلى ما تأتيها به زراعتها بلغ مجموع تلك الثروة ٧٥ مليارًا من الفرنكات يصيب كل فرد ٢٢٠٠ فرنك ويستدل على الرفاهية والغنى ممَّا يودعه الأهلون في صناديق التوفير فقد بلغ ما أودع في الصناديق العادية مليارين ونصف مليار من الفرنكات يضاف إليها ما أودع في صناديق التوفير في البريد وهو ١,٧٠٠ مليون هذا عدا ما يضعه الناس في المصارف وجمعيات التعاون ممَّا يعد جزءًا عظيمًا من ثروة الأمة. وما كانت البيوت المالية تعرف في إيطاليا إلا في إقليم البيمون قبل الوحدة الإيطالية، وقد كثر عددها اليوم، وهي فمن الدرجة الأولى بين المصارف مثل بنك إيطاليا وبنك نابل وبنك صقلية وبنك رومية وغيرها وكلها تشتغل بزهاء مليارين من الفرنكات ما عدا أموالها الاحتياطية النقدية التي تبلغ مليارًا ونصفًا.

وفي إيطاليا مصارف زراعية ومصارف عقارية، وشركات تجارية مساهمة، وشركات صناعية تعاونية وغيرها وعددها يكثر كل سنة كثرة هائلة، وقد بلغت ميزانية الحكومة من كل ذلك مليارين ومائتين وستة عشر مليون فرنك في سنة ١٩١١ في قسم النفقات. ومليارين وثلثمائة

وأربعة ملايين في قسم الواردات ولقد أصيبت إيطاليا بأزمة سياسية شديدة سنة ١٨٩٠ أثرت في ماليتها كل التأثير فكان شأن المضاربين على الأراضي للبناء في المدن الكبرى شأنهم في مصر منذ بضع سنين فقدوا ثرواتهم إلا قليلًا بسقوط أسعار تلك الأراضي وذلك لأن بعض المدن الإيطالية أرادت أن تجدد أبنيتها على الطرز الحديث، فأخذت طائفة كبيرة من أبناء الأسرات القديمة ومنهم من يعتقد بأن له الكفاءة في كل شيء يبتاعون من تلك الأراضي والأبنية القديمة للهدم فكان بها خرابهم وخراب كثير من أرباب رؤوس الأموال الصغيرة ومن المصارف وبسبب هذه الأزمة عرض الوزير كريسبي الإيطالي على البرنس بسمارك الألماني أن تكون ألمانيا وإيطاليا يدًا واحدة فأحست فرنسا بالأمر من الغد فلم تر أحسن من إخفاق مسعى إيطاليا وإشغالها بقطع الموارد المالية عنها، وكانت إيطاليا إذ ذاك لا تعتمد في اقتراضها وتجارتها إلا على البيوت المالية والتجارية في باريز، فأخذ هؤلاء يرفعون ثقتهم من إيطاليا ويشحون عليها بالمال فحدثت تلك الأزمة التي منشأها في الحقيقة من أناس ما خلقوا ماليين ولم يستعدوا لمعاناة الشئون المالية بالعمل.

وعلى العكس كان من قانون الوراثة والمحيط أن هيأ الإسرائيليين ليعملا أعمالًا عظيمة في إيطاليا وللإسرائيليين اختصاص بالشؤون المالية ولا نجاح إلا بالإخصاء. فإنهم اختصوا بالتجارة ومعاناة المال فنشأت لهم مهارة لا نظير لها وقد بقيت سلطة الأب على أولاده محترمة عندهم بخلاف القوانين الحديثة الاجتماعية التي قللتها عند غيرهم وترى النظام في بيوتهم التجارية والصناعية أتم ممَّا هو عند غيرهم والاعتصابات قليلة وأعمالهم ناجحة أكثر ممَّا عداهم لأنهم يحسنون الانتفاع من القوى والأشياء أكثر من كل الطوائف، ومنشأ ذلك كونهم كانوا مضطهدين

فأحرزوا ببطء صفات يولدها الاضطهاد فيمن يؤخذون به. وهذه الصفات هي قوة المقاومة والشعور بالتضامن واللين والمرونة في أسباب الحياة.

وعلاوة على ما للإسرائيليين في إيطاليا من النفوذ العظيم الاقتصادي قد كان لهم في المسائل السياسية مكانة لا تنطبق مع قلة عددهم ولكن لها ما يشفع بها بما قاموا به من معاونة إيطاليا في وحدتها بالمال وما أبدوه من الصفات الحسنة التي أبانوا عنها في تقلدهم إدارة المسائل العامة. وطالما كان منهم رؤساء الوزارة والولاة فأظهروا من البراعة في الأمور السياسية ما يحق لهم أن يفاخروا به بل إن حاكم رومية نفسها هو اليوم إسرائيلي. وكذلك أكثر الولايات التسع والستين الإيطالية فإن ولاتها من أبناء إسرائيل. لا يأتون ما يمس عواطف الأكثرية من الكاثوليك بل كثيرًا ما كان نوابهم ووزراؤهم في جانب المحافظين إذا أريد وضع قوانين وإحداث أمور جديدة من شأنها إثارة الرأي العام ممَّا دل إن الإسرائيلي في إيطاليا خلافًا لما هو عليه في سائر الممالك إيطالي أولًا ثم إسرائيلي وفي غير هذه الديار إسرائيلي قبل كل شيء. وفي المظهرين تفاوت عظيم كما لا يخفى.

إيطاليا وعلومها وفنونها

٥١

كان علينا وقد وصل بنا البحث إلى هذا الحد أن نتكلم على ما امتازت به إيطاليا من دون سائر بلاد أوربا من التفنن في الفنون الجميلة والتبريز في مضمارها على جميع أمم الغرب مهما قالوا بانحطاطها عندهم بالنسبة للقرن السادس عشر والسابع عشر وذلك مثل الكلام على التصوير والنقش والهندسة والموسيقى ولكن ذلك يحتاج إلى فصول

كثيرة لا نتسع لها هذه العجالة ولا تنطبق مع أذواق أكثر القراء ومع هذا فنتكلم على الآداب الطليانية وفي العهد الأخير وكيف ارتقت حتى عمَّ أهل القرى أثرها.

يعتبر تاريخ اللغة الإيطالية الحديثة منذ عهد دانتي الشاعر فإنها بعده لم يعد ينقصها شيء من الألفاظ للتعبير عن الفكر ومضت القرون الثلاثة التالية بعده فأصبحت البلاد لقلة المواصلات وكل مقاطعة لموقعها الجغرافي لا يعرف ما عند جارتها فنتج من ذلك تعدد اللهجات وفتحت هذه صدرها لكل الألفاظ الحديثة في حين ظلت الإيطالية الأدبية جامدة تقرأ في المدارس كما تقرأ اللاتينية واليونانية أي كأنها لغة ميتة لا حية. ودام الحال على ذلك إلى قبل خمسين سنة وبفضل توفر المواصلات والخدمة العسكرية التي تقتضي بتنقل الجند في البلاد أخذت الإيطالية الحديثة تفهم في كل مكان وبقيت اللهجات التي تعوق ولا شك دون نشر لغة عامة تفي بمطالب الفكر الحديث وأصبح عندهم لغة يتكلم بها تؤثر فيها اللهجات المحلية ولغة إيطاليا مكتوبة يحسنها الكتاب والمؤلفون في إيطاليا نحو ١٤ لهجة لا يفهم أهل هذه لهجة أولئك وأفصح اللغات لغة طوسقانة ومنها سرت إلى رومية ولغة ساردينيا تشبه اللاتينية كثيرًا وتختلف عن لغة صقلية وابن رومية لا يفهم لغة ساردينيا وأهم اللهجات الإيطالية اللهجة البيمونتية واللومباردية والليكورية والبندقية والرومانية والنابولية والبولية والكالابرية والصقلية والساردينية.

وتعددت اللهجات ممَّا عمَّت به البلوى لا في اللغة العربية فقط بل في لغات أوربا التي يسعى أهل العلم والسياسة إلى توحيدها منذ زمن طويل، فمن ذلك أن في سويسرا ثماني لهجات ألمانية لا يتفاهم أهلها بعضهم مع بعض بها بل إن أهالي المانيا لا يفهمون لهجات سويسرا مثل أهالي بافيرا وورتمبرغ وهيس، وهكذا الحال في فرنسا وغيرها من البلاد

التي يظهر أن لها لغة واحدة والحال أنها مختلفة اللهجات لا يكاد يفهم المتناوءن لغة بعضهم بعضًا.

اقتضت وحدة الروح الإيطالية أن يكون لإيطاليا لغة مكتوبة واحدة فقام بهذا الغرض من الشعراء والكتاب في أوائل القرن التاسع عشر أمثال مانزوتي وبلليكو وكاردوشي فأفادوا على اختلاف في طرق الأداء في بث اللغة الصحيحة في الشعب. ومن الشعراء الكتاب المعاصرين الذين اشتهروا في الآفاق دانونزيو وباسكولي وفوكازار وودي سانكنيس وفريرو ومن النساء اللاتي نافسن الرجال في صناعة الأدب سيرارو واوساني ودللوا ومنهن من تفردن في القصص التمثيلية وأخريات في القصص الروائية وغيرهن في الصحافة.

كان من توفر أسباب الرفاهية في الشعب الإيطالي أن أخذ عدد المختلفين إلى مسارح التمثيل يزيد اليوم بعد الآخر ومن نشر التعليم وقلة عدد الأميين سنة عن أخرى أن كثر عدد الصحف وقراؤها وكان من ذلك مواد ثمينة لتعجيل كمال اللغة الحية لأن التمثيل كالصحافة إذا أراد القائمون بها أن يفهموا وجب عليهم أن يتكلموا بلغة تتناولها عقول الكافة وإذ كان بعض هذه الجوقات التمثيلية تطوف بلاد الأقاليم اقتضى لها أن تعدل من لهجتها في كل محل بحيث تتناولها الأذهان على أيسر سبيل. وعند الطليان مؤلفون كثيرون للروايات التمثيلية لا يقلون عن غيرهم من الأمم الراقية كالفرنسيس والألمان.

أما الصحافة فهي تشبه صحافة فرنسا وغيرها من الممالك في الصورة والشكل وكل يوم تزيد العناية فيها بالأخبار المنوعة المؤثرة وتقل مادتها من الانتقاد الجدي والموضوعات الأدبية فالصحافيون هنا مثل غيرهم في البلاد الأخرى يبيعون من الجمهور ما ينفق عليه ويروج عنده. وليس

للصحف الكاثوليكية رواج كثير كالصحف غير الكاثوليكية وأعظم صحف إيطاليا وأهمها جريدة (كورييه دلا سيرا) أي بريد المساء وهي تصدر في ميلانو من عواصم العلم القديمة أو العواصم الأدبية كما يسمونها وتجيء بعدها جريدة (التريبونا) أي الميتر وهي نصف رسمية ثم (جورنال ديتاليا) أي جريدة إيطاليا وهاتان تصدران في رومية. ومن خيرة جرائدهم جريدة (ايدياناسيونالي) أي الفكر الوطني وهي تمثل الفكرة الوطنية الإيطالية يريد بها أصحابها أن يبطلوا أو يقللوا على الأقل كل ما يمزق كلمة مواطنيهم وأن يجمعوا شملهم على خطة سمحة غايتها عظمة الوطن. وقد سارت صحافتهم كما هو شأن الصحافة في كل مكان على توحيد الفكر واللغة.

كان السبب الرئيسي في كل ما تقدم من ذرائع الارتقاء نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب فقد كانت الحكومة الإيطالية خصصت سنة ١٨٦١ مليون فرنك للمعارف العمومية وها هي الآن تنفق مئة مليون [1] لهذا الغرض كل سنة وارتقاء كهذا في البذل على المعارف تنشأ منه تلك الوطنية والوحدة دع المدارس المنوعة التي أسستها الجمعيات الدينية أو

(١) بعد كتابة ما تقدم اطلعنا على خطاب ناظر المالية الإيطالي وقد جاء فيه أن إيطاليا ستصرف هذا العام على المعارف ١٤٨ مليون فرنك وتفيض المال الكثير على معارف الولايات ليطبق بالفعل قانون التعليم الإجباري في البلاد وقد بلغت الحركة الدولية في المقايصات خلال الأحد عشر شهرًا من السنة الماضية (١٩١٣) ٥٥١٦ مليونًا أي بزيادة ٤٤ مليونًا عد مثلها من السنة التي قبلها وقلت الواردات ٤٨ مليونًا وزادت الصادرات ٩٢ مليونًا وزادت السفن البخارية الداخلة إلى موانى إيطاليا فكانت ١٦٤ ألفًا كما زادت البضائع الصادرة والواردة ١٠-١٢ مليون طن وزاد عدد السائحين في إيطاليا مئة ألف وزادت كمية المعدن من مناجم الحديد مبلغ ٣٢٥ مليونًا وكذلك مداخيل الضريبة على السكر والتبغ ودخل السكك الحديد وكثر الإنفاق على المصارف وأعمال الري والأسباب الصحية كثيرًا والحكومة الإيطالية ستزيد ميزانيتها البحرية والبرية وكل هذا بدون أن تستدين وتبادل الدخل والخرج على طريقة ماهرة في الأمور المالية.

الأفراد وزاد عدد الطلاب ضعفي ما كان عليه سنة ١٨٦١ فبلغ في السنة الماضية زهاء ثلاثة ملايين.

ومع هذا فإيطاليا من أكثر البلاد الأوربية أميين -بعد روسيا- ولا سيما في القرى وإن كان التعليم الابتدائي إجباريًا إلا أنه لا يعمل به كثيرًا وبالنظر لما وقع من النزاع بين الحكومة والاكليروس انتهت الحال بأن المدارس لا تعلم التعليم الديني إلا لولد يطلب أبوه ذلك والآباء قلمًا يحفلون بهذا الطلب ولذلك كاد التعليم الديني يضمحل من مدارس إيطاليا وقد تعطي الحكومة أحيانًا إعانات المدارس الأخويات الدينية ومن المدارس الحرة ماله حقوق عالية وله الحق بأن يكون لتلاميذه بالامتحان حقوق تلامذة مدارس الحكومة ومن المدارس ما يديره اليسوعيون وإن ألغيت مدارسهم في إيطاليا منذ زمن طويل ومدارس الجمعيات الدينية خاضعة إجمالًا لتفتيش الحكومة وتترفع عن البحث في السياسة

يقسم التعليم الأوسط في إيطاليا إلى فرعين مختلفين. الفرع المدرسي وهي دروس المدارس المعروفة بالجمناز والليسة والتعليم العملي وهو يدرس في المدارس والجمعيات الفنية وقد كان عدد تلامذة الفروع الأولى على عهد الوحدة ١٢ ألفًا فأصبحت في السنة الماضية ٤١ ألفًا والدروس العملية التي يتخرج فيها الشبان الذين يتمخضون لفروع الصناعات الكثيرة وقد بلغوا سنة ١٩١١: ١٠٠٠٠٠ وما كانوا منذ خمسين سنة أكثر من ٦٠٠٠ وفي الفرع المدرسي تعلم اللغتان اليونانية واللاتينية وفي الفرع العملي تعلم اللغات الحية أما عدد تلامذة المدارس الوسطى للمدارس الخاصة فلا يقل عن ستين ألفًا ويؤكد بعضهم أن المدارس التي يعلم فيها الرهبان والقسيسون أكثر نجاحًا من التي يعلم فيها العلمانيون لإن فتيان القسس ممتازون بإنكار الذات والتشبع بالروح الدينية أكثر من غيرهم من الأساتذة

أما التعليم العالي فإن لإيطاليا منه سبع عشرة كلية [١] أو مدرسة جامعة تتنافس فيها بلاد الأقاليم ولكن معظم هذه الكليات لا تخرج رجال عمل بل أكثرهم خياليون من أرباب النظر ويضاف إلى هذه الكليات المجامع العلمية العالية الكثيرة لدرس الآداب والعلوم في كل مدينة عظمى والحكومة تمدها بالمال. والمدارس العليا على كثرة ما تستلزمه من النفقات لا تتناول من مال الأمة أكثر من أربعة ملايين فرنك مسانهة ممَّا يستبان منه أن الحكومة توفر العناية بالتعليم الأوسط والابتدائي أكثر ممَّا عداهما وعدد تلامذة الكليات والمجامع العلمية العليا نحو سبعة وعشرين ألفًا وكان طلاب المدارس العليا في القرن التاسع عشر يصرفون أوقاتهم في الأعمال الوطنية أكثر من العلم أما الآن وقد استقرت حالة البلاد السياسية فإنهم أخذوا ينصرفون إلى أبحاثهم ودروسهم ليكون لبلادهم ما أحرزته ألمانيا وإنكلترا وفرنسا في مضمار العلوم والآداب.

هذا إجمال ما يقال في التعليم أما الاختراعات والاكتشافات فلم يقصر فيها علماء إيطاليا أسوة غيرهم من أمم الحضارة الحديثة فقد اكتشف باسي طبيعة الأمراض الميكروبية وهي النظرية التي خلصت الجراحة والمداواة من الأوهام التي كانت تعوقها. وكذلك كان شأنها في الكهربائية وساعدها على ذلك كثرة شلالاتها وتيسير إرسال الحرارة والنور والأعمال الكيماوية والميكانيكية إلى أبعاد شاسعة ومن مخترعيهم باشنتوفي وماركوني مخترع التلغراف اللاسلكي وغيرهم من الذين شاركوا في الأعمال العلمية فاختلط الأمر وأصبح من الصعب التميز بين المتقدم والمتأخر من مكتشفي العلماء في أميركا وإنكلترا وألمانيا وفرنسا

(١) للحكومة في إيطاليا سبع عشرة جامعة وهي جامعة بولونيا وكاكلياري وكاتان وجنوه وماسيرتا ومسينة ومودين ونابل وبادو وبلرم وبارم وبافي وبيزا ورومية وساساري وسين وتورينو وفيها أربع جامعات حرة وهي جامعة كامرينو وفريرا وبيروز وأوزبيه.

والنمسا والبلجيك وهولاندة وسويسرا وروسيا وغيرها من الممالك المدنية.

والنجاح كما قال الأمير جيوفاني بورغزة في كتابه إيطاليا الحديثة [١] وعليه اعتمدنا في بعض ما تقدم في هذا البحث إعلاء الوسط على الدوام ليتأتى للكائنات العليا أن تظهر بمظهرها وتثير المجموع بكلامها ومثالها وإعلاء الوسط يكون بتنشيط الشبيبة على القيام بجميع الأعمال الشريفة التي يخولهم إياها مظهرهم ومن الخطاء العظيم في عصرنا أن تجعل قيمة شعب على نسبة ما أحرز من الارتقاء العقلي. إن التعليم على اختلاف ضروبه يساعد على ظهور المدارك الاجتماعية وفي الكتابة والقراءة معنى جديد يجعل بيننا وبين الفكر العام صلة ولكن التعليم بدون التنظيم الطبيعي من جهة وتربية الأخلاق من أخرى لا يتولد منه إنشاء رجال تامة أدواتهم في الجملة لتنشأ على أيديهم عظمة مملكة.

وإذا نظرنا إلى ارتقاء إيطاليا نراها دخلت في ثلاثة أدوار هي أدوار النشوء الشخصي فالدور الأول الدور المادي والثاني النفسي والثالث العلمي وكان بدوء الدور الاول على أوائل تأسيس رومية وفي سنة ٧٠٠ قبل المسيح أي بعد سبعة قرون كان عصر أغسطس وهو عصر مجدها وبعد ثلاثة قرون عندما نقلت عاصمة المملكة الرومانية إلى القسطنطينية تراجع أمر الدور المادي والدور النفسي أو الروحي هو دور ظهور النصرانية التي توفر الإمبراطور قسطنطين على نشرها وجعل عاصمة بلاده القسطنطينية فمضى سبعة قرون على ذاك العهد حتى تنصرت أوربا وتم عمل الدين إلى اواخر القرن العاشر للميلاد وفي الرابع عشر بدأت تظهر تباشير دور النهضة التي أريد بها تحرير العقل الإنساني من قيوده. والدور

---

١) Peince Giovanui Borg Bese: L Itlaie Mod' rne

الثالث هو الذي نحن فيه والقرن الأخير كان أرقى أيامه وبه ظهرت إيطاليا في مظهر الدول العظمى واستقامت لها حياتها السياسية وتبعتها سائر الأشياء ولا تستقيم حياة أمة بدون أن تستقيم سياستها واستقامة السياسة نتيجة ارتقاء العقول وارتقاء العقول لا يكون بغير قبول المدنية الحديثة والأخذ بالأساليب التي اتخذها السابقون في مضمار التحضر.

ومن أنعم النظر في هذه النبذة يدرك أن كل نهضة غير متعذرة وأن أممًا بلغت من الشقاء مبلغًا كبيرًا وتيسر لها بقوة الإدراك وإخلاص المستنيرين من الوطنيين أن تغلبت على جميع العوائق وكونت مجموعًا يفتخر به وحررته من قيوده الثقيلة ومن رأى إيطاليا أمس يجوس النمساويون أو الفرنسيس خلال ديارها ويستعبدون أبناءها ويرى الطليان اليوم وقد ألفوا مجموعًا حيًّا ودولة قوية وهم في حكومتهم الملكية أكثر حرية من الفرنسيس في حكومتهم الجمهورية على رأي بعضهم من رأى ذلك لا يقول بأن في العالم شيئًا مستحيلًا. وأن قوة العقل والثبات على العمل تفعلان أكثر من كل قوة في الأرض في إيطاليا الحديثة عيوب كما في سائر الممالك وهذا يتعذر على السائح الشرقي في بلادها أن يدركه ولا يحل له أن يخط فيه حرفًا لأنه لا يرى إلا الظواهر خصوصًا مع عدم معرفته لغة البلاد فإنه يبقى كالأصم الأخرس وليس ارتقاء الطبقة المستنيرة هو الميزان الوحيد في معرفة أقدار أمة وكم عند الطبقة الوسطى والدنيا من الفضائل ونقيضها ما تؤخذ منه حقيقة شعب وذلك لا يتيسر إلا لمن عاشر الطبقات كلها وصرف زمنًا طويلًا في أصقاعهم المختلفة وحكم العقل والإنصاف فيما يكتب بعد درس الأخلاق والعادات والتنظير بينها وبين ما يماثلها من الشعوب الأخرى.

وغاية ما يستطيع المفكر أن يقول به إذا رأى إيطاليا إن بينها وبين الشرق القريب من الفروق أكثر ممَّا بين مصر أو الشام والسنيغال أو بلاد

نيام نيام يشهد هنا لكل شيء نظامًا وقانونًا من خرج عنهما ضل وما اهتدى ويجد نشاط الأفراد على أتمه ليس له ما يعوقه من سلطة جائرة وقانون غير معقول فالشقي يشقى بصنعه والسعيد يسعد كذلك ولكن السعادة أوفر ممَّا يناقضها بدرجات السرور تقرأه في الوجوه والبسطة في الغنى والرفاهية تشهده على الأكثر في سكان الأقاليم الوسطى والشمالية ولكل صقع من الأصقاع خاصية لا يكاد يشركه فيها الصقع الآخر فهذا اشتهر بعادياته وآثاره، وذاك بحدائقه وأنهاره، وهذا بتجارته، وذاك بصناعته، وآخر بزراعته، وغيره بسكونه وآخر بحركته.

وتكاد ترى المواهب مقسمة بين البلاد. فلفلورنسة مدينة الزهور وعاصمة طوسقانة وآثينة القرون الوسطى ومسقط رأس دانتي وبترارك وبوكاس وغاليله وميكل آنجلو وليونار دي فنسي وبنفانوتو وسيليني وأندره دلسارت وغيرهم من نوابغ الطليان في الشعر والموسيقى والنقش والتصوير والهندسة والعلم من المزايا ما ليس لرومية وذلك لأسباب تاريخية واجتماعية كثيرة فإن جمهوريات طوسقانة بينا كانت في القرون الوسطى تحسن الانتفاع من جميع العناصر الحيوية في الشعب كانت رومية تضمحل بما قام فيها من المنازعات بين الأسر الكبرى والذهاب في الجدالات المذهبية مذاهب. ولذلك كان المجد كله في النهضة (La Renaissaece) لمدينة فلورنسة التي هي اليوم إحدى الولايات الإيطالية.

هذا شأن المدن الداخلية وكذلك الحال في المدن الساحلية فإنك تجد مثلًا للبندقية من المزايا ما لا تجد مثله لجنوة ونابل وكلها ممَّا يستدعي الغريب ويستهويه لنزول هذه الديار ودرس آثارها الكثيرة بل التي لا تدخل في عد لكثرتها.

وقد اتخذت الحكومة الجديدة أنواع الراحة لجلب أنظار سياح الأرض لغشيان بلادها وفي ذلك من الفوائد المادية ما لا يقدر فلو انقطع سياح الغرب سنتين عن زيارة إيطاليا لأحست بفقر شديد وذلك لما يبذره أولئك السياح من الأموال في جميع فروع الإنفاق. ولها أمثال في تاريخ إيطاليا وقد نشأ حينئذ وقوف في تجارتها عن طريق البر التي كانت عمل هاته الجمهوريات حتى إذا قام الإصلاح الديني في أوربا وفصل جزء عظيم من هذه القارة عن البابوية قل ما كان يرد مدة زمن طويل إلى إيطاليا من الأموال بالطبيعة فافتقرت.

إن كل كنيسة من كنائس إيطاليا حرية بأن يقصدها السائح للفرجة من القاصية وقد وقع لي من الدهشة عندما رأيت كنيسة (الدوم) في فلورنسة مثل ما وقع لي من الدهشة عندما زرت كنيسة القديس بطرس [1] في رومية مقر البابوية ومهوى أفئدة البابويين في الأرض. ولكل مكان ميزته.

امتازت رومية بكنائسها العجيبة كما امتازت بكثرة فواراتها وعيونها وكثرة تماثيلها وأنصابها في كل جادة وساحة ممَّا يستهوي الغريب ويستدعي دهشته كما امتازت جنوه بمقبرتها لتفنن الجنوبيين منذ القديم بتصوير الأموات على الرخام وهم بين أهلهم أو في آخر ساعات حياتهم والمقبرة هناك ثلاث طبقات كما أن أكثر الأبنية هي الآن في إيطاليا ست طبقات ويضيق المقام لو أردت فقط الألماع إلى ما في رومية وحدها من العاديات والقصور والحدائق ولا سيما حديقة البنشيو العامة فإنها خصت بكل أنواع الملاحة والراحة وهي مجمع الحسان الرومانيات كل عشية وفيها تتجلى عظمة الطليان وتتبدى طبقاتهم الاجتماعية وكل ما يقع نظرك

(١)كلفت هذه الكنيسة ٢٤٠ مليون فرنك والمهندس المصور ميكل آنجلو هو الذي أقام قبتها

عليه في هذه المدينة الأزلية صاحبة المدنيتين الرومانية والنصرانية تقرأ فيه روح التفنن وتقدير العلم والنشاط وحب التسامح إلا قليلًا.

دخلت مرة مع أحد إخواني من مستشرقي الطليان لأزور كنيسة البانتيون فدهشت لما رأيت وإليك البيان: كنيسة البانتيون هي الكنيسة الوحيدة الباقية من عهد رومية القديمة بنيت معبدًا في سنة ٢٧ قبل المسيح ولما رسخت قدم النصرانية في رومية جعلت كنيسة وكان يشترط على كل شيخ في مجلس الشيوخ في القرن الثامن للميلاد من جملة ما ينبغي له الاحتفاظ به كنيسة البانتيون.

وكان يدفن بها بعض قديسيهم وأعاظم رجال الدين عندهم وما راعني إلا وقد رأيت إلى جانب أضرحة رفايل (المصور النقاش المهندس المتوفي سنة ١٥٢٠) والمصور أنيبال كاراشي (المتوفي سنة ١٦٠٩) وغيرهما من كبار المهندسين والمصورين والنقاشين الطليان ضريح الملك فيكتور عمانويل الثاني المدعو أبو الوطن لأنه قام بالوحدة الإيطالية وخلف لذريته من بعده التاج الإيطالي بعد أن كانت أسرته لا تحكم على غير إقليم البيمون فقط وضريح ابنه همبرت الأول والد الملك الحالي الذي اغتيل سنة ١٩٠٠.

نعم أعجبت لضريح المهندس والنقاش والمصور يكون في مقام التكريم إلى جنب القديسين والشهداء وهذا في تلك القرون التي كنا نظن فيها أوربا متوحشة وراقني أن يجيء ملوك إيطاليا اليوم ويحبون أن يدفنوا إلى جنب أولئك الصناع النوابغ أن لحد المهندس والمصور في أقدم كنيسة بل أهمها بعد كنيسة القديس بطرس والقديس بولس هو أكبر دليل على حب الباباوات لرجال الفنون الجميلة ولحد ملكين عظيمين إلى جنبهم هو أيضًا ممَّا يدل على روح التسامح الحديث على أن رافايل

المصور ليس في مكانته في خدمة أمته أقل من فيكتور عمانويل الثاني. فإن كانت باريز قد أقامت كنيسة البانتيون لتدفن فيها رفات العظماء في العلم والسياسة في أوائل القرن الماضي فإن رومية تفاخر بأنها خصت بانتيونها لهذا الغرض منذ زهاء أربعة قرون. بانتيون باريز يضم رفات ميرابو وفينلون وكوفيه وفولتير وروسو وهوغو ولافايت ونابليون وأضرابهم. وبانتيون رومية يحوي أمثالهم من رجال الطليان. فمتى يا ترى يقوم في الشرق القريب أعاظم من أبناء هذه الأجيال الحديثة يكونون في عقولهم وأعمالهم على مستوى أولئك الأبطال لتقوم بهم مدنيتنا على أحسن الدعائم كما قامت مدنية الطليان في هذه الأزمان.

إيطاليا والمشرقيات

٥٢

طمحت إيطاليا [1] في كل زمن إلى هذا الشاطئ من البحر المتوسط فحملت أولًا القوة والسلام الروماني ولما انحلت عرى هاتين المادتين تحت ضربات البرابرة عادت توجه وجهها إلى تلك الوجهة أيضًا لا إلى الشمال وكان البحر المتوسط ميدان عمل جنوة وبيزا والبندقية وأمالفي وباري وسالرن ولم يقنع تجارها بأن يغتنوا بالاتجار بأقمشة الهند وفارس وجزيرة العرب وأفاويتها وأبازيرها بل أخذوا يؤيدون النفوذ اللاتيني في آسيا الصغرى ومصر والحبشة وكان من انتشار الإسلام وقوته في القرن الثامن أن ضربت هذه الفتوح التي تذكر بفتوح رومية أيام عظمتها ضربة شديدة فاحتقر المسلمون إيطاليا على سمو مدارك أبنائها ومرونة أخلاقهم وأغاروا عليها فأدخلوا على قلوب أهلها الهول والفزع فكان الجلاد

(١) من مقالة لانطوان كاباتون في مجلة العالم الإسلامي الباريزية لخصناها في مجلة المقتبس ونشرت في المجلد السابع صفحة ٦٩٢.

عظيمًا ولئن وفقت إيطاليا إلى طرد العرب من صقلية فإن نجاح مدنها الساحلية في الجنوب قد تراجع وظلت جنوة وبيزا متأثرتين وعادت البندقية فوجهت وجهتها إلى آسيا الصغرى.

وكان من الحروب الصليبية أن تهيأت لإيطاليا أسباب الانتقام فإن هذه الغارات وإن كان باباوات رومية هم الذين أملتها عقولهم قد بذل فيها العنصر الإيطالي بما عرف به من الحمية الممزوجة بقليل من التبجح من حسن السياسة أكثر مما بذل من الشجاعة فاقتصر الإيطاليون في الحرب الصليبية على مرافقة جيوش أوروبا إلى آسيا وبينا كان ملوك الأمم الأخرى يقيمون ممالك صغرى في الأرض المقدسة كان الإيطاليون يقطفون ثمرات تلك الحملات. وقد ثبت هذا الدهاء السياسي الإيطالي في الحملة الصليبية الرابعة فإنه أنتج لجنوة وبيزا أن ربحتا كثيرًا واستأثرت البندقية بتجارة آسيا الصغرى وامتلاك أراض مخصبة على الشواطئ الشرقية من البحر المتوسط وجزء من الآستانة. ولما سقطت القسطنطينية في أيدي محمد الثاني سنة ١٤٥٣ حالت دون هذا السير النافع ومع هذا فإن البندقية بما أتته من عجائب المهارة وحسن المأتى بل بجهادها العلني قد احتكرت جميع تجارة أوربا مع الشرق.

وبهذا الاحتكاك المتصل تمت للبندقية على قوتها البحرية والتجارية معرفة الشعوب الإسلامية حق المعرفة أكثر من كل أوربا وكان من العادة الجارية مع طبقة التجار من أبنائها أن يتكلموا بالتركية والعربية ويألفوا بعض العادات والمصطلحات الشرقية ولكن جاءت قوة في القرون الثلاثة التالية أكثر من قوة البندقية على ما لها من الصلات التجارية مع العناصر الإسلامية فزادت عليها لأنها روحية تطمع في امتلاك العالم ونعني بها (البابوية).

فامتدت أحلام كنيسة رومية إلى الخارج ومطلبها أعلى من الربح المادي وكانت في عهد غارات الجرمانيين تحلم بالقبض ذات يوم على قياد الوحدة فأحسنت صلاتها مع المسيحيين بل مع الوثنيين في الشرق ممن تطمع في تنصيرهم وأدركت كل الإدراك الخطر الناشئ من امتداد كلمة الإسلام على أوربا المسيحية. ومع أن الحملات الصليبية قد أخفقت وقوة الإيمان قد انثلمت في القائمين بها ما برحت كنيسة رومية إلى أوائل القرن السابع عشر تطالب بأعمال أخرى وفي هذا العهد كان الضعف أخذ من العثمانيين.

بيد أن رومية شعرت في الحملة الصليبية الثانية أن السيف وحده غير كاف في مثل هذا الجهاد ورأت أن تعارض التعصب الإسلامي بطوائف متماسكين في اتحادهم من غيوري الأوربيين أو الشرقيين لتقطع أوصال المسلمين قطعًا أدبيًا بعد أن أوقفتهم عن سيرهم المادي. وما فتئت رومية منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر تحاول تنصير جميع الشعوب الآسياوية التي ظلت على وثنيتها فبعثت إلىٰ بلاد المسكوب وفارس وأرمينية والتاتار والتبت ومغوليا والصين والأرخبيل الهندي وفودًا من أهل الذكاء والحصافة ممن خلفوا لنا رحلاتهم ومذكراتهم اليومية وعهدت إليهم أن يسبروا غور أمراء تلك البلاد لينصروهم أو ليتحالفوا وإياهم على الأقل ضد المسلمين. وكان نصيب مصر والحبشة أيضًا البحث عن مثل هذا الشأن.

ولم تلبث الرهبنات العظمى أن أنشئت مثل الدومينيكانيين والفرنسيسكانيين واليسوعيين والكبوشيين والكرمليين واللعازريين ليكونوا جندًا مخلصًا في خدمة أمام الأحبار وتفتح تلك البلاد لدخول النصرانية إليها. فانبث جيش من الرهبان على اختلاف مظاهرهم في قارتي آسيا وإفريقية الشمالية لافتتاحها ونشر الإنجيل فيها ثم نشر المدنية الغربية

فحبط القائمون بالأمر أولًا ولم يهتدوا لأحسن الطرق في العمل فانهال الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون يفادون بأرواحهم ويصبرون على ضروب العذاب في سبيل دعوة الشعوب الإسلامية في إفريقية الشمالية إلى الدين المسيحي وكانت الطرق التي عمدوا إليها على تحمس فيها ممزوجة بكثير من الجهل فشعروا في الحال أن الضرورة تقضي على من يريد دعوة أحد إلى دينه أن يتكلم بلغته عل الأقل ليتفاهم الداعي والمدعو فنادى القوم من كل مكان بضرورة إنشاء مدارس لتعليم اللغات كان رايموند لول داعيتها النشيط.

فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١ الذي كان برئاسة اكلمنتس الخامس أن تؤسس في باريز وإكسفورد وبولون وسلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية من شأنها تخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود وأنشأ الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون في أديارهم دروسًا من هذا القبيل ليعدوا رهبانهم لنشر الإنجيل ومنذ ذاك العهد اصبحت إيطاليا مهد حركة نجحت في المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين وكان أساتذة العبرية يتخرجون بأعلم العلماء الربانيين وأساتذة العربية كانوا ممن رحلوا إلى بلاد اللغة التي أخذوا يدرسونها ويصحبهم بصفة معيدين أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة ممن كانوا يعلمونهم العربية بالعمل ورأى هؤلاء القسس بحكم الضرورة أن ينتقلوا من اللغة العامية إلى اللغة الفصحى ليشتد ساعدهم في فهم المسائل الفلسفية ورد حجج المخالفين بأسلوب فلسفي أدبي.

ومن أجل هذه الغاية اهتموا أيضًا بمصر والحبشة ومن مدارسهم نشأ العلماء الأول من الأقباط والحبش والامحريين ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة في شبه جزيرة إيطاليا فكان ينظر إلى تعلمها أنه

من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية. فقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفة في عدة أماكن من إيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك نورماندیا وهوها نستوفين وفريدريك الثاني ودي منفروا لغة العلم العالي والشعر والأدب. وما كانت العربية على ما فيه من القصائد المقيمة المقعدة والعواطف المؤثرة لتحمل أمثال شارل دانجو على تحمسه لدينه أن يخاف عاديتها بل كان الأطباء والطبيعيون في قصره أما من الإسرائيليين أو من المسلمين المتسامحين في عقائدهم وكان الطب هو الجواز الذي سارت به الفلسفة العربية عندما قام جيرارد دي كرمون الشهير في أوائل القرن الثالث عشر في ظل دولة فريدريك الثاني يترجم بعض كتابات ابن سينا الفيلسوف.

وفي القرن الثالث عشر ترجم المعلم موسى من أهل بلرمه من العربية إلى اللاتينية كتاب ابقراط في أمراض الخيل فتسربت فلسفة ابن رشد من أمثال هذه الطرق ولم تلبث أن صادفت قبولًا بيْن ناشئة إيطاليا حتى شكا من ذلك جهارًا بترارك في القرن الخامس عشر إذ رأى في تلقف فلسفة ابن رشد دليل الإلحاد والازدراء باليونانية واللاتينية. وكثير من الأدباء والعلماء من غير طبقة الرهبان كانوا يرون من موجبات الفخر في القرن التالي أن يعرفوا اللغة العربية سائرين على سنة بيك دي لامير اندول

وعلى توفر بعضهم على نشر كتب في الجدل مع المسلمين حتى قبل أن يترجم القرآن بإحدى اللغات الغربية فإن عشاق العربية كانوا يرون من الحيطة ودواعي الغيرة أن يمرنوا أنفسهم على ترجمة رسائل في الطب ينقلونها عن العربية إذ لم يكن أحد يجهل مكانة العرب في هذا الفن وبذلك يرون أنهم ينجون من الاتهام بالزندقة وقد أصبح أندري اريفابن في البندقية حجة في هذا الباب وأنشأ هؤلاء المترجمون يبالغون النظر

فيما ينشرون فكان لهم أسلوب علمي حقيقي. ولما رأى أندري مونكاجون بللون في القرن الخامس عشر أن تراجم ابن سينا القديمة وأطباء بلاط فريدريك الثاني ليس فيها عناية ذهب يحكم دراسة اللغة العربية في دمشق وأتم تعليمه الشرقي بالرحلة إلى مصر وسورية وفارس وآسيا الصغرى رحلة طويلة وذلك قبل أن يعود إلى كلية بادو ليشرح لتلامذته فلسفة ابن سينا. وقصد جيرولامورانوزيو أحد أطباء البندقية بلاد الشام أيضًا في سنة ١٤٨٣ ليتبحر في فهم فلسفة ابن سينا ويعلق شروحًا على ترجمته عليها.

وكان من سقوط القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان إلى إيطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الإصلاح إن هبت في أرجاء إيطاليا حركة النهضة العلمية التي تجلت في أجمل مظاهرها في الدروس الشرقية ولا سيما في دروس العربية والإسلام.

كانت الحركة في تعلم المشرقيات عامة وإفرادية معًا انتشرت كثيرًا بفضل الكردينال فريدريك دي مديسيس في فلورنسا والباباوات في رومية والكردينال بورومة في ميلان والكردينال باربارِيكو في بادو ومن تقدمهم مثل باباغانيني الذي نشر في مدينة البندقية أول طبعة من القرآن باللغة العربية ولكن هذه الطبعة لم تلبث أن أبيدت بغيرة دينية خرقاء وكان من الأسقف اغوستينوجويستنياني المشغوف بالدروس الشرقية ولا سيما العربية والعبرية أن قبل من فرنسيس الأول بتدريس اللغة العربية بعد أن صرف ثروته في اقتناء مجموعات من المخطوطات المهمة في العبرية والعربية والكلدانية والرومية وكان تيزيوامبرو كيوقومس (كونت) البونز مستشرقًا مدققًا.

وهكذا كانت إيطاليا كلما أولع علماؤها باللغة العربية وتشربوا روحها تميل كل الميل إلى الأقطار التي كان يتكلم فيها. وقد نشر اندريا أريفابن من مانتو أول طبعة إيطالية من القرآن بيد أن كل هذه الأعمال على جلالتها لا تعد شيئًا في جانب إنشاء مطبعة أسرة ميديسيس المالكة والمطبعة الشرقية لبث الدعوة ومطبعة بادو وكليتها وكل ذلك بغية تنصير المسلمين والوثنيين. فقد طبعت مطبعة ميديسيس ١٨ ألف نسخة من الإنجيل باللغة العربية سمته (أربعة أناجيل يسوع المسيح سيدنا المقدسة) وأرسلتها مع تجار لتباع بثمن بخس في البلاد العربية أو التي تفهم بها العربية على صورة حازمة لا يظهر منها المقصد الذي يرمي إليه دعاة الدين.

وكانت النية معقودة قبل كل شيء على إعلان حرب صليبية جديدة روحية على الإسلام يدخل إليها بالوسائل العلمية وعني الباباوات الأدباء أمثال ليون العاشر واكليمنتس السابع عناية خاصة بتأسيس خزائن كتب من المخطوطات تسلب من المسلمين الأعداء القدماء لتكون من ذلك مجموعات نفيسة في دار كتب الفاتيكان وكان غريغوريوس الثالث عشر لا يرى أحسن في النجاح من تنصير الناس وإبادتهم. وأنشأ يوليوس الثاني في مدينة فانو على بحر الادرياتيك أول مطبعة عربية احتفل ليون العاشر بافتتاحها سنة ١٥١٤ بنشرها أول كتاب طبع بحروف عربية وهو كتاب (صلاة السواعي) وكان في رومية مطبعة حجرية شرقية أنشأها سافاري دي بريف الذي ظل سنين طويلة سفيرًا لملك فرنسا في القسطنطينية وهو نفسه الذي حفر أمهات الحروف العربية التي نقلت عنها مطبعة الأمة في باريز أشكالها. ونشر منذ سنة ١٦١٣ كتاب التعليم المسيحي.

وظل الكردينال فرديناندي ميديسيس متممًا لذوق أسرته في حب المعارف الشرقية فابتاع مخطوطات شرقية باسم البابا وكان يدير بطرير

كيات أنطاكية والإسكندرية ومملكة الحبشة إدارة روحية وأنشأ على نفقته مطبعة ميديسيس وولى عليها ريموندي الذي ولد سنة ١٥٣٦ في نابولي وهي أكثر البلاد التي انتشرت العربية فيها. فكان باللغات الشرقية التي يتقنها ولا سيما العربية قدوة الداعين إلى تعلم المشرقيات ونشر بالعربية كتاب نحو وكتب ابن سينا وغيرها فكانت مطبوعاته بحسن طبعها ووضعها موضوع الإعجاب العام وبعد أن قضى ريموندي نحبه لم تعد أسرة ميديسيس تفكر في إعلان الحرب الروحية على المسلمين بواسطة الكتب بل عمدت إلى إحداث الاضطرابات العملية.

ولم تشأ رومية أن تكون في خدمة المعارف الشرقية بالمطابع والمكاتب والمدارس دون أسرة ميديسيس في بث هذه الدعوة لتنتشر بها الدعوة على الإسلام فقد صارت بفضل الباباوات ميدان درس كل ما يرقى عقول القسيسين الذين تنتدبهم رومية لفتح العالم فتحًا روحيًّا يتخرجون في المدارس ما أمكن بلسان البلاد وعاداتها ومعتقداتها التي يريدون بث دعوتهم فيها ودار الكتب تتمم لهم هذه المعلومات فيعثرون فيها على ما سطره أسلافهم في رحلاتهم إلى البلاد التي عنوا بتنصير أهلها وما تلقفوه من معتقداتهم وعاداتهم ولهجاتهم وصناعاتهم ويقضى على كل قسيس أن يكتب بعد مقامه في القاصية كتابة أو رسالة تخدم هذا الغرض ومطبعة بث الدعوة تنشر كل ما يؤلف من هذا القبيل وتترجم إلى لغات شرقية كثيرة الكتب المسيحية والردود على الإسلام وكان للغة العربية الشأن الأول من بين هذه اللغات التي تطبع فيها المطبعة وهي عشرون لغة شرقية.

وما كان القصد من هذه العناية إلا دينيًّا محضًا باديء بدء ولم يكن العلم علم الشرقي إلا واسطة تساعد على الجدل وكذلك اللغة العربية لم تكن إلا سلاحًا يقاتل به الإسلام ولذلك لم تر المدرسة الإكليركية

الشرقية في بادو غضاضة عليها أن تشتغل بالعلم المجرد أحيانًا للأثر الذي يحدث عنه وكانت المطبعة والمكاتب الشرقية من المتممات لتلك المدرسة لذهابها بفضل الشهرة وتأثيرها في الأفكار.

وقد تخرج بالأستاذين ماراسي وأغابيتو عدة من التلامذة باللغة العربية فصنفوا فيها وأفادوا وتعاقب اثنان من الكرادلة على أبرشية بادوكان كل منهما يتنافس في عصره في خدمة الدروس الشرقية. وهذا كان شأن ميلان فإن فريدريك بورومة بث فيها روح العلوم الشرقية وبعث منذ سنة ١٦٠٩ إلى الشرق يبتاع بالأثمان الباهظة كتبًا ومخطوطات شرقية فأسس المكتبة الامبروزية الشهيرة ولم يكثر تلامذة المدرسة التي أسسها لهذا الغرض بل كانوا قلائل امتازوا بإخصائهم وكان ثمة أساتذة خاصة من مسيحي الشرق أو المسلمين الملحدين ولطالما عطف عليهم ونشطهم وتخرج في مدرسة امبرواز أنطونيو جيجي باللغة العربية فكان لها مجدًا أثيلًا.

عد القرنان السادس عشر والسابع عشر عصر ازدهاء الدروس الشرقية ولا سيما اللغة العربية في إيطاليا أما القرن الثامن عشر فكان عصر الانحطاط التام إذ قلت فيه حتى الغيرة الدينية والحماسة العقلية ولم ينشأ فيه سوى الكردينال ميزوفانتي الخارقة في إتقان اللغات المنوعة فكان مفخرًا للعلم الإيطالي وقد تقاسم جمهور الشعب اقيال وملوك متوسطون صار معهم إلى الشقاء والعبودية أما الطبقة العالية فقد حرمت من الاشتراك في إدارة شؤون بلادها ينهكها الاستبداد البليغ أو اضطهاد النمسا الشديد فنسيت في لذائذها المادية حريتها وعلو مزلتها العقلية.

وفي سنة ١٦٩٠ احترقت مطبعة ميديسيس ثم أعيد إنشاؤها وبعد أن تقلبت عليها الأحوال ونقلت إلى باريز بأمر الإمبراطور نابليون أعيدت إلى إيطاليا وفيها طبع أعاظم مستشرقي الطليان أمثال أماري وسكيابارللي

وكويدي كتبهم وما نشروه من آثار العرب. ولما فتح نابوليون مصر وأعلن للمسلمين بأنه يراعي معتقداتهم وحقوقهم وأنه لا أرب له إلا قتال المماليك أحلاف إنكلترا رأى أن يستولي على قلوب المصريين فظهر لهم بمظهر الحياد وحسن الخدمة وبعث يجلب مطبعة لبث الدعوة الشرقية من إيطاليا فأتته إلى مصر وأخذ يطبع بها الكتب خدمة للسياسة والتجارة

فأصيبت من ثم المطابع الشرقية في إيطاليا بضربات السياسة والحوادث وبقيت المدرسة الإكليركية وخزائن كتبها في بادو بمعزل وعلى ما عرف به المستشرق العالم بالعربية اسيماني من سعة الفضل فإنه لم يتيسر لبلاده أن يعيد الحياة للمشرقيات بعد أن انطفأت جذوتها بالفتن والكوائن وانقراض بيت ميديسيس. ونشأ للعربية أستاذ في القرن الثامن وهو القس فللادرس في كلية بلرمة ونشر بعض الكتب ولكن القرن التاسع عشر امتاز بآدابه كما امتاز بالحياة في إيطاليا التي هبت قوية حرة وراحت ترفرف على كل ما كان فيه مجدها أيام تاريخها المجيد فأزهرت فيه الدروس الشرقة ولا سيما الدروس العربية والعلوم الإسلامية. فكانت الولايات الجنوبية في إيطاليا تخرج أبطالًا في المشرقيات أمثال المؤرخ والسياسي ميشل اماري الذي نشر أحسن تاريخ للمسلمين في صقلية وكثيرًا من الكتب التي تدل على فضل علم وتدقيق. كذلك يقال في دروس العربية في كليتي فلورنسا وبيزاء وعاصر أماري الأستاذ سكيا بارللي مدرس العربية في فلورنسا ثم بونازيا مدرس كلية نابولي واغناس كويدي الذي هو اليوم أحد الزعماء المبجلين من علماء المشرقيات من الطليان وهكذا نشأ لإيطاليا أجلة من المتبحرين في علوم الشرق ولغاته وأمراء يفضلون على العلماء في طبع ما يلزم ونشره.

وكان امتياز إيطاليا قديمًا بنشر المعارف في كل البلاد فأصبحت كذلك في عهد وحدتها تريد أن تجعل لكل إقليم حظًا من هذه الخدمة

ولم تلبث صعوبة الحياة الحديثة والأطماع القديمة التي يظهر أنها اليوم العامل في حياة الممالك الأوربية أن تحدو إيطاليا السياسية إلى الانتفاع من هذه المعارف النظرية انتفاعًا عمليًا

وإذ كانت مصر على قربها من إيطاليا وغناها وعراقتها في الإسلام ممَّا يكون منه الخطر كانت هي أول غاية انصرفت إليها كهنة الطليان وتجارهم وكانت إيطاليا منذ القرن السادس عشر مركزًا لتعلم الآداب القبطية وقد أنشأت تعلم علم الآثار المصرية والقبطية في بيزا لتثبت بذلك أنها لا تريد أن تكون غريبة عن علم كانت لها القدم الراسخة قديمًا في الإبداع فيه وكانت للغة الحبشية المقام الأول في إيطاليا لأنها رأتها أقرب إلى بث الدعوة في نساطرة الحبش وإن التجارة تمكن بدون أن يصطدم الإيطالي مع الإسلامي الذي لا يتساهل.

وفي أوائل القرن التاسع عشر أنشأت إيطاليا مجمعًا ومدرسة لتنصير الإفريقيين وتعليم دعاة لهذا الغرض تأخذهم من أبناء تلك البلاد وتربيهم ليعودوا إلى مساقط رؤوسهم يحيون فيها روح دينهم الجديدة ولكن هذا العمل في التنصير أخفق لما حال أمامه في كل مكان من بث دعوة الإسلام ونشر الدعوة البرتستانتية فاقتصرت إيطاليا من ثم على غرس نفوذها في تلك البلاد وإعداد الأسباب للمطامع الاستعمارية. ولما سحقت الحبشة لإيطاليا سنة ١٨٩٥ جيشًا مؤلفًا من خمسة وسبعين ألف إيطالي في أدوا اضمحلت آمال إيطاليا وقنعت بما ترك لها من الموانى هناك وراح أبناؤها ينتشرون في تونس ومصر وعلماء المشرقيات المتضلعين من العربية من أبنائها يرفعون شأنها الماضي في الحضارة وتقاليدها القديمة في النصرانية.

واتفق أن أحد رجال البيت الخديوي الأمير أحمد فؤاد باشا (عظمة الملك فؤاد الأول ملك مصر اليوم) تعلم في المجمع العلمي العسكري في تورينو فكان منه بعد ذلك أن عقد أنفع الصلات مع إيطاليا كما بدأ ذلك منه سنة ١٩٠٨ وقد عين رئيسًا للجامعة المصرية لتعلم العلوم الحديثة للمصريين ونظم الجامعة بمشورة عالم فرنساوي مشهور المسيو مسبرو وكانت أكثر الدروس تلقى بالعربية فكان من الأساتذة كويدي ونالينو ومالو الإيطاليين الذين درسوا الدروس التي عهدت إليهم بالعربية.

ومن ذاك العهد مالت الأفكار في إيطاليا إلى طرابلس الغرب لتكون لها أهراء حنطة كما كانت للرومان قديمًا وذلك لأنها بصرف المال وبذل الوقت والعناية بزراعتها سيكون منها مورد ربح عظيم وتجد فيها اليد العاملة من الطليان مجالًا واسعًا للاستعمار فرأت إيطاليا أن يكون الفتح الاستعماري مشفوعًا بالرفق والرحمة والتساهل في معاملة الشعوب الإسلامية وأن يكون أساس الاستعمار في تلك الأقطار المصالح الاقتصادية وأن تدار البلاد بأيدي أعظم رجال الإدارة ممن تعلم منهم وزارات المستعمرات الأوربية دروسًا في الاستعمار.

وأخذت إيطاليا بتنظيم كلية بادو التي كانت اتخذتها جمهورية البندقية منذ قرنين مدرسة لتخريج رجال سياستها وتراجمتها وسماسرتها تدرس فيها العربية والفارسية والتركية ولا سيما العربية وستعنى هذه المرة بالعربية أكثر ليكون من متخرجيها أعظم الإداريين المستعمرين لليبيا وتضاف إلى دروسها اللهجات البلقانية المنوعة ممن تتجر معهم البندقية وإيطاليا. ولمدينة جنوة درس عربي طالما تناوب تدريسه أعاظم مستشرقيها وهي اليوم تطالب بأن يكون لها امتياز بتخريج رجال الإدراة والاستعمار بإنشاء كلية بحرية استعمارية فيها وكذلك سيكون من كلية بولون أثر عظيم في تخريج رجال بالعربية كما لها منهم حظ ليس بقليل

الآن. وفي رومية في مدرسة الدعوة إلى الإيمان درسان للعربية والسريانية وكذلك مدرسة القديس أبولينير فإن درس العربية يدرسه فيها الأسقف بوغاريني وتفتخر كلية الحكومة اللادينية في رومية بأن فيها درسًا للغة العربية وآدابها بزعامة الأستاذ سكيباباريللي والحبشية تحت نظارة كويدي. وفي جنوب شبه جزيرة إيطاليا المملوء بتذكارات إسلامية والقريب من حيث الوضع الجغرافي من بلاد المسلمين كلية بلرمة التي يدرس العربية فيها كل من الأستاذين نالينووبووونازا واقتصرت نابولي على تعليم العربية بالعمل كما تعلمها بالنظر أيضًا وفي نابولي مجمع شرقي يعلم بالعمل اللغات الحية في آسيا وإفريقية وفيه تلامذة صينيون وهنود وبلغاريون وصربيون وفلاخيون والبانيون ويونان. وفي سنة ١٩٠١ أعيد تنظيم هذا المجمع على مثال مدرسة اللغات الشرقية في باريز ويمتاز بأن دروسه مجانية ولا يمتحن الطلاب فيه.

سويسرا
٥٣

أصحيح أن القطار غدًا يخترق العقاب والشعاب. ليخلص من إيطاليا مهد المدنيتين الرومانية والنصرانية. إلى سويسرا جنة أوربا بل جنة الدنيا، ومدرسة العمل العليا، وأبهج مصيف ومشتى لملتمس الراحة والسلوى.

أيكتب غدًا للروح أن تطمئن قليلًا في أشرف ديار، عرفت في باب حرية الأديان والأفكار. ويشهد الطرف حسناء ضمت إلى صدرها شمل المدنيات العصرية ووضعت على مفرقها تاج البدائع الأرضية والسماوية. بلاد خص كل شبر منها بمزية غالية عالية، وتعاورتها الأيدي بالتحسين

والتزيين والتطرية، فلم يتصور العقل الآن أرقى من نظامها ولا أبدع من طرازها وهندامها.

أصحيح أن هذه المدينة الفاضلة، دهشة الأمصار والأقطار، وزبدة جهاد القرون والأعصار، المغبوطة من جاراتها بل من أهل الغرب أجمع، على قانونها المتكامل، وأمنها الشامل، سيكون للنفس قسط من الراحة في رباعها البهجة شهرًا من العمر يعد كألف شهر، فتستمتع الحواس بعجائب صنع الديان والإنسان وآخر حسنات العمران في هذه الأزمان.

سلام عليك يا جمهورية السلام والوئام. عقمت الأيام أن تنشئ مثلك. أنت الوحيدة في العمل بتعاليم السيد المسيح بين الممالك الغربية فلم يعد عليك أن جوزت بعد تحضرك قتل النفوس لامتلاك النفائس ولا أن ظلمت شعبًا آمنًا لاستصفاء بيته وحقله، ولا أن هتكت أستارًا وأعراضًا، لتغنمي عروضًا وأعراضًا، بلى كنت من خير من عطف وعلى مدحور ومظلوم، وأكرم مثوى وافد مقهور مغمور، وعلم طالب علم وصناعة تعليمًا مجردًا من النزعات المذهبية والنزغات السياسية، ومسلاة كل متعب راغب في التفرغ لنفسه، لقنت الأمم معنى الحكومة الصالحة في الأمة الصالحة، وحققت بالعمل معنى تضامنك في شعارك (الواحد للكل والكل للواحد) فحكمت نفسك بنفسك حقًّا وصدقًا، لا كذبًا ورياءً.

هذه الوجوه النضرة التي تهش للغريب، كما تهش للقريب، هي صورة صحيحة من أخلاق هذا الشعب القليل بعدده، الكثير بفضائله وعدده، فإن كان هنا لا يتجاوز إحصاء المكين، أربعة ملايين، ولا مساحة المكان ٤١٣٤٦ كيلو مترًا مربعًا، فلكم كان القليل العالم، خيرًا من الكثير الجاهل وعظمة الأمم بعلمها وعملها. لا بوفرة سكانها وطول سهلها وجبلها: سويسرا تفاخر وحق لها الفخر بأنها اليوم لا تعرف الأميين إلا بما تقرأه

عنهم في صحف العالمين. فهل عهد مثل هذا النور لأمة في القدماء أو المحدثين.

يخيل للناظر أن هذه البلاد الواقعة بين أربع ممالك راقية فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا قد أخذت من هذه المدنيات الأربع أطايبها، ولعله لا يخطيء من قال إن هذه الممالك أخذت كثيرًا من أطايب ما عند سويسرا، فجاءت هلفسيا أو سويسرا مجموعة الإبداع في البقاع والأصقاع، وسلسلة مفرغة في المحاسن لا يعرف أين طرفاها، تقاسمت القرى مع المدن، والأودية مع الجبال، آثار الجمال والكمال فعز لها قسيم في استهواء القلوب بين هذه الديارات، بل بين الخمس من القارات وما ظرف عمران الألمانيين والفرنساويين والإيطاليين والنمساويين، إذا قيس بظرف بلاد السويسريين إلا كالنضارة في خدود فتاة العشرين، في جنب نضارة ابنة الأربعين.

لا جرم أن هذه الجمهورية الرشيدة هي التي وصفها للناس أفلاطون وروسو فكانت بما وفقت إليه، ممَّا يضعف الفصحاء عن توفيتها حقها من الاستحسان، وذكر المجردات لا يقنع بقدر الإدلاء بالحجة، ولذا نقتصر على طرف ممَّا عرفناه وعرفه غيرنا عنها. كوصف حياتها القومية والروحية والعلمية والاقتصادية عسى أن يثمر ذلك فائدة لمستفيد وعبرة لمعتبر في شرقنا المتخدر الأعصاب، منذ أحقاب الذي كادت تدمع لحاله عيون الأعداء، بعد أن أدمى مقل الأحباب.

سويسرا الأفراد والأسرة
٥٤

أول ما يبده الداخل إلى أرض سويسرا: الخضرة والنظافة. فإنها كلها أشبه بحديقة في وسطها مصايف من أجمل ما بنى المهندسون ونقش النقاشون وصور المصورون الدور على اختلاف هندستها سواء كانت بيضاء كما هي في سويسرا الفرنساوية أو منقوشة كما هي في الشمال الشرقي أو من الخشب على ما تراها في أوبرلاند تفيض بهجة ونضرة ونظافة وزينة وتبدو على الدوام جديدة حتى ولو كانت مبنية منذ قرنين أو ثلاثة. والغربيون مولعون بإبقاء القصور القديمة مهما كانت ويؤثرونها على الجديد من نوعها. وداخل البيوت على مثال خارجها في الحسن حذو القذة بالقذة.

أدخل الفنادق الكبيرة أو الصغيرة وإلى منازل الطبقة العليا أو الفلاحين، وإلى قصور الأغنياء أو المقترين. تجدها كلها متناسقة بنظافتها، وتشهد المساكن والمخازن على هذا الطرز في الصباح والمساء على السواء، وما أنس لا أنس تلك النظافة التي شهدتها في المنزل الذي حللت فيه في مدينة لوزان المطل على بحيرة ليمان ومن ورائها جبال الألب وذلك منذ تدخل الدهليز فتصعد الدرج، إلى أن تدخل المنزل، وتجلس في غرفتك. إلى المائدة، إلى الطعام المنوع المستطاب. إلى أحقر شيء في الدار.

ولقد كنت أعجب كل يوم من رؤية الخادمة تمسح البلاط والدف في الأرض والنوافذ والدرفات وتنفض الستور والأغشية والكراسي والمقاعد والخزائن والمناضد والزروع الموضوعة في الأصاصي دع التحف

والصور والتماثيل الصغيرة ومصابيح الكهرباء وغير ذلك ممَّا لا تخلو منه دار في الجملة، كل هذا مع خدمة المطبخ والمائدة وبعض ما يلزم من السوق تقوم به خادمة واحدة وليس هذا الحال خاصًّا بالبيوت والفنادق فقط بل إنك تراه في الشوارع والأزقة على صورة مكبرة فإن الأوساخ الخفيفة لا تلبث أن تطرح حتى تكتسح وكذلك الثلج لا يلبث أن يتساقط ٢٠ سنتيمترًا وأكثر إلا ويرفع من الطرق، وكل شارع وجادة وساحة وسوق ينظف ويغسل بلا أمهال بحيث تصح هنا حكمة الغرب: (النظافة أثر من آثار النظام والعمل) والشعوب النظيفة هي التي تحب أن ترى كل شيء في مكانه تقاسي ضيقًا حقيقيًّا بل ألمًا مبرحًا إذا شاهدت الخلل ليست النظافة ابنة الكسل لأنها تستوجب من الأفراد والحكومة عملًا وجهادًا متواصلًا ويستدعي أن تحث عليه الحكومة المحكوم عليهم كما هو الحال في سويسرا فإن بلدياتها تنفق عن سعة لتجعل البلاد في هذه الحالة من النظافة التي تعجب لها أرقى أمم الحضارة دع شرقيًّا لا يكاد يقع نظره في بلاده إلا على أقذار في الشوارع والساحات والحارات بل في البيوت والحوانيت وخللًا في كل شأن من شؤون الحياة الراقية.

وكان من أثر هذه المفاداة التي فادت بها بلديات سويسرا في منصرفياتها أو مديرياتها الاثنين والعشرين تحسين الصحة العامة واستجلاب السياح وأحسن معلم لبث أفكار النظام والوقار والرفاهية.

تتبارى الحكومات والمديريات والإدارات الخاصة والعامة في مضمار النظافة فتجد أقفاصًا من أسلاك لطيفة موضوعة في المدن في كل شارع وحديقة لتوضع فيها القشور أو الأوراق وربما سار الواحد عدة أمتار حتى يرى تلك السلة المعلقة فيضع فيها ما بيده من الفضلات الخفيفة، وذلك لأن كل سويسري لا يحب أن يرى متنزهه وشارعه وحيه إلا كما يرى بيته طاهرًا نقيًّا ليس فيه ما ينبو عنه النظر. وكيفما انقلبت في

سويسرا في القطارات أو المراكب في المحطات والإدارات تشاهد النظافة المجسمة كأن هذه الخاصية صفة من صفات الأمة السويسرية. وربما نسى الغريب أن يضع ما استغنى عنه من الورق أو غيره فيشير إليه الأهلون بوضعها في محلها بل إن المفتش في القطار لا يستنكف أن يرفع أوراقًا تتساقط من ركاب قد يكونون في الأكثر غرباء لا يعرفون درجة غلو السويسريين في النظافة في كل شيء.

ما كانت النظافة في فطرة السويسريين أو جنسهم بل هي كسبية وثمرة تربية طويلة ومدنية باهرة. ولا جدال في أنهم بنظافتهم أرقى من سكان الجنوب والغرب أي من الطليان والفرنسيس نعم ما كانوا أمس كما هم اليوم و الدليل على ذلك أن من البلاد السويسرية ما لم يبلغ حتى الآن درجة كافية من النظافة كما يحب السويسريون ولا سيما البلاد التي لا يقصدها السياح وليس فيها فنادق مثل بعض محال من مقاطعة الفالي والكريزون والرينتال، وهي إذا قيست بمقاطعات زوريخ وفو واوبرلاند فقياسها مع الفارق ولا يزال في المدن العظمى مثل لوزان وجنيف وزوريخ أحياء قليلة على شيء من الوساخة بالنسبة لمجموع البلاد ولكن مثل هذه الأحياء تهدم الواحد بعد الآخر والقرى تطهر بأسرع ما يمكن وهي نموذج ممَّا كانت عليه سويسرا قبل خمسين أو مائة سنة فاستطاع أهلها بالتربية أن يحرزوا فضيلة النظافة التي أصبحوا فيها قدوة الأمم الراقية.

تساءل الباحثون في حال هذه الأمة فيما إذا كان للدين تأثير في نظافة السويسريين والراجح من آرائهم على ما ذكره البردوزا في كتابه (سويسرا الحديثة)[1] أن الدين أثر بالواسطة لا مباشرة وأن للتربية العملية المقام

(١) سويسرا الحديثة لالبردوزا Albert Danzal: La Suisse Moderne

الأول. فالمقاطعات التي سبقت غيرها في مضمار العلم وأحب أهلها النظام وتفانوا في المحافظة عليه كالمقاطعات الألمانية في الشمال وأهلها بروتستانت هي أكثر نظافة من مقاطعات الجنوب أي الفالي والتسين والكريزون وأهلها كاثوليك وذلك لأن سكان هذه إيطاليون والإيطاليون جاؤوا متأخرين بالنظافة عن الألمان وكذلك في التعليم. ومع هذا نرى من مقاطعات الشمال مقاطعتي الفو ونوشاتل وهما من جنس فرنساوي لا تقلان في النظافة عن مقاطعتي زوريخ وبرن الألمانيتين.

ومهما يكن من أصول السويسريين ألمانًا كانوا أو إفرنسيسًا أو إيطاليين فإن سويسرا أشبه بفسيفساء من الشعوب والعناصر تلاقت وامتزجت وتعاشرت لا تفرق بينهم إلا اللغة وقد اختلطت دماؤهم اختلاط الماء بالراح كما ترى من سحناتهم فإن أهالي مقاطعتي الفو وفريبورغ وإن كانوا فرنسويين بلغتهم فالسحنات الألمانية غالبة عليهم وكذلك ترى في بعض المقاطعات الألمانية التي تتكلم باللغة الجرمانية أيضًا منذ عشرة قرون ملامح السلتيين والريتيين من قدماء الرومان

نشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية ووطنية سويسرية وذلك بامتزاج الفكر الجرماني بالفكر اللاتيني فأخذ السويسري عن الألماني صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في الماديات و الحقائق واقتبس من العنصر اللاتيني تقاليد البشاشة والأدب وجودة الحكم وحسن التقليد والظرف والرأي الديني في ابن مقاطعة تسين لا يماثل الرأي الديني في ابن مقاطعة لوسرن وإن كان كلاهما يدين بالكثلكة. والسويسريون الألمان أشد نظامًا من السويسريين الفرنسويين ويغالي الأولون بالأكثر في توطيد سلطة الحكومة وتوسيع اختصاصها وتراهم مولعين بتقاليدهم مرتبطين بعاداتهم القديمة وحرياتهم

المحلية وخصائصهم على العكس في السويسريين الفرنسويين فإن هذه الصفات تبدو فيهم بمظهر آخر

والسويسري على اختلاف أصوله ولغته إفرنسيًا كان أو ألمانيًا قليل الفضول لا يسألك في الفندق ولا في الشارع إذا تعرفت إليه عن مقاصدك ولا يتتبع عوراتك ولا يسألك أسئلة لا تحب أن تجيب عليها على العكس في السويسري الإيطالي وهو ساكن في الجنوب طبعًا فإنه يملل نزيله وصاحبه بأسئلته، ومن ترك الناس وشأنهم في هذه البلاد نشأ في أمم أوربا وأميركا حسن الظن بالسويسريين. فاختاروا سويسرا مصيفًا ومشتًى لأن من تلك الأمم ولا سيما الشعوب الانكلوسكسونية من لا يحب أن يسمعك صوته فصلًا عن أن يطعلك على عجره وبجره.

وهذا الخلق سري للحكومة وهي وقانونها صورة من صور الشعب. أكتب هذا عن لوزان وقد مضى علي فيها خمسة عشر يومًا وأنا لم أر سوى ثلاثة أو أربعة من رجال الشرطة بالعرض أقامتهم المديرية بداعي الأعياد فقط ولم أر سوى جندي واحد، هذا والمدينة لا تقل نفوسها عن سبعين ألفًا وفيها على الأقل عشرون ألف غريب.

هذه هي الجمهورية السعيدة التي أسسها ثلاثة فلاحين منذ عشرة قرون قد بلغت بالعلم والتربية هذا المبلغ من الرقي. وإن أكثر ما يقع في هذه الديار من الحوادث مثل السرقة والسكر والعربدة التي لا تخلو منها أرض لا يكون على ما رأيت من أنباء الصحف إلا من بعض الغرباء وأكثرهم من الطليان والأروام. فبوركت بلاد هذا حالها.

سويسرا النساء والرجال

٥٥

السويسري كالإيطالي والألماني والإنكليزي كثير الولد والذرية وأولاده لا يعدون بالزوج بل بالعقد وبلغني أنه ولد لأحدهم من زوجة واحدة ثلاثون ولدًا (فقط لا غير) أما الأزواج الذين رزقوا العشرة والخمسة عشر ولدًا فهؤلاء أكثر من أن يحصوا فأولاد السويسريين كالبيض أو البرتقال يعدون بالخمسات والعشرات. وترى الأبوين لا يدهشان لكثرة نسلهما فإنهما في الأغلب يلبسانهم ولاسيما في القرى البسة بسيطة للغاية لا تختلف في الصيف عن الشتاء كثيرًا ويطعمانهم ما حضر من الطعام وأكثره يدور على اللبن والحليب والبيض والجبن والخبز الأسمر وقد لا يطعمانهم اللحم إلا قليلًا أمَّا الخمور فهذه لا تكاد تعرف لأنها محتكرة للحكومة وأثمانها فاحشة لا يصل الفقير إليها وليست كل المقاطعات ممَّا تجود فيها الكرمة.

يلعب الأولاد حول أمهم وفي الحقل حتى السابعة من عمرهم ثم يذهبون إلى المدرسة وعندئذ يقل لعبهم حتى إن ابنة العاشرة أو الثانية عشرة تعمل أعمالًا من الخدمة وتحصيل المال يعجز عنها ابن العشرين أو الثلاثين في شرقنا. فتراها من المدرسة إلى النزل تخدم في الأوقات المتيسرة لها إلى تربية أخيها أو أختها وتعهده إلى بيت فلان تغسل لهم الأواني أو غير ذلك.

والحكومة تحول دون الأولاد وما يشتهون أحيانًا فإن أكثر الحدائق العامة لا يستطيع الأولاد أن يدخلوها إذا كانوا دون الخامسة عشرة إلا إذا كانوا مع كبير من أهلهم يسأل عن حركاتهم وسكناتهم وفي بعض

المقاطعات يحرم على الفتى أو الفتاة دون الخامسة عشرة أن يخرجا إلى الشارع بعد الساعة السابعة ليلًا وفي أخرى لا يحضر الولد بعض المسارح والصور المتحركة بل إن له مسارح ومشاهد غير ما للبالغين.

انتشر فكر الأسرة كثيرًا في سويسرا وذلك بتداخل الحكومة أيضًا التي جعلت في جملة المرغبات في الزواج إعفاء المواريث من كل رسم إذا انتقلت إلى وارث حقيقي مباشرة كالابن ونحوه وأما إذا كانت تنتقل إلى الأباعد فإنه يدفع عنها رسم فاحش للحكومة.

وبينا ترى الحياة الصناعية في أوربا بأسرها قد عاقت كثيرًا عن تأليف الأسرات وتأسيس البيوت ترى سويسرا كلما زادت حركتها الصناعية تتكاثر في ربوعها البيوت وذلك بأن العامل أو العاملة يعمل في داره ما يعرفه من أنواع الصنائع كعمل الساعات والتطريز والنقش على الخشب وغير ذلك. فابن القرى يعمل وهو في بيته ولا ينقطع عن عمله الزراعي طول السنة وقد حال ذلك دون كثير من أبناء القرى عن غشيان المدن والسكنى بها وأقفار الأرياف. فإن خلو الدساكر من سكانها هو من أول أسباب الخراب كما هو حاصل في الشام من الهجرة إلى أميركا مباشرة وكما هو كذلك في فرنسا في الهجرة من قراها إلى مدنها والخطب أسهل.

نعم تعمل هنا المرأة والفتاة في قريتها ما تحسنه من الصناعات في المعمل أو في بيتها بدون أن تنقطع عن محيطها وأسرتها وأن تتخلى عن تدبير منزلها والمرأة السويسرية مشتهرة بأنها لا تحب الظهور كل ساعة للناس وهي مخلصة صالحة على الجملة تؤثر تعهد عملها وبيتها على كل شيء وتفكر كثيرًا بحيث إن السفاسف والزينة لا تشغل من قلبها مكانًا

فهي امراة منزل وعمل تهتم لبيتها اهتمامًا غريبًا وتظهر حبها للنظام حتى في عواطفها.

ما من بلد في الأرض ساوت فيه المرأة الرجل كما هي في سويسرا فهي قرينته في عمله وشريكته حقيقة وهذا ناشئ ولا شك من تربية المرأة على العمل وحبه وقد بلغ سنة ١٩٠٠ عدد السويسريات اللائي يعملن في الصناعات المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية وصناعات حرة ١,٥٧٥,٠٠٠ امرأة. هذا في شعب هو أقل من أربعة ملايين فإذا فرضنا أن النساء ١٩٠٠٠٠٠ في سويسرا وأخرجنا منهن العاجزات وصغار البنات لا يبقى إلا عدد أقل من القليل غير عامل من النساء السويسريات فالمرأة العطلة عن العمل ليست بضاعة سويسرية والعاملات من النساء على نسبة العاملين من الرجال وقد أحرزن منذ زمن طويل الحق بأن يكون منهن الطبيبات والمحاميات أمَّا حقوق الانتخاب ومشاركة الرجال فيها فإنها قلمَّا تهمهن ولذلك كان النساء في التجارة والصناعات الحرة أكثر من الرجال. قال لنا رئيس تحرير جريدة (غازت دي لوزان) إن الناس هنا يعملون مهما كانوا أغنياء ولا تكاد ترى عشرة في مدينة لوزان لا عمل لهم على كثرة أغنيائها وأرباب الأملاك فيها.

الأخلاق هنا في الجملة قاسية والحياة بالغة حد النظام والناس كلهم يعملون ولذلك تقل البواعث على التبذل والخلاعة وحب الشهوات لأن ذلك يستدعي أوقات فراغ والفراغ لا يعرفه السويسريون والسويسريات. ثم إن المناخ لا يساعد على الخروج كل ساعة بل بالعكس ممَّا يحمل على الرغبة في الحياة البيتية. وسويسرا مثل هولاندة أقل البلاد الأوربية التي يولد فيها أولاد غير شرعيين فهي من هذه الوجهة أقل من ألمانيا ثلاث مرات. وسبب قلة العهر العمل بلا شك لأن رأس البطال معمل الشيطان.

متى تزوجت المرأة السويسرية تصح عشيرة الرجل حقًا فهي يوم الأحد تذهب وإياه إلى الكنيسة وفي المساء إلى القهوة. والسويسري يجد في عطلة الأحد أحسن فرصة له لأنه يتخلى عن عمله فلا يطلب من أسباب السرور إلا أن يكون مع أهل بيته ويقل اختلاط الشبان والشواب في أوقات الفراغ حتى يوم الأحد اللهم إلا في الأعياد السنوية النادرة التي تقام فيها مراقص. ويذهب الشبان أيام الآحاد إلى الكنائس ولا سيما البرتستانت منهم وبعد الظهر يذهبون عصابات يتمرنون على الرماية ولعب الكرة ويغنون ويعربدون قليلًا ولكنهم يوم الاثنين في الساعة المعينة تقرأ الرزانة في وجوههم ويعود كل رجل يستعيد مركزه في الحياة الاجتماعية.

تذهب الأسرات مساء الأحد ولا سيما في سويسرا الألمانية إلى أحد الفنادق أو القهوات فترى الأمهات والنساء والأخوات جالسات إلى منضدة بالقرب من أبنائهن أو أخواتهن أو أزواجهن يشربون جعة وقهوة وقليلًا جدًا من المشروبات الروحية والرجال يدخنون وربما غنى الحضور ولكن أغاني وطنية حماسية فيها ذكر الله واحترام المرأة ومدح جمال الجبال وحياة الفلاة وربما غنوا أغاني هزلية أدبية ولكن لا غرام فيها ولا عشق.

المرأة السويسرية قد يعالجها الهرم في الغالب أكثر من غيرها من النساء المرفهات في أوربا الغربية والوسطى ولكن هرمها يزيد في عقلها ويبقي قلبها على نضارته وأخلاقها على سذاجتها. والسذاجة خلق من أخلاق السويسريين والسويسريات والسويسري وسط بين حرية الغالي (الفرنساوي) ورصانة الإنكليزي. ولئن كانت كتب الرقاعة والخلاعة لا محل لها من الإعراب في جملة حال السويسري فهو مع ذلك لا يخامره ريب في صحة أخلاق بناته وزوجته ويعرف أن اختلاطهن إذا اقتضى

الحال بالرجال والخلوة بهم أو رؤية التماثيل المعراة في المتاحف وعلى قارعات الطريق ممَّا لا يلقي أدنى اضطراب في عفتهن. ومن لم يكن له من نفسه وازع لا تحول الحواجز والأستار بينه وبين ارتكاب الرذائل.

سويسرا: الصفات الاجتماعية

٥٦

أول ما يبده المسافر في سويسرا ضبط المواعيد فإن السكك الحديدية كما هي في أكثر بلاد العالم المتمدن لا تتأخر ولا تتقدم دقيقة عن ميعادها والقطارات تسير الهوينا في أصقاعها كأنها هي أيضًا تحب أن تمتع نواظرها بمناظر سويسرا البديعة فالسكك الحديدية هنا كسائر الأعمال تسير عجلة في بطء ولا حاجة لأن يعجل المرء هنا في المبادرة إلى المحطة لأن العالم كلهم مدققون في أوقاتهم ومتى كانوا كذلك بورك لهم فيها.

الصلابة والثبات صفتان لازمتان للسويسري وقد كان المشهور أن الفرنسويين أكثر الأمم اقتصادًا ولكن ظهر أن السويسريين يفوقونهم فإنهم أول أمة أوربية تحسن استخدام أموالها ويليها الأمم السكاندينافية وقد تجاوز ما وضعه ١,٣٠٠,٠٠٠ من السكان في صناديق التوفير مليار فرنك فيصيب الفرد ثمانمائة فرنك وهذا ممَّا لا يكاد يكون له نظير: ثلث الأمة تقتصد وتجمع المال الذي لا تحتاج إليه.

لا تردد في أخلاق السويسري يقبل الجديد ولا يخون القديم فهو إما أن يقول نعم أو لا. ليتمثل لك ذلك في المشاريع واللوائح التي توضع ويسن ممَّا يقتضي تنفيذه عند غيرهم سنين. أما هنا فإذا أريد القيام بعمل تبدأ الصحف بإعداد الأفكار له وتلقي المحاضرات فيضع أحد النواب أو

الحكومة مشروع القانون الجديد وإذا اقتضى الحال تصدق عليه الأمة ويخضع له كل الناس وإذا وضع قانون ولم ينفذ فالسويسري يصر على العمل به بدون ملل مثال ذلك بعض السكك الحديدية الجديدة فإن من الخطوط ما يمد في عشرين سنة ولا يكون طوله أكثر من عشرين كيلو مترًا ومع هذا فقد تفتح كل سنة محطة جديدة منه ولكن الخط ينتهي في الآخر.

إذا كان السويسريون عنودين فذلك لأنهم عمليون لا نظريون في أعمالهم قلمًا يطيرون وراءالخيالات. وقديمًا نبغ في السويسريين فلاسفة أمثال جان جاك روسو الذي ولد في جنيف أمًا اليوم فلم تنشأ لهم مثل تلك الطبقة بل ينشأ لهم أهل عمل أقرب إلى الحقائق متشبعين بالحق عارفين المداخل والمخارج فخلف رجال الأعمال رجال الخيال.

امتاز السويسريون بالصناعات فاستفادوا من ذلك فوائد جمة في بلاد شحيحة بخيراتها صعبة المراس بطبيعتها والاقتصار على الزراعة فيها لا تسير به الحركة الاقتصادية على محورها. فليس فيها فحم حجري ولا معادن للصناعة ولا شواطئ بحرية ولا أنهار عظمى للتجارة بل فيها عقاب من جبال صعبة المرتقى أقيمت على التخوم في الجنوب والشرق والشمال وربعها غير صالح للزراعة لأنه مألف الثلوج والجليد طول السنة أو صخور لا ترتقي وتربة قاحلة وثلثها صالح للغابات والشتاء يطول ويشتد في بعض مقاطعاتها ويغمرها بالثلوج برمتها وبحيرات هي كالخال في عنق ذات الجمال والدلال ولكن الإنسان العاقل يغلب الطبيعة أو يعرف كيف يستخدمها فإن تلك الحواجز الجبلية قد خرقتها السكك الحديدية بحيث إن سويسرا بعد أن كانت تحول دون الاتصال بين فرنسا والنمسا وبين إيطاليا وألمانيا أصبحت الصلة اللازمة بينها شق القطار جميع الأصقاع وتسلل بخطوطه المنوعة حتى الاصقاع البعيدة عن

التركيب الاجتماعي يحمل إليها مائية الحياة الاقتصادية. ورشاشة من بحر المدنية واستعاضت سويسرا عن الفحم الحجري الأسود بما عندها من الفحم الأبيض وأحسنت ضبط المياه فدورت بها المعامل والمواد الأولية تجلب من الخارج ولكنها تعود بأرباح فائقة فإن ثلاثة أرباع صادراتها هي من حاصلات بدلت فيها اليد السويسرية وغيرت مثل القطن والحرير والشكولاتا وأنواع المطرزات والساعات

أحسنوا هنا استخدام جميع التربة الصاحلة للزراعة على أحدث الطرق الزراعية المنوعة فوفرت كرومها ومراعيها وكثرت فيها تربية البقر بما يلحقه من اللبن والزبدة والجبن حتى إن بعض مقاطعاتها الشرقية تبلغ حاصلاتها ٨٠ في المئة من البقر وما يشتق منه والثلوج والجمد والصخور والشقيف كانت من المعونات على الاستكثار من إقامة الفنادق والإنزال ليأوي إليها السياح الذين ملوا من رؤية الحضارة ويريدون أن يرجعوا شهرًا أو شهرين إلى الطبيعة فليس في سويسرا حيوانها وجمادها وإنسانها شيء لم يحسن استخدامه ويجر في سبيله

السويسريون عمليون في حياتهم الخاصة وهم كذلك في حياتهم العامة فلا تجد في الممالك مكاتب أشغال تنظر إلى الجواهر لا إلى العرض مثل مكاتبهم ولا إدارات أقل تشبثًا بالأعمال القرطاسية من إداراتهم. فهم في هذا الباب يصلحون أساتذة للفرنسيس والطليان والألمان. دخلت كثيرًا من المصارف والبيوت المالية في مصر والشام وباريز ورومية فلم أشهد لمصارف سويسرا تلك الدهشة التي يتلقى بها الغريب الوافد عليهم ولا ذاك التطويل الممل الذي يشاهد في مصارف الشرق والغرب على الغالب وهكذا هم في كل أعمالهم الاشتراكية الاجتماعية. ومن أغرب ما يسمع أن مدينة بال ارتأت أن تستوفي الضرائب من الأهلين في بطاقات بريدية فتم هذا العمل في أسرع ما

يمكن ولم ينتظر المكلف في شباك البريد أكثر من عشر دقائق فاحتذى هذا المثال كثير من المدن السويسرية تخفيفًا من أجور الجباة وتيسيرًا على الناس.

اختار السويسريون السهولة حتى في أصول التعليم في مدارسهم فلا يخرجون اليوم من ست كليات راقية لهم سوى رجال أعمال لا رجال آمال وخيال يخرجون رجل الغد على ما ينبغي له في جهاد الحياة فيتخرج من مدارسهم قليل من العلماء والأدباء وكثير من الزراع والتجار والعاملين. يعلمون أمورًا تنفع الطالب في الحال ويلقنونه العمليات وحب الأعمال المنتجة. يرى السويسريون الآن في الأمة كثيرًا من المخترعين المتوسطين والمتفننين الجائعين والكتاب الذين لا قرائح لهم وكلهم لا فائدة منهم ولكن البقال والصانع وموظف السكة الحديدية وإن كان متوسطًا أفيد للحياة الاجتماعية من شاعر شقي لا ينتفع به في شيء.

ولذلك ترى الكليات تطبق علومها على حسب أقطارها فكلية بال مثلًا يتفنن أساتذتها في تعليم الطلاب حسن استخدام الألوان في كل أبحاثهم الكيماوية لأن البلاد صناعية ولكليتي زوريخ وفريبورغ فرعان تجاريان ولكل فروع التعليم مقام محمود للتعليم الصناعي في سويسرا يوافق ضروريات الحياة والمصالح في كل مقاطعة فالمدارس الزراعية منوعة وهي مرتبطة بالمديريات مثل المعارف العمومية ولكن حكومة الاتحاد السويسري تمنحها إعانات كثيرة تقوم بحاجتها وفي سويسرا مدارس نظرية وعملية زراعية ومدارس زراعية للشتاء ومدارس لتربية الكرمة ومدارس لاستدرار الألبان وغير ذلك وفيها كثير من المدارس التجارية للمديريات أو للبلديات ونقيم شركة التجار السويسرية كثيرًا من الدروس التجارية ولكثير من المدارس الوسطى فروع تجارية هذا عدا

المدارس الخاصة مثل مدارس الساعات ومدارس التطريز ومدارس الفنادق ومدارس تدبير المنزل.

بين تلك الجبال الصعبة الخطرة رسولة الشتاء الطويل التي لا يستطيع فيها المرء بمفرده أن يعمل ما يقاوم الطبيعة التي لا تشفق أحس السويسري بضرورة التضامن وشعر بالحاجة إلى التساند والعمل يدًا واحدة وترتيب الجهاد على ما يجب الجبلي قاس وفطري وهو كريم المثوى وإقراء الضيف سنة قديمة عند السويسريين كما هي عند الايكوسيين في إنكلترا أو العرب في بلادهم ولا تزال هذه السنة إلى اليوم كما كانت أمس ولكن الأجيال الجديدة مالت إلى الحقائق أكثر من أجدادها فاخترعوا من الضيافة صناعة وهي صناعة الفنادق والإنزال.

وربما يبلغ التضامن عند أمة ما بلغه عند السويسريين فإن حركة جمعيات التعاون والشركات والنقابات أكبر دليل على رسوخ عادة الاجتماع في عقول السويسريين منذ أحقاب فالنقابات الصناعية استعادت تقاليد الأخويات القديمة حتى ارتبط المستخدمون والتجار والصناع والزراع في سويسرا بنقابات لا ليكون من أثرها ضرر على المجموع من مثل الاعتصابات والإضراب عن العمل بل ليكون منها عموم النفع والشركات المحلية متحدة كل مديرية بمديريتها ثم ترتبط مديريات البلاد كلها وهذا في جماعات العملة والمعلمين. وأصحاب الفنادق بل المطاهي متحدة بعضها مع بعض وما الحكومة السويسرية إذا نظرنا إليها من حيث المجموع إلا اتحاد واسع من النقابات السياسية.

لا تزال بقايا الملك المشترك الذي كان معروفًا في القرون الوسطى في الغرب ولم يبرح معروفًا بعضه في الشرق قائمة على أتمها ولا سيما في الأصقاع التي بقيت على فطرتها فإن السكان إلى الآن في وادي

انيفرس يحلبون الأبقار بالاشتراك ولكل الحق على نسبة ملكه في حصته من اللبن والزبدة والجبن ولم ترتفع من ذلك خلال عشرين سنة سوى شكويين وكثيرًا ستكون بقرة أو بغل أو بيت مشاعًا بين عدة مالكين وكثير من المراعي الجبلية هي أملاك بعض رؤساء الأسر وفي كل قرية تملك الأسرة بيتًا خاصًا أو مشاعًا بين أهلها.

وصناعة الجبن في أكثر بلاد سويسرا تقوم بأيدي شركات مرتبطة بجماعات المستخرجين للحين وفي مقاطعة الفالي حيث تقل المياه تروى البلاد بأقنية جلبت مياهها من بعيد على مسافة ٤٨ كيلو مترًا وكل قناة عملت وأديرت على يد جماعة من أرباب الأملاك ينتخب رئيس شركتها أصحاب الأراضي التي هي آخذة بالتقسيم والتجزئة.

وبعد فإذا كان الشعور بالتضامن العملي والنظري هو على أتمه في سويسرا فإن الفكر الوطني والنظام الاختياري والضمير الإفرادي المشاهد في أخلاق الوطني السويسري جدير بالإعجاب من كل وجه فالسويسري يعرف واجبه نحو المجتمع والحكومة ويخالف في ذلك الشعوب اللاتينية التي تحب الخلاف بفطرتها والشعب الألماني الذي يخنع للسلطة إدارية وعسكرية على صورة غريبة وذلك بإطاعته الرؤساء طاعة عمياء والخضوع لأوامر الإمبراطور ولكن الوطني السويسري يخضع لنفسه ويرضى بنظام ارتضاه بحريته. والفكر الوطني في سويسرا الألمانية أشد منه في سويسرا اللاتينية وإن كانتا في وطنيتهما في الحقيقة كأسنان المشط في الاستواء. وسويسرا الفرنساوية هي مديريات نوشاتل وفريبورغ وجنيف ولوزان، وسويسرا الإيطالية مقاطعتا التسين والغريزون وما عدا هذه الست مديريات أي الأربع عشرة مديرية فهي ألمانية.

السويسري الألماني خصوصًا لا يستنكف من أن يشكو كل من يخالف الأمر والنظام لأن لكل شاك الحق بنصف الغرامة وقليل جدًا من يشتكي منهم ولذا فليس من العبث ما تقرأه على المنعطفات وفي مداخل الحدائق والمتنزهات من الكتابات بحروف غليظة لجعلها تحت ملاحظة الجمهور ومعاونة الوطنيين فإن هؤلاء قد عرفوا منزلتهم من بلادهم وما ينالهم من شرفها وما وضعته فيهم حكومتهم من الثقة فلا يريدون بحال أن يشوهوا وجوه مرافقهم ومتنزهاتهم وجناتهم بل يعملون بما فيه حفظها على ما يستلزمه حبهم لبلادهم وإعجابهم بها. ورجال الإدارة يجتهدون أن يعلموا الشعب وأن يؤهلوه ليخدم نفسه بنفسه بدلًا من أن يعتبروه ولدًا يجب على الدوام الأخذ بيده وقيادته ولهذا أمثال كثيرة تعد بالعشرات ممَّا لا مثيل له عند الأمم الأخرى.

وندر جدًا في السويسريين من يستحلون أكل مال خزينة الأمة أي أن يخفوا عن الحكومة ما يحق لها أخذ رسوم وضرائب منه ولا سيما في سويسرا الألمانية وإن كان بعض أرباب الغايات وهم لا تخلو منهم أمة مهما طهرت نفسها قد يقفون عثرة أحيانًا في سبيل بعض الأعمال كما وقف بعضهم سنة ١٨٨٦ لما أرادت الحكومة احتكار الالكحول ووقفوا سنة ١٩٠٧ لما أرادت منع شراب الابسنت المضر ولكن انتصر حزب الحق وجرى احتكار الالكحول ومنع الابسنت بالأكثرية وحسنت صحة البلاد.

لا جرم أن هذا الشعب الذي صورنا هنا بعض صفاته الاجتماعية هو شعب عظيم فإن من يضرب صفحًا عن شهواته المادية لنفع المصلحة العامة ومن يفادي براحته وحب ذاته وهو راض ساكن باسم لأجل مصلحة وطنه يعد من الشعوب التي تحيا حياة طيبة. اللهم إني أحسد الشعب السويسري حسد غبطة على هذه الأخلاق الفاضلة وأطلب إليك

أن ترزق شرقنا المسكين مثلها حتى لا يموت بفساد أخلاقه وقلة علمه ميتة جاهلية وقد خسر الدنيا والآخرة.

سويسرا: قيودها في الحرية
٥٧

منذ قام الهلفسيون وكانوا يسكنون في شمالي سويسرا الألمانية الحالية أي في أرض ألمانيا وانضموا نحو القرن الأول قبل المسيح إلى التوتونيين والسميريين وهم مثلهم يحبون الغزو والغارة وأخلاق الحرية تبدو على هذا الشعب الهلفسي الذي سميت سويسرا باسمه (هلفسيًا)- رضع هذا الخلق مع لبن أجداده وتسلسل فيه على اختلاف القرون وما كان أشراف القرون الخالية ولا حكومة الرومان التي استولت على سويسرا نحو خمسة قرون ولا النمسا بعد ولا الأساقفة ورجال الدين وكانوا هم الحاكمين في كثير من بلاد أوربا ولا دوجات ميلانو وسافوا وبورغونيا ممن حكموا سويسرا يستطيعون أن يشددوا الوطأة على السويسريين لأنهم أشداء من وراء النشأة الجبلية متضامنون بينهم إخوان في السراء والضراء.

من قرأ تاريخ سويسرا يعجب من صبر السويسري ويرى أن حروبه حتى زمن القسوة كانت لطيفة وكثيرًا ما كان السويسريون يردون غارات جيرانهم بتفزيعهم وتشتيتهم فقط أو بأمطارهم الأحجار من الأعالي أو إلقائهم في البحيرات إرهابًا وما أظن أنه سبق في التاريخ أن محاربًا يجيء معتديًا على بلد ويحاصرها ثلاثة أشهر ويضيق خناقها ثم تخدم المحصورين الأقدار ويفيض نهر فيحمل حسرًا عليه كمية من عسكر عدوهم فيتركون الحصار ويأخذون بإنقاذ الغرقى كما وقع لمدينة سولور

السويسرية فإن صاحب النمسا حاصرها لتخضع له وهي مستقلة ثلاثة أشهر فطاف نهر الآر وحمل طائفة من جنده فبدلًا من أن يغتنم المحصورون هذه الفرصة تنادوا لمساعدة الغرقى فأنقذوا منهم عددًا كثيرًا فلمَّا رأى الملك ليوبولد من السلوريين هذه الشهامة تأثر جدًّا وعقد معهم الصلح ورفع عنهم الحصار وكان ذلك في القرن الرابع عشر.

تعلم الهفلسيون الاحتفاظ بحقوقهم والاعتياد على الشورى وحكم أنفسهم بأنفسهم وكره الملوك منذ قال زعيمهم ديفيكو ليوليوس قيصر عامل الرومان تلك الجملة البديعة وقد أراد أن يعقد معه صلحًا فطلب قيصر إلى الهلفسيين رهائن فقال ديفيكو. (تريد رهائن وقد علمنا آباؤنا أن نأخذها الا أن نعطيها وكان على الرومان أن يذكروا ذلك). ولكنك ترى اليوم هذه الأمة مع ما بلغته من الحرية التي لم تعهد لغيرها تتساهل بحقوقها مع حكومتها فيما تراه نافعًا لبلادها علمًا منها بأن الحرية المطلقة لا يمكن حصولها في مكان من المجتمع وهي بالضرورة محدودة بحقوق الغير وبالمصلحة العامة.

السويسريون يرون في كل مكان المصلحة العامة ويتركون لها برضاهم صغار مطالبهم النفسية ويطالبون خاصة بتطبيق حقوق الفرد الأولية فلا يسيئون استعمال حريتهم الوجدانية وحريتهم القولية ليتخلصوا من عبء فيه مصلحة عامة.

السويسري لا يستطيع مع ما نال من الحرية أن يقطع شجرة من غابته إلا بإذن حكومته ولا أن يضمن داره من الحريق إلا عند حكومته لأنها هي ضامنة من الحريق ولا أن يلقي ورقًا ولا غصنًا في إحدى البحيرات فضلًا عن الأقذار والأوحام فسويسرا التي احتفظت بحقوقها في عصور الظلمة قد زادت منذ خمسين سنة تدخل الحكومة في مصالحها على ما

هي الطريقة المتبعة في إدارة البلاد الجرمانية وذلك بأن يكون للحكومة إشراف قليل على بعض شؤون لا تضر بحرية الأفراد والمجتمع

حرية الضمير والرأي والعبادة مضمونة في أرض سويسرا بموجب قانون الاتحاد السويسري الأساسي ولكن لا بصورة مبهمة بل إن لكل مديرية قانونها الخاص للاجتماع والدين والصحافة ينظر فيه الحين بعد الآخر ويطبق بحسن ارتقاء الشعب وأخلاقه. وحرية الصحافة لم تنقلب قط إلى عداء ومماحكات ومع شدة الانتقاد والجدال في المنازع السياسية فإن لها حدًّا تقف عنده لا تتعداه أعظم الصحف السويسرية ولذلك كان صحافتهم على صورة لا تشبه صحافة الأمم الأخرى وربما كانت هي والصحف الإنكليزية صحف الحرية الحقيقية مع الاعتدال الغريب أما نشر السفاهات والغراميات والخلاعيات فهذا لو جسر على نشره صحافي لا يجد من الأمة من يقرأه فيسقط بطبيعته. ومن الغريب أنك تجد في سويسرا كنسية يصلي فيها أهل مذهبين النصرانية وجريدة هي لسان حال حزبين مختلفين الحزب المحافظ والحزب المتطرف الاشتراكي، فالقارىء يحكم على آراء الفريقين المتخاصمين من العدد الواحد.

لا جرم أن القرون الخالية وحوادث الأيام قد دربت السويسريين طويلًا على الحرية وقلبتهم بين الشدة والتسامح أزمانًا فصاروا يقدرون نعمة السلام والوئام وما تعقلهم الحالي إلا ثمرة نضجت على مهل بعد أن ذاق أصحابها في انتظارها وتكييفها على هذه الحالة نصبًا. حرية العمل وحرية الاشتراك في سويسرا متعادلتان فمن هذه نشأ الاعتراف بنقابات العمال وبحقوق اعتصابهم. ومن تلك نشأ احترام المتعصبين لحق المخالفين لهم في الإضراب عن العمل. ومع هذا تجد الاعتصابات أقل ممَّا هي عند الأمم الصناعية الأخرى والأجور تزيد بزيادة غلاء الحاجيات

وارتفاع أسعار الكماليات لأن العملة يتفاهمون ويجتمعون على الدوام مع زعمائهم. وكذلك حق حماية سويسرا للمظلومين، ولا سيما السياسيين، فإنه أرقى ممَّا عند الأمم الأخرى. ولكن سويسرا لا تحمي القاتل. وكثيرًا ما تعمد بعض مقاطعاتها إلى إخراج السفاكين وأرباب الدعارة من غير أبنائها إلى خارج الحدود.

يبدأ تلقين الحرية وتطبيق حقوق الوطني عند السويسريين منذ عهد المدرسة الابتدائية. وليس في سويسرا على الجملة مدارس داخلية، بل إن الطلبة الذين يرحلون من قراهم وبلادهم للتعلم يدخلون في بيوت الأسر حتى لا يعيش التلميذ منذ صغره عيشًا متكلفًا كعيش المدارس الداخلية لا مثيل له في الحياة ولا يخضع لقوانين جائرة، وهو الذي يحتاج في بدء نموه إلى الهواء والشمس والانطلاق، ومن علماء التربية هنا من بالغوا في منح إعطاء الطلبة حريتهم وأنشأوا لهم مدارس التربية الذاتية أو الحكم الذاتي فيتألفون أولادًا من سن الثانية عشرة إلى السادسة عشرة جمهوريات حرة ينظمون بينهم أمرهم والمعلمون لا يعملون إلا أن يلقوا عليهم الدروس وذلك لتلقين الأولاد الاستقلال والحياة العمومية، فالأولاد يختارون رئيسهم وهيأتهم الإدارية وأمين صندوقهم. ويكون اختيارهم حسنًا جدًّا في الأغلب ويجيدون في مناقشة القانون الذي يضعه مديرهم، وتصح أحكامهم في عقوبة المخالفين لنظامهم، فلا يسرق شيء من مال الصندوق ولو كان الأمين عليه في الثانية عشرة من عمره تحدثه نفسه أن يبتاع ببعض الدريهمات حلواء أو شكولاتا أو ملبسًا يأكلها أو كرة يلعب بها، فكأن سويسرا خلقت بدون أولاد أو أن التربية جعلت أولادها رجالًا ونساءها كذلك.

حرية الصيد البري والصيد النهري والبحيري محدودة مقيدة في بعض الأوقات وعلى بعض المحال. ورجال الصحة يمنعون كل شيء إذا

اقتضت الصحة العامة ذلك ولو كان فيه خراب عدة مقاطعات كأن يقيمون الحجر الصحي على الإنسان أو الحيوان فيمتنع أحد من الدخول إلى تلك المحال الموبوءة أو الخروج منها ولا ينبس أحد ببنت شفة اعتراضًا على ما حصل وقانون العمل وتحديد أوقاته يشغل المستخدمين والعمال والعملة على صورة معقولة فيتمتعون به بشيء من الراحة والحكومة تتداخل في حياة المواطنين الخاصة لتقدير الضريبة على دخل الأفراد الذين يقدرونها بأنفسهم أولًا وللحكومة الحق أن تراقبهم وكذلك كتابة كشف بعد وفاة الميت بمخلفاته.

لكل عمل في سويسرا موانع ومحظورات فالماهر من يقرأ كل ما يقع نظره عليه من المكتوبات في الطرق والمحطات لئلا يغرم شيئًا بتعديه حمىً لا ينبغي السير فيه أو إتيانه عملًا يعد منكرًا في عرف القوم وهو عند غيرهم مباح وأي مباح مثل منع دوس العشب في المروج عندما تنبت وقطع عدة زهور من جبال الألب وسير المرء في بعض المقاطعات على بعض طرق الكروم يتناول المنع في ذلك الأولاد والرجال مخافة أن تحدث أحد الشرهين نفسه بأن يقتطف خصلة من الكرم. واقتطاف العنب يجري بمعرفة الحكومة كل جهة بمفردها ويمنع على بعض الجسور الخشب في بعض المقاطعات أن يدخن المرء أو يحمل قداحة ويوقف حيوانات ويجمع اجتماعات وهكذا تراهم يفرضون فروضًا ربما لا تقع مرة في العمر ويكتبون لها اللوحات ويضعون على من تعدى عليها الغرامات.

هذه قيود للحرية وضمانات لها في آن واحد لأن الشعب مهما بلغ من رقيه هو كقطيع الغنم لا يخلو من جرباء وفي الأكثر يكون المقصود من هذه القيود الأجانب وهم ليسوا على مستوى واحد في عقولهم وعاداتهم. عادة البصاق ممنوعة قطعًا في كل مكان ولا سيما في

القطارات حتى إن بعض الكنائس ككنيسة فريبورغ كتبت العبارة الآتية بحرف غليظ: (احترامًا لبيت الله المرجو الامتناع عن البصاق) ويمنع التدخين من بعض المركبات في القطارات وللمدخنين مركبات خاصة كما أن للسكارى كذلك. وإذا حدث اختلاف بين راكبين في قطار أحدهما يريد فتح النافذة والآخر يأباه فالحكم في ذلك لرئيس القطار فهو الذي يحكم بين المختلفين وهذا أيضًا من جملة ما قدروه من الاحتمالات في أنواع الحريات.

سويسرا أرض الحرية منذ القديم ولكنها كما رأيت حرية من نوع آخر خاص لا تخلو من قيد في كل حال خلافًا لما يتصوره بعض الخياليين.

سويسرا: حياتها السياسية

٥٨

ليست سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براقة غريبة في حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية. فمن مقاطعاتها ما هو صغير ومنها ما هو كبير ومنها ما تدار المدينة فيه بإدارة غير إدارة القرى المجاورة لها ومنها ما هو عبارة عن مدينة وبضع قرى حولها أو أرباض. ومنها من يدين أهلها بالكثلكة وأخرى بالبرتستانتية وغيرها مزيج من المذهبين ومنها ما ينتمي إلى الحزب الاكليركي وأخرى محافظة متنطعة في مذهبها وغيرها متطرفة في اشتراكيتها ومنها التي تقدم نوافذ للعذراء مثل فريبورغ في حين جارتها جنيف فصلت بين الكنيسة والحكومة.

وفي الجبال الوسطى وجبال الشمال الشرقي لا تزال الحكومة المعروفة بحكومة البطارقة على الحالة التي كانت عليها على عهد

الألمان والفرنك والقوة التشريعية بيد مجلس الوطنيين ومن الجمهوريات جمهوريات صناعية مثل زوريخ وبال أحاطنا علمًا بكل دقائق المجالس النيابية فتضعان ضرائب على الدخل وضرائب على رأس المال وتختاران بعض الأصناف للحكومة وتختاران طريقة الانتخاب على نسبة العدد، عادات نروفجية قديمة إلى جنب الاختراعات السياسية في القرن العشرين

قطعة من الجبال والأودية والبحيرات لا تبلغ مساحتها ثلث مساحة ولاية سورية ونفوسها لا يزيدون كثيرًا عن نفوس بر الشام كله وحكومتها في مديرياتها والأصح أن يقال في ممالكها لأن لكل مقاطعة حكومة كأنها مملكة مستقلة أنواع منوعة وهذا لتكون عندهم اللامركزية على أشدها ويستمتع أهل كل ناحية مهما صغرت بفصل ما يرونه الأنسب لمصلحتهم والتغيير يتناول حتى النواحي التي تختلف إدارتها بحسب الإقليم.

في غرب البلاد يسيرون على الطرق الفرنساوية وفي سويسرا الألمانية لكل بلد نظام والمرجع واحد. هنا تجبى الناحية الضرائب وهناك تسمح لها وإرادتها أن لا تطالب المكلفين بقرش. الاستقلال الإداري إلى جانب السلطة المحلية تختلف كل الاختلاف، المركزية في سويسرا الفرنساوية أكثر من غيرها في حين ترى نواحي ابينزل الألمانية جمهوريات صغرى أو جمهوريات تنوب عن جمهورية مستقلة إلا قليلًا.

وبهذا التغيير الكثير ساغ للأنظمة والأوضاع أن توافق أخلاق كل صقع وضروریاته وحاجات سكانه ورغائبهم التي تختلف باختلاف نوع الحياة. فالتعليم مثلًا إجباري في البلاد كلها يقضي على كل ولد أن يصرف في المدرسة من سن السادسة إلى الرابعة عشر يتعلم فيها أمورًا مشتركة بين المقاطعات كلها وما عدا ذلك فكل مديرية حرة بأن تنظم مدارسها على طريقتها وهي تطلق للنواحي حريتها أيضًا في بعض الأمور

مدة التعليم تسعة أشهر في السنة ولكن بعض النواحي تقسم العطلة قسمين قسم وقت اشتداد الحر وآخر من آخر أيلول إلى أول كانون الأول وهو الزمن الذي تنزل فيه الماشية من الجبال وترعى في المروج إلى أوائل نزول الثلج تحت ملاحظة أولاد تلك القرى.

للتخصيص على هذه الصورة فوائد لا ينكرها إلا كل مكابر. يمنع التعديل الجائر ويحفظ للنواحي تنوعها وغرابتها ويبث روح الحياة المحلية والهمم الإفرادية ويزيد في ارتباط المرء بوطنه الصغير، وهذه أحسن طريقة لتعريفه قدر الوطن الكبير وتحبيبه إليه. لكل مديرية وطنيتها فلها أعلام خاصة بها وألوان لا تشاركها فيها جارتها ولها أسلحة ولها شارات، وفي جميع الأعياد وعلى جميع المعاهد العامة توضع شارات المديرية إلى جنب أعلام الاتحاد السويسري مثل دب برن وثور اوري ومفاتيح اونتروالد وكواكب فالي ومطرقة سان غال. لأن كل مديرية هي مملكة ووطن ولها تقاليدها وتاريخها وأمجادها. فهي ليست مديرية بالمعنى الذي نتصوره في مصر والشام قطعة من بلاد اقتطعت منها كيفما اتفق بدون مراعاة الطبائع والتقسيم الطبيعي بل هي عضو حي نام واحد متماسك الأجزاء في الجسم الاجتماعي.

وربما قيل إن تخصيص كل بقعة بحقوق خاصة ممَّا يفرق أجزاء الحياة السياسية فتختلف الأحزاب وتكثر فلا يستطيع مجلس النواب العام أن يقوم بعمل ولكن سويسرا ليست على مثل ذلك فإن إرادة الأمة تسري حتى على المخالف ويسكت المناقش بظهور الحجة وربما قيل إن هذه اللامركزية المفرطة تشغل أهل كل ناحية بخصوصياتهم فلا يعودون يلتفتون لأرقى ممَّا يتجاوز حدود دائرتهم الضيقة كما هو المشاهد من جرائدهم المحلية فإنها كلها جرائد خاصة بدائرة لا تتعداها، ولا سيما في سويسرا الألمانية ولولا الجرائد الكبرى مثل جورنال (دي جنيف)

و(غازت دي لوزان) و(البوند) وهي الصحف الجوالة الراقية لكان من يعيش في سويسرا أشبه بمن يعيش في قطر منعزل لأن السويسريين لا يهتمون إلا لزراعتهم وتجارتهم ومجالسهم وحوادثهم وما عداها فمعرفته وعدمها سواء ولكثرة هذا التغالي في اللامركزية خيف في القرن الماضي من تشتت الكلمة بتعدد النظامات فاتحدت أكثر القوانين العامة والمدنية واتحدت الخطوط الحديدية واتحد نظام العمل والجمرك وسير السيارات فلم يعد يخشى التباس وصارت البلاد مستقلة كل واحدة بذاتها ولكنها في الشؤون العامة متحدة. وحدثت من هذا الاتحاد فوائد جمة من مثل اتحاد المديريات على أن تحتكر الحكومة كلها الخمور فنشأت من ذلك فوائد قللت من مقطوعية الخمر وحسنت نوعه وقل السكيرون والمعربدون وحسنت الصحة العامة وما يؤخذ من دخل الاحتكار من كل مديرية يعطى لها عشرة لتنفقه على بث الدعوة للامتناع عن المشروبات الروحية! وابتاعت الحكومة الخطوط الحديدية الكبرى ما عدا الخطوط الصغيرة المحلية على صورة كأنها لم تدفع عنه ثمنًا وذلك بدون أن تضرب ضرائب ولا أن تعقد قرضًا أو تحتال حيلة فإن باجتماع الخطوط تحت إدارة واحدة قلت النفقات وكثر الإقبال فأخذت تلك الخطوط تربح ومن ريعها السنوي مدة ٥٦ سنة يعطي المليار فرنك الذي يدفع ثمنًا للخطوط على نجوم وتقاسيط

ومن عجيب احتكارات الحكومة السويسرية احتكارها لضمان الحريق بل للضمان من الحوادث والأمراض لا لطبقة مخصوصة من العمال كعمال السكك الحديدية مثلًا بل للجنود الذين هم تحت السلاح زمن السلام وزمن الحرب. ومن الغريب المدهش أن تضمن حكومة أرواح محكوميها من رصاص العدو وقنابله وهذا لا مثيل له في المدنية الحديثة ولا تضمن الحكومة من الشيخوخة كطبقة العملة مثلًا لتنفق عليهم أيام

عجزهم ما أخذته منهم أيام شبابهم وذلك لعلمها بأن دور الشيخوخة طبيعي لا بد لكل واحد أن يفكر فيه وضمانة مبلغ معين لمن بلغوا سنًا معينة هو مكافأة على عدم الحساب للعواقب وللكسل وللسكر ولذلك لا ترى في سويسرا من لا يعمل أما الشحاذة فلا أثر لها ولا اسم. والحكومة العامة هنا احتكرت خطوط التلفون وضمتها منذ البدء لإدارة البريد والبرق ولكن للأفراد أن يضعوا في محالهم كحدائقهم أو منازلهم أو فنادقهم ما أحبوا من مثلها.

السويسريون عريقون في الديمقراطية بكل ما فيها من المعاني تأصلت في نفوسهم وتشربتها دماؤهم منذ قرون طويلة. قال لي أحد مديري الصحف الكبرى في لوزان أنني لا أستطيع أن أعامل عمالي والمستخدمين في إدارتي إلا معاملة الكفاة نعم آمرهم ولكنني أحاسنهم في معاملتي كما أحاسن رصفائي في التحرير وأصدقائي

وما ذلك إلا لأن الديمقراطية تأصلت فيهم وما ديمقراطية أميركا الشمالية التي يرد تاريخها إلى زهاء مئة وثلاثين سنة وما ديمقراطية فرنسا التي بلغت ٤٣ سنة من العمر بالنسبة لجمهوريات الاتحاد السويسري إلا بنات وأطفال فجمهوريات سويسرا عمرها خمسة وستة قرون ولذلك ترى في السويسري شعورًا طبيعيًا في المساواة وليس في جمهوريته أوسمة ولا ألقاب تشريف فالعامل يشرفه عمله والمفضل على أمته ترفعه على رأسها في حياته ومماته. ورئيس الجمهورية السويسرية هو من أهل الطبقة الوسطى لا يميزه عن سائر أبناء السبيل في شوارع مدينة برن شيء من الأبهة والعظمة التي يبدو بها في بلادنا القائم مقام الصغير دع المتصرف والوالي والقائد والوزير ولا تجد تشريفات في سراي الاتحاد السويسري التي تضم إليها مجلس الأمة ومجس الأقاليم وينتخب مجلس الاتحاد

السويسري كل سنة رئيسًا يتولى رئاسة المجلس ورئاسة جمهورية هلفسيا السعيدة وليس هو في الحقيقة إلا عميد مستشاريه الستة.

ولا تشهد في بلاط حكومة سويسرا دسائس يراد بها بقاء الحكومة في أيدي المتولين عليها على نحو ما يقع في الأمم النيابية فإن المجلسين السويسريين لا يقلبان الوزارة قط فلا تعهد عندهم الأزمات الوزارية التي تسمع بها في االممالك الدستورية وإذا حدث خلاف بين المجلس والحكومة يتفاهمان بحرية إذا لم يتيسر لهما الاتفاق ويخضع المجلس الاتحادي أي الوزارة لإرادة مجلس النواب والأقاليم كما أن هذين المجلسين لا يماحكان ولا يراوغان. فمجلس الأمة لا يقلب الحكومة التي ينتخب مستشاروها السبعة أو وزراؤها السبعة كل ثلاث سنين بل يجدد انتخابهم الفصل بعد الفصل لأنهم يكونون قد نشأت لهم تجارب مهمة في العمل ورئيس مجلس الاتحاد السويسري أو رئيس الجمهورية ينتخبه رصفاؤه الستة كل سنة ويعمل وإياهم بإخلاص وخلو غرض ويجددون انتخابه على رأس السنة وربما مضت الأعوام والرئيس لم يتغير لأنه إذا عمل العمل الصالح وهو لا يعمل غيره بالطبيعة لا يرى من رصفائه من يحسده على مركز الرئاسة.

رواتب النواب هنا مقسمة بحسب الجلسات فأعضاء المجلس الاتحادي يتناول أحدهم عن كل جلسة عشرين فرنكًا ويمكن أن يبلغ مجموع ما يتناوله أحدهم في السنة ثلاثة آلاف فرنك فقط أما نواب الأقاليم فيتناول عضو البلد عن كل جلسة ستة فرنكات وعضو القرية سبعة فيكون للواحد منهم على طول السنة من الرواتب من ٢٤٠ إلى ٢٨٠ فرنكًا في السنة ورواتب مستشاري المملكة ووزراؤها ١٥ ألف فرنك لكل واحد مساناة وراتب رئيسهم أي رئيس الجمهورية السويسرية ١٨ ألف فرنك مسانهة ولذلك قد يضطر المسكين إذا كانت له أسرة كبيرة

أن يشتغل أحيانًا أعمالًا أخرى من تجارة وزراعة ونحوها ولكن لا على أنه رئيس جمهورية له سلطة بل بصفته فرد حكمه حكم الأهالي.

الإخلاص هو الخلق الجوهري في الديمقراطية السويسرية فالشعب هو السيد ويجب أن يبقى كذلك. وقد اتخذت جميع الاحتياطات لتظهر إرادته بمظهرها ولتكون محترمة على الدوام. حتى إن بعض الأقاليم لا تزال بحسب قاعدة الفيلسوف جان جاك روسو نحافظ على الحكومة التي تحكمها مباشرة بمعنى أن مجلس الوطنيين فيها يلتئم كل سنة فينتخب حكام الأقاليم ويصدق على الحسابات ويقرر القوانين التي أعدها المستشارون الذين انتخبوا في السنة الفائتة.

في سويسرا حزبان مهمان حزب المحافظين وحزب الأحرار يتناقشان في مصلحة البلاد ولكن إذا تولت الأكثرية زمام المجالس لا تنحى على الأقلية بل ترى من مصلحتها أن تقبل أعضاءها في جلساتها وهناك حزب اشتراكي ولكن لا تأثير له لأن الأمة اشتراكية بطبيعتها. قال لي المسيو جان سبيرو أستاذ العربية في كلية لوزان: عندنا حزبان وأنا من حزب الأحرار ولكنني لا أجد فرقًا بين الحزبين يصح أن يعد فرقًا ولذلك فكلنا حزب واحد في الحقيقة. فبارك الله بأمة مهما تعددت مناحيها وأصولها وأهويتها ودرجة غناها وأعمالها لا تختلف في المصلحة الوطنية ولا تتخلف عن الحق قيد شبر.

سويسرا: الوطنية والجيش

٥٩

قالت العرب: احرص على الموت توهب لك الحياة وقال المتأخرون من أراد السلم فليكن أبدًا على استعداد للحرب. هاتان القاعدتان جرت

عليهما سويسرا وبعد فمن يظن أن هذه الأمة التي تعيش بمعزل عن الدول وليست لها سياسة خارجية واستقلالها مضمون باتفاق الدول العظمى تنمرن ليلها ونهارها على الأعمال الحربية وكلها مسلحة وكلها محاربة عند الاقتضاء وتستطيع عند أول صرخة أن تجهز ١٨٠ ألفًا من الجند الذين يحسنون الرماية كأحسن أهلها ويعلمون عمًّا يدافعون ويأتون إلى أي مكان من حدودهم في سرعة البخار ثم يستطيعون أن تجهزوا ١٤٠ ألفًا من الدرجة الثانية ومثل هذا العدد في الدرجة الثالثة وتجهيزاتهم ليست على الورق بل عددهم وعددهم حقيقة لا شائبة فيها كأعمالهم.

قسم السويسريون الخدمة العسكرية إلى عدة أدوار حتى لا تثقل عليهم وينقطعوا بتاتًا عن أعمالهم ويبوتهم ويخففوا عن أمتهم نفقة إطعامهم وإيوائهم فبدلًا من أن يقضي الشاب السويسري سنتين أو ثلاث سنين تحت السلاح كما هو عند معظم الأمم لا يبقون في الخدمة إلا أشهرًا معدودة في السنة الأولى ولكن المرء يبقى جنديًّا من العشرين إلى الأربعين ويدعى لحمل السلاح والتعلم في مواعيد مختلفة قد لا تتجاوز الأربع السنين وتكون عنده بندقيته يتعلم فيها من بيته وحقله ولا يستعملها إلا لهذا الغرض. والولد منذ المدرسة الابتدائية إلى المدرسة العليا إلى الكلية يتعلم التعليم العسكري وهو تحت ملاحظة الضباط الذين يأتون أحيانًا للتحقيق عن أمره والإشراف على رمايته وفحص سلاحه الذي تعطيه إياه الحكومة ومن خالف ذلك يعاقب بأشد العقوبات وهيهات أن تجد مخالفًا.

سويسرا الحديثة ليست محاربة ولا تثير بينها وبين جاراتها أسباب النزاع لأن قلة عددها بين أمم كبرى لايجعل الحرب من مصلحتها ولذلك فاستعداد السويسري للطواريء وتمرينه على الحرب ووطنيته المشتعلة وفكره الشعبي ليست إلى عداء وحب فتح بل للدفاع عن كيانه فسويسرا

كل سنة تعطي منحة لمكتب السلام في برن ولكنها باليد الأخرى تبتاع السلاح الجديد وتجهز جيشها بكل ما تقدر عليه من القوة وتزيد في ميزانيتها البرية سنة عن سنة لم يمنعها الحياد أن تعمد إلى الطرق العملية كسائل أعمالها في فروع الحياة لأن أرضها لا تحمى إلا إذا كانت على حال الدفاع بحيث يحترمها جيرانها وبذلك تحفظ استقلالها لا بمجرد العهود التي تداس بالأرجل عند ثوران الغضب وهيجان النفوس للفتح وجر المغانم.

سويسرا لا تريد أن تكون طعمة سهلة لكل آكل ولا تخاف في الأغلب أن تداهمها فرنسا من الغرب ولا النمسا من الشرق بل تحاذر في الأكثر من الشمال تخاف عادية ألمانيا وأن تضمها هذه ذات يوم بالقوة إلى أرضها كما فعلت بمقاطعة شلشويق هولستاين وهانوفر وهيس وفرنكفورت والالزاس واللورين وأخوف ما تخاف من عادية إيطاليا من الجنوب ولذلك تقيم على الشمال معظم جيشها وعلى الجنوب المعاقل المدهشة ومنها معقل غوتار والسمبلون. فإن كان السويسريون يحمون بلادهم ويفادون بالرجال والمال للذب عن حياضها فذلك لأنهم يحبونها حبًا يمازج أجزاء نفوسهم ولا شيء أحسن وأضمن للتعلق بالوطن من الاستقلال وحكم المرء نفسه بنفسه.

قال أحدهم: إن سويسرا ليست من البلاد التي تبقى لضرورة في بقائها كإنكلترا وإسبانيا بل إنها لم تبق إلا لأن السويسريين يريدون بقاءها. نعم إن الإرادة وحب الحريات السياسية قوة من القوى ولكنها ليست كلها جماع القوى فإن سويسرا لم تتألف عرضًا أو لإرادة المتعاقدين المتحدين من أبنائها بل إنها اجتمعت لاتفاقها في العواطف والروح وبمالها من التقاليد المتماثلة والماضي والمجد الذي يتجسم كل حين باسم (غليوم تل) بطلها القديم.

و(غليوم تل) هو أحد رجال الثورة الذين أنقذوا سويسرا من ربقة النمسا سنة ١٣٠٧ وذلك إن عامل الإمبراطور النمساوي كان علق قبعة (الدوج) على رأس خشبة في الساحة العامة في (التورف) وأراد أن يذل السويسريين بأن يسلموا على القبعة كلما مروا بها فأبى أن يخضع غليوم تل لهذه المذلة فاستدعاه الوالي النمساوي ولما عرف أنه من الرماة الماهرين بالقوس والنشاب حكم عليه جزاء أبائه أن يضرب سهمًا على تفاحة وضعها الوالي على رأس ابن غليوم تل فلم يسع هذا إلا أن ألقى سهمه فأصاب التفاحة ولم يصب ابنه بسوء ولما ساله الوالي لماذا أعد سهمين فقال له الواحد للتفاحة والآخر لك وعندها نادى بالثارات سويسرا وكان بذلك خلاص البلاد من حكم النمساويين في أوقات مختلفة كان يكتب فيها النصر للسويسريين لأنهم مدافعون لا مهاجمون.

غليوم تل نصبت له التماثيل الكثيرة اليوم في بلاد سويسرا فهو مثل غاريبالدي في إيطاليا أحيا أمته بشجاعته، ومن أجل هذا التاريخ المعنعن بالواقع لا ترى السويسريين سواء كانوا ممن يتكلمون الألمانية وهم الأكثرية أو الإفرنسية أو الإيطالية أو الرومانشية تحدثهم نفوسهم أن ينضموا إلى أبناء جنسهم بل إنك ترى السويسري وأبناءه وأحفاده وأحفاد أحفاده تغربوا في إيطاليا وألمانيا والنمسا وفرنسا قرنًا وأكثر ولا يزالون محافظين على تابعيتهم وقد عرض مرة على أحد علمائهم (إدوار وود) وكان باريزيًا في موطنه فقط، وسويسريًا بجنسيته أن يتجنس بالجنسية الفرنسوية لينتخب عضوًا في المجمع العلمي مجمع الأربعين المخلدين فقال والسذاجة طافحة من كلامه: إنني أحب فرنسا وأسكن باريز ولكنني سويسري مات والدي ووالدتي في سويسرا وأنا لا أكون في المجمع العلمي. هذه هي الوطنية السويسرية متأصلة في شغاف القلوب، ولكنها ساذجة لا تتعمد الصياح ولا التظاهر ولا تجد داعيًا للتبجح بها كل حين.

وطنية السويسريين في صدورهم مكتومة لها أعياد وحفلات ومصانع وتذكارات تذكرهم الساعة بعد الساعة بما بذل أجدادهم من إهراق دمائهم في دفاعهم عن وطنهم وما يجب عليهم أن يقوموا به ليحفظوا هذا التراث الجميل النادر. دع ما ينشره علماؤهم وأدباؤهم من المصنفات الممتعة التي كلها ترمي إلى تحبيب وطنهم إليهم وتلقن أبناءهم منذ نعومة أظفارهم التعليم الوطني في المدارس وتلامذة مدارسهم يتغنون في كل شارقة وبارقة بالقصائد الحماسية الوطنية التي نظمها الشاعر السويسري جوست أوليفيه، ويتلون الفترة بعد الفترة ما وصف الشاعر الكاتب أوجين رامبرت طبيعة سويسرا وجبالها وأوديتها وبحيراتها فيزيد هيامهم بأرضهم.

السويسريون لا يقنعون أن يحبوا بلادهم حبًا مجردًا بل يزورونه ا بعناية واهتمام وعدد من يرحل منهم صيفًا وشتاءً ٢٢ في المئة من مجموع السياح القادمين إلى سويسرا ينتقلون في جبالها وأوديتها وترى العامي منهم إذا اجتاز أرضًا لم يعرفها بعد يقف في القطار مأخوذًا بما يمر به من الأصقاع بحيث لا يفوته منها جميل وإذا ذهبت إلى القرى أتاك بعض أهلها بدون طلب منك وحدثوك عمًا تجب زيارته من المحال البديعة في جوارهم. فالسويسريون معجبون ببلادهم وحق لهم العجب وربما كانوا أكثر الأمم المجاورة في طربهم بما خصت به جبال الألب من المحاسن التي تخلب الألباب.

اشتهر السويسريون منذ عهد غليوم تل أنهم في مقدمة الرماة في أوربا لأن بلادهم تستلزم ذلك ولا تكون حربها بالنظر لجبالها إلا مناوشة وكمينًا فترى في كل قرية جمعية للرمي وتقام له الأعياد. وكل سويسري في سن العسكرية فلاحًا كان أو ساكن المدينة يضرب مع رفقته يوم الأحد ساعات طويلة في التدرب على الرماية وفي كل بيت بندقية أو عدة بنادق لشبان سويسرا يعدونها ليدفعوا بها عن أنفسهم وبلادهم كأنهم لا يزالون

في عهد الإقطاعات يكلف فيها كل واحد بحماية نفسه وأسرته ولكن هذا شأن الأمة المسلحة بسلاحين سلاح القوة المادية وسلاح القوة المعنوية العلمية التي لم تكن في القرون الوسطى.

ضباطهم يخرجون من الجيش مباشرة ثم يتعلمون التعليم الحربي وأكثره عملي في الغالب وهم في الأكثر من أبناء الفلاحين يعاشرون الأفراد ويواكلونهم وطعام الجنود من أحسن ما يعهد ولهم مطابخ تنتقل معهم في المناورات فتراهم في كل وقت يتناولون الطعام الصحي الفاخر الذي لا يوجد إلا في المدن وفي حال التوطن والرفاهية وجنديهم يقبض كل يوم ٨٠ سنتيما في المشاة وفرنكًا في الفرسان وهو أحسن راتب يقبضه جندي في جميع أمم أوربا لأن هذه عجزت عن إطعامهم وإلباسهم لكثرتهم بدون فائدة دع أدرار النفقة عليهم ولا يبتعد عن أهله من الجند إلا من دخل في جيش الفرسان السويسري سعيد في كل حال من أحواله مرتب في حله وترحاله ممتع باستقلاله ناهض في عامة أعماله ولذلك لا تراه يشكو شيئًا على نحو ما يشكو ابن البلاد الراقية الأخرى الذي يرزح تحت أثقال المغارم والمظالم لينفق على بحريته وبريته. قال لي كثيرون نحن سعداء في بلادنا فكنت أقول لهم بارك الله بسعادتكم التي أحرزتموها بجدكم ورزق شرقنا المسكين بعض ما أنتم فيه إنه كريم جواد.

سويسرا: المذاهب والقوميات واللغات
٦٠

الدين واللسان من جملة المظاهر المهمة التي تدل على روح شعب وقد كان لهما في الأرض السويسرية بفضل التسامح والاتحاد ومراعاة

حرية الغير مشاكل في الماضي ولكنها اليوم قد انحلت صعوباتها وتعبدت عقباتها وكان الدين ثم اللسان شعار الوطن الأصغر ثم امتزج أهل كل دين وأهل كل لسان امتزاجًا في البلاد فلم ينشأ في سويسرا مشاكل تذكر كما نشأ في بعض البلاد التي تنازعتها البرتستانتية والكاثوليكية أو الأرثوذكسية والإسرائيلية أو مذاهب أهل السنة والشيعة في الإسلام.

المذهبان السائدان في سويسرا هما البرتستانتية والكاثوليكية ولما انتشر المذهب البرتستانتي في القرنين السادس عشر والسابع عشر على يد دعاة من أبناء البلاد أخذت كل مقاطعة تجعل مذهبها رسميًا وإجباريًا وتدعو إليه في أرضها وتحتم على الأهلين حضور الصلاة به وإن كانوا لا ينتحلون هذا المذهب وهو شيء من الشدة نشأ للسويسريين بانتشار المذهب البرتستانتي ثم أخذت المدنية تعدل من شدته والبرتستانت أكثر عددًا من الكاثوليك بقليل.

قال دوزا: إذا كان الدين يؤثر أحيانًا أثرًا ظاهرًا في روح أمة فإن الشعب يكيف الدين على صورته مع توالي الأيام والأمر الثاني ظاهر في سويسرا وإن لم تكن تخلو من الأول ولا جدال بأن المقاطعات الكاثوليكية بمجموعها أكثر انحطاطًا من المقاطعات البرتستانتية والأنحاء الأقل نظافة هي كاثوليكية أيضًا والمقاطعات الكاثوليكية هي التي احتفظت بالأكثر بلهجاتها وأن فكر حرية البحث الذي دعت إليه البرتستانتية قد أثمر وأينع فإن التعليم العام في البلاد البرتستانتية أكثر انتشارًا ممَّا هو في غيرها وأفكار التسامح مقبولة فيها بسرعة ورجال المذهب البرتستانتي قلمَّا يعنون بالسياسة. وليست هذه الفروق مهمة فإن تأثير عقل الأمة في المذهبين هو أشد ظهورًا.

السويسري متدين حق التدين ولكن دينه في قلبه وهو لا يحفل على الجملة بالظواهر وذلك ناسبت البرتستانتية مزاجه وللقيام بالفروض الدينية منزلة من حياة السويسري المنظمة كما للأعمال الدنيوية كذلك فتراه يذهب صباح الأحد إلى الكنيسة كما يذهب في المساء إلى القهوة بكل رزانة وتماسك أو كما يذهب إلى عمله خلال أيام الأسبوع. والرجال والنساء يحضرون في القرى والمدن في البيع لسماع القداديس أو المواعظ وربما كان النساء أكثر عددًا من الكنائس الكاثوليكية كما لحظت من الحضور في بعض كنائس لوزان الكبرى ولكن الكنيسة البرتستانتية مع هذا تغص بالمستمعين والعابدين الراكعين وكلهم يستمعون باحترام لما يلقى عليهم من المواعظ

ذكرت الفروض الواجبة نحو الخالق في جميع البرامج المدرسية ومعظم المدارس تقيم الصلوات وليس لرجال المذهب البرتستانتي في سويسرا ارتباط بسلطة خارجية وكذلك أهل المذهب الكاثوليكي ليس لهم أساقفة ورؤساء عظام بل إن كل واحد مرتبط بالمقام البابوي ارتباطًا خفيفًا لا يشبه ارتباط سائر البلاد الكاثوليكية في أوربا وأميركا وآسيا وإفريقية مثلًا فالسويسريين غلاة في حب الاستقلال في كل شيء حتى إن رهبانهم وقساوستهم يلبسون لباسًا يخالف البسة غيرهم في الأمم الأخرى. وترى الكل متشابهين مق؟؟ ممَّا يذكر أن سويسرا كانت في القرون الوسطى مهد التسامح وإن وقع لها في القرن التاسع عشر إن نشبت فيها حرب دينية من أجل القانون الذي وافقت عليه الأكثرية بنفي الرهبنات من سويسرا في حين لم تنشب في أوربا حرية دينية في ذاك القرن ومع ذلك تجد جنيف ببرتستانيتها وفريبورغ كذلك في تمسكها بكثلكتها كأنهما رومية بكثلكتها ولم تمض على هذه الحرب خمس وعشرون سنة بفضل تلقين المدارس فكر التسامح حتى أصبحت سويسرا

اكثر بلاد أوربا تعلقًا بحرية الوجدان والعبادة على صورة منظمة حرة لا مثيل لها.

اعتبرت سويسرا حتى اليوم الكنيسة إدارة من إدارات الحكومة هذا مع أن الحياة الدينية فيها مادة من مواد الحياة العامة فجعلت الأديان تحت سلطة الحكومة مثل المصارف والسكك الحديدية ولكل مقاطعة قانونها الاكليركي الذي تنظر فيه السلطة التشريعية وتقر عليه أو تعدل منه مطلقة الحرية تحت بعض شروط يقتضيها الدستور السويسري من مثل حرية الوجدان وحرية التدين وغير ذلك ورؤساء الدين بحسب المقاطعة برتستانتًا كانوا أم كاثوليكًا تدفع لهم الحكومة رواتب تستوفيها من أهل هذا المذهب وللحكومة حق التدخل في مسائل العبادة والطقوس وإذا أرادت فيكون القول الفصل في بعض المسائل لمجلس الأمة. وتدخل الكنيسة البرتستانتية في أعمال الحكومة غير محسوس في سويسرا الألمانية البرتستانتية مثل ما هو في سويسرا الكاثوليكية الفرنسوية وغيرها.

وبعد حرب سوندربوند اتهم اليسوعيون بأنهم أوقدوا الفتنة الدينية في البلاد السويسرية فطردوا منها وقد حظر عليهم دستور سنة ١٧٤٨ الدخول إلى سويسرا بيد أنهم دخلوا في الحقيقة إلى فريبورغ بعدعشر سنين. ومدرسة اللاهوت في هذه المدينة يديرها الدومنيكيون في الظاهر ولكنها بيد اليسوعيين في الواقع ولاهوتها هو اللاهوت اليسوعي دع من هناك من الرهبان الذين طردوا من فرنسا وجاؤوا فريبورغ وغيرها من بلاد الكثلكة السويسرية يعلمون ويعظون. ولمعظم الكليات السويسرية صفة دينية ظاهرة عليها فإذا كانت كلية فريبورغ كاثوليكية محضة فكلية لوزان وكلية جنيف برتستانتيتان.

هذا إجمال ما يقال في المذاهب في هذه البلاد أما القوميات أو الجنسيات أو العناصر المتألفة منها فإن نصف سويسرا روماني أو لاتيني والنصف الآخر جرماني وربما كان العراك بين هذين العنصرين على صورة لم يعرف بها في بلد آخر في أوربا منذ أوائل القرون الوسطى فقد اختلط العنصر اللاتيني بالجرماني وعلى العكس اختلاطًا كبيرًا ومن السويسريين الفرنسويين من تألمنوا أي أصبحوا ألمانًا بلسانهم على طول الزمن ومن الألمانيين من تفرنسوا ويكاد لا يتجاوز اللاتينيون أي الفرنسيس والطليان والرومانش في سويسرا مليونًا ومائتي ألف وبقية الأربعة ملايين هم ألمان عاشوا حتى اليوم بحرية تامة في استعمال ألسنتهم بفضل استقلال المقاطعات وعدم المركزية وربما كان الألمان أكثر توسعًا في البلاد وهم الرابحون في التبسط في ربوعها على الزمن حتى أصبح اللسان الفرنسوي خاصًّا بغرب البلاد والرومانشي بشرقها والإيطالي بجنوبها والألماني [redacted] الها ويقدرون عدد الألمان المهاجرين إلى المقاطعات الفرنساوية بمئة ألف وعدد الفرنسيس المهاجرين إلى المقاطعات الألمانية بخمسين ألفًا.

ولم تعترف الحكومة رسميًّا بلغة الرومانش كما اعتبرت الألمانية والإفرنسية والإيطالية وكتبت معظم الأوراق الرسمية بهذه اللغات الثلاث وذلك لأن المتكلمين بها قلائل ولأنها أشبه بلهجة خاصة لا أدبيات لها وأهلها يتزوجون بالألمان ويختلطون بهم وكل سنة يخف عدد المتكلمين بلسانهم وربما كان الرومانشيون مثال مملكة أضاعت لغتها على التدريج بدون أن تضيع استقلالها أضاعت لغتها واندمجت في غيرها على خلاف الطليان وعددهم في سويسرا اللاتينية زهاء ٢٣٠ ألفًا فإنهم احتفظوا بعنصريتهم لأنهم احتفظوا بلغتهم واحتفظوا بلغتهم لأن لها آدابًا خلافًا للرومانشية.

ومسألة الألسن غريبة في سويسرا لا تؤثر في الأمور الإدارية لأن حقوق الأقلية مصونة كحقوق الأكثرية ومن أعجب الأمور أن اللسان في سويسرا وإن كان من مواد الوطنية المحلية فليس شارة من شارات الوطنية الجامعة.

واختلاف الألسن ليس من العوائق في إدماج السويسريين في قالب الأخلاق المتحدة وليس في اللسان أدنى مادة من مواد الانفصال فالسويسري الفرنساوي في مقاطعتي الفوونوشاتل لا يريد أن يصبح فرنسويًا بتابعيته وكذلك السويسري الإيطالي لا يحب بوجه من الوجوه أن ينضم إلى إيطاليا ومثله ألماني مقاطعات شافوزوتوركوفي وسان غال لا يريد أن ينضم إلى ألمانيا.

ولولا أحوال نادرة لصح أن يقال إن سويسرا في جميع أدوار التاريخ قد نالت أعظم الحرية في استعمال اللغات في جميع الأعمال الخاصة والعامة أما اليوم فإن الحرية موجودة مبدئيًا ولكن احترام حقوق الأكثرية والأقلية على أسلوب معقول تحت نظارة جمعيات تتولى النظر في مسائل اللغات المحلية وانتشارها وتدافع عن حقوق الأكثرية ولا تغمط حقوق الأقلية في كل بلد يسبق غيره في عدد المتكلمين بلغة دون أخرى وكانت كتابة جميع الرسميات والعموميات بعدة لغات في القديم للإفهام والتفهيم أما اليوم فإنه يراعي بما يكتب حق السواد الأعظم.

اللغة الرسمية في كل ناحية هي لغة أكثرية السكان وبهذه اللغة تكتب مداولات المجالس البلدية والأعمال الإدارية التي تعلق ليقرأها الجمهور وبها تكتب أسماء الشوارع والمصانع ويدرس في المدارس ويلقى الوعظ أو القداس في الكنائس ومن النواحي من اختارت برضاها التساهل مع أهل اللغة الأخرى في بعض هذه المسائل كأن تترك مقاطعة المدينة اللغة

الإفرنسية تجعل لسان التدريس في مدرستها أو أن سكان مقاطعة رومانشيه يقدس لهم بالألمانية. وللمنتخبين في المقاطعات المختلطة أن يتكلموا بإحدى اللغتين كما يشاءون في جميع المداولات وتكتب الإعلانات وغيرها باللغتين وإذا بلغت الأقلية العدد الكافي تكون لها مدرسة بلغتها وكنيسة تعظ وتقدس بلسانها. وفي الكتابات الخاصة وعناوين الدكاكين تركت للناس حريتهم. وما يسري على الناحية يسري على المديرية حذو القذة بالقذة أي تكون اللغة الرسمية لغة الأكثرية والأقلية لا تحرم من حق التفاهم.

ويطلب إلى الموظفين في جميع المقاطعات المختلفة معرفة لغتين وتكثر فيها الإعلانات وأسماء الأماكن باللغتين ويقبل استعمال اللغتين في المجالس وعمال السكك الحديدية يبدأون في كل مقاطعة بلغة البلاد في مخاطبة الركاب ثم يثنون ويثلثون إذا اقتضى الحال بغيرها وجميع القطارات تكتب عليها اللغات الثلاث إلا الإيطالية فإنها تنقص من بعض القطارات التي تمر قليلًا في البلاد الإيطالية السويسرية وللغتين الألمانية والإفرنسية المساواة التامة تكتب جميع أسماء المحطات وغيرها بهما ويجعل التقدم للغة البلدة الشائعة.

وفي سويسرا سبع كليات منها ما يدرس بالألمانية ومنها بالإفرنسية وفي بعضها دروس مختلفة باللغتين فكلية بال التي انشئت سنة ١٤٦٠ تدرس بالألمانية وكذلك كلية زوريخ التي انشئت سنة ١٨٣٣ وكلية برن التي انشئت سنة ١٨٣٤

أما كلية جنيف التي اسست سنة ١٨٧٣ وكلية لوزان المؤسسة سنة ١٨٩٠ وكلية نوشاتل التي تمت سنة ١٩٠٩ وكلية فريبورغ التي قامت سنة

١٨٨٩ فإنها تدرس بالإفرنسية وفي كلية فريبورغ عدة دروس مختلطة بين اللغتين.

أعضاء مجلس الاتحاد السويسري سبعة ومنهم رئيس الجمهورية خمسة منهم ألمان واثنان فرنسويان وقراراتهم تكتب باللغتين وفي سويسرا ثمانية فيالق اثنان فرنسويان وخمسة ألمان وواحد إيطالي ورومانشي ولغة التعليم في الفيلق الأخير الألمانية والإدارات الخاصة تتبع هذه القاعدة لإرضاء قرائها من ذلك إن نقابة أصحاب الفنادق في سويسرا الألمانية لم ترض أن تغير أسماء قوائم الطعام من الإفرنسية إلى الألمانية لأن معظم الداخلين إلى البلاد يفهمون الإفرنسية أكثر من الألمانية حتى إن الألمان أنفسهم يفضلون أن يروا أسماء الألوان بالإفرنسية لاعتقادهم بأن المطبخ الفرنساوي هو خير المطابخ وألوانهم أجمل المآكل وكذلك ترى أصحاب الفنادق يصدرون جريدتهم باللغتين. كل ذلك يدل على جوهر أخلاق السويسريين وإن المحافظة على حق أو على حرية ينبغي أن يكون على قدم المساواة.

سويسرا بابل اللغات لأن فيها على صغرها منهن أربعًا وفي النمسا سبع وفي العثمانية سبع أمهات الآن ما عدا اللهجات ولكن سويسرا والنمسا حلتا هذه المسألة الحل المعقول العادل فهل نوفق نحن إلى حلها كذلك. والعرب هم السواد الأعظم وقد أمرنا باتباع الأكثرية وللغتهم ميزات ليست لغيرها والأمم الدستورية تراعي فيها قبل كل شيء حقوق الأكثرية.

سويسرا: كيف تجلب الغريب
٦١

كانت بعض البقاع في سويسرا منذ نحو ثلاثين سنة من أفقر بلاد أوربا بفضل ما أنشئ فيها من الفنادق وبذل من المساعي لاستجلاب رضى السياح والمصطافين والمشتين اغتنت تلك الأصقاع وأصبحت سويسرا وجل اعتمادها على القادمين إليها من أقطار الأرض حتى لقبوها (فندق أوربا) ولكن هذا اللقب وهذه الثروة التي يبذرها فيها الأجانب لم تحصلها عن عبث فإن علم جلب الغرباء وإمساكهم وحملهم على العودة ثانية بكمية أوفر قد أصبح في سويسرا علمًا حقيقيًا له أساليبه وقوانينه وإحصاآته وجرائده ومنشوراته المنوعة الظريفة وكلها متناسقة متساوقة كآلة الساعة. وقد علمت السويسريين التجارب أن السائح يستمال بست قواعد من أحسن استخدامها اغتنى وأفاد واستفاد

القاعدة الأولى: أن يزرع المرء كثيرًا ليحصد اكثر فقد جعل السويسريون لنشر الإعلانات بالكلام والصور المقام الأول ما عدا إعلانات المحطات والمنشورات المصورة وغيرها من المقالات التي تدفع عليها الأجور الباهظة أحيانًا في صحف سويسرا وغيرها والمقصود منها الإعلان. وكل إدارة وكل نقابة توزع منشوراتها مجانًا وكثيرًا ما تكون كبيرة الحجم يحتاج طبعها لمال كثير وعناية تامة من استجادة الورق والصور والجلود وفيها من كل شيء أطيبه بحيث تستدعي النظر إليها ولو بعد مدة وتنفق على ذلك كله نفقات هائلة ولكن الثمرات التي تعود منها قد قدرت بثلاثة أضعاف أو أربعة.

القاعدة الثانية: جميع تراكيب هذه الآلة متضامنة ولا تنافس بينها. وهذه قاعدة اقتصادية مهمة وهو أن كل صاحب فندق لا تحدثه نفسه أن يحتكر جميع السياح بل يهتم لإنجاح المدينة أولًا ثم الناحية وأرباضها أو النجاح العام وهذا لا يتم إلا بالتضامن بين أبناء هذه الحرفة فيشترك مثلًا جميع أرباب الفنادق في بقعة ليعملوا عملًا يسر جمهور النازلين في فنادقهم وأنزالهم ويجلبوا السرور والراحة لهم على السواء ومثل ذلك التضامن نراه على أتمه أيضًا بين الإدارات والشركات المختلفة لا تحاسد بينها ولا تغاير في المصلحة وقد ألف معظم أرباب الفنادق نقابات لهم فتألفوا مديرية مديرية أولًا ثم تألفت المديريات كلها نقابة واحدة آخرًا فأصبحت فنادق سويسرا كالبنيان المرصوص ومثل ذلك أصبحت بعض القهاوي ومحال لسماع ومحال إعطاء التعليمات وشركات التضمان نقابات خاصة يأتون كل ذلك على شرط أن يرضي السائح ويرتاح.

القاعدة الثالثة: أن تراعي حال جميع الطبقات بحيث يرضى كل سائح بالمعاملة التي يراها [1] وذلك لأن سويسرا أدركت أن الرحلات اليوم قد

---

(١) أتمنى لكل عربي يريد أن يصطاف أو يشو أو يسيح في أوربا أن يطيل مقامه في البلاد السويسرية أكثر من غيرها من البلدان الأوربية وأن يوفر صلاته مع هذه المملكة الصغرى لأنها جمعت آيات المدنية الكبرى ومن الأسف إن عدد المهاجرين من السويسريين إلى البلاد الأخرى يعدل بخمسة آلاف في السنة وليس منهم بضعة يأتون بلاد الشام مثلًا ليشاهد أبناء قومي الفرق بين الأوربيين في أخلاقهم وحسن معاملتهم. قلت يومًا لرئيس جامعة لوزان إننا مع الأسف لم نشهد في بلادنا سويسريًا منذ جئتم في القرون الوسطى مع من جاء من الصليبيين وأرسلتم مئات من شبابكم وأشرافكم يقاتلوننا مع من يقاتلون قال: نعم ذهبنا إذ ذاك إلى قطركم ولكن عدنا ممزقين آب عشرتنا واحدًا فنحن لا نريد أن يعاود ما سبق لأجدادنا ولو متحرين مستعمرين لا؟؟ فاتحين. وقلت لأحد أساتذة جامعة جنيف ممن أحسن ظنه بالإسلام والمسلمين في كتبه ومحاضراته إن من كسبوا مثلكم بدون تحزب عنا من الأوربيين قلائل جدًا ؟؟ يشكركم على إخلاصكم وصدقكم وأكدوا أن معظم من يكسون متأثرين بعوامل السياسية من الأمم الأخرى وإن ظهروا في مظهر علمي

أصبحت ديمقراطية أيضًا وأن لمتوسط غناهم هم أكثر من الأغنياء أرباب اليسار بل هم أخلص وأشرف وعلموا بالإحصاء أن واحدًا فقط في المائة من السياح الذين يصطافون أو يشتون في بلادهم يركب في الدرجة الأولى في السكك الحديدية و٨٥ في الدرجة الثالثة ولركاب هذه الدرجة ميزانية مقررة إذا قصدوا كثيرًا في ماديتهم لا يعاودون رؤية تلك البلاد وفي سويسرا فنادق وإنزال على اختلاف أذواق الناس واقتدارهم فمن أراد الرفاهية يدفع ثمنها في قصور هي أحسن من قصور الملوك ومن أحب التوسط كان له ما أراد وكذلك من أحب أقل من التوسط وإني لم أسمع بأن إنسانًا يمكن في أوربا أن يأكل ويشرب وينام بفرنكين وهذا ما أعلن عنه مؤخرًا إحدى البيوت التي تنزل الأضياف عليها في لوزان.

يخالفونكم في رأيكم فقال: هذا ما عرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم وفوق كل ذي علم عليم فتأمل.

القاعدة الرابعة: النظر أبدًا إلى راحة السائح وإظهار العناية بأمره [١] فقد عني السويسريون أن يسهلوا جميع مصاعب السفر على المسافر فيرى هذا أهم اللغات الأوربية الرئيسة يتكلم بها في المحطات والفنادق والمخازن إلخ والبريد من أسهل ما يمكن وفي زهاء ١٠٧ مدينة وبلد من سويسرا مكاتب للاستعلامات للغريب والقريب يسأل الإنسان فيها عمَّا يشاء مجانًا وقد نظمت بمعرفة الشركات المحلية ولا عمل لعمال هذه المكاتب إلا أن يجيبوا الناس عمَّا يسألون من الصباح إلى المساء والشعب يبدي العطف على الغريب والعناية بأمره فالسويسريون إذا لم يكونوا في رقة الطليان بالاحتفال بالغريب والأخذ بيده فيما لا يعلم ومرافقته مئات من الأمتار أحيانًا لدلالته على طريق أو غيره فهم وسط في

(١) منذ وصلت إلى مودوسولا على الحدود الإيطالية إلى أن خرجت من سويسرا عن طريق جنيف لم أشهد نقدًا يصح أن يوجه إلى أحد أو إلى إدارة سوى اللين واللطف بالغريب. وأذكر أنني ركبت القطار السريع من ميلانو وقت العصر وسألت مأمور المحطة متى يصل القطار إلى لوزان فأجابني في الساعة الحادية عشرة ليلًا فجلست في المركبة وحدي وكان عدد الركاب قليلًا فبقيت فريدًا في الدرجة الثانية وليس لهذا القطار السريع سوى درجتين أولى وثانية كما هي معظم القطارات السريعة في أوربا قلمَّا قارب نصف الليل سألت مأمور القطار عن وقت وصولنا إلى لوزان فقال لقد قطعناها أما رأيت كيف وقفنا بها بضع دقائق قبل الحادية عشرة فقلت سامح الله المأمور الإيطالي فقد قصر في بيان ساعة الوصول بالضبط فقال لا بأس من ذلك فإنك تنزل في فالورب وتنام هناك وأنت هل كان أحد في انتظارك على المحطة في لوزان قلت اللهم لا. قال: إذًا تبيت في فالورب وفيها نزلان ومن الغد تعود إلى لوزان وأنا لا أدفعك أجرة عن المسافة التي ركبتها فوق تذكرتك لأن ما جرى ليس من صنعك ثم أنزلني من القطار لما وصلنا إلى فالورب وحمل لي أحد الصندوقين اللذين كانا معي وحملت أنا الآخر فأبقيناهما في محل الأمانات في المحطة وخرج معي ودلني على سمت الفندقين وسمى لي اسمهما وخيرني بين أحدهما ولما شكرته قال لي هذا بعض ما يجب فانظر بالله عليك إلى هذه الأخلاق التي قلمَّا تراها من خادمك دع من ليس بينك وبينه صلة ولا يعرفك ولا تعرفه وليس هو مكلف أن يضيع وقته معك على هذه الصورة في مثل ذاك الوقت والبرد قارس للغاية.

ذلك فإن الواحد منهم يشرح لك محل مقصدك بأوضح عبارة ممكنة وإذا شكرته لا يرى أنه يستحق الشكر.

القاعدة الخامسة: أن يعرض كل شيء أمام السائح من دون أن يعجز بمطالب مبرمة. وذلك أنك تصل إلى المحطة فلا تجد حمالًا بل أنت تصرخ حمال فيجيبك ولا تجد عاملًا من عمال الفنادق بل تجد لوحة موضوعة في مخرج المحطة فيها أسماء الفنادق في البلدة على اختلاف درجاتها ولا تجد حوذيًا يريد أن يركبك في مركبته ولا سائقًا يريد أن يستاقك في سيارته بل إذا أنت طلبت واحدًا منهم أتاك سريعًا بأدب. أما وجود الشحاذين الذين يطلبون صدقة كما تشاهد في إيطاليا فهذا لا أثر له لأن الشحاذة ممنوعة هنا أكثر من فرنسا ولا تجد أحدًا يتعرض لك لابتياع شيء منه وتحسين بضاعته بل تراها على اختلاف أنواعها معروضة في الزجاج وقد كتبت عليها أسعارها وهذه أخصر طريقة وأشرفها في قاعدة العرض والطلب وهكذا بائع المرطبات والمشروبات يكتب عليها أسعارها ويجلس في المحطات بحيث تراه ولا يسألك شيئًا.

القاعدة السادسة: إرضاء جميع الأذواق والحاجات حتى الغريب منها واجتناب ما يكدر وإذا وقع خلاف فيراعى ذوق الأكثرية. ولأجل استمالة قلوب السياح عني السويسريون بحسن الانتفاع من بلادهم من كل وجه وضاعفوا المسليات والمفرحات فتقرأ في نشراتهم التي يستولون بها على عقل الغريب ما يشير إلى أن في بقعتهم ما يرضي جميع المشارب والأمزجة من أرباب الصفاء إلى طلاب الخلاء إلى المولعين بالألعاب الرياضية إلى الراغبين في التصعيد في جبال الألب إلى من يريدون التسلي إلى من يرغبون في التعليم إلى من يؤثرون الوحدة إلى المصورين والطبيعيين والأثريين وكل و احد يخاطبونه بما يشتهي ويدلونه على ما يهمه.

نعم وفروا الراحة لجميع الأذواق وقاموا بما يرضي الأرواح والأشباح فترى أوقات الأطباء معينة مذكورًا إلى جانبها أوقات القداديس والمواعظ وعنوان الطبيب مع عنوان الكاهن أو الواعظ. ولا يأتون ما تشمئز منه نفس السائح حتى إن دفن الموتى لا يجري في أوقات الصيف إلا قبل الشمس حتى لا يقع نظر السائح على ما ربما تشمئز منه نفسه فيذكر الموت في بلاد لا يجب أن يكون فيها إلا الصفاء والرخاء

وكثير من هذه الأعمال تقوم بها شركات لأن فكر الاشتراك منتشر للغاية عند السويسريين فمن شركاتهم شركة المنتدى الأدبي السويسري وهذه عنيت بتربية الأدلة وتعليمهم ليصعدوا مع السياح في جبال الألب وقد فتحت لتعليمهم ثلاث مدارس في أهم البلاد الجبلية وضمنت لهم حياتهم بمبلغ يربو على ثلاثة مليارات وربع من الفرنكات وعددهم نحو ٩٠٠ يدفع لهم المنتدى في السنة نحو نصف التقاسيط وهناك شركات لا تحصى في كل مديرية لتحبيب البلاد إلى الأمم ونشر ما ينبغي عنها من مالهم وربما أعان بعضها المجالس البلدية على تحسين حالة البلد أو القرية إذا كان هناك نقص يجب تداركه لاستجلاب رضا الغريب فكان من أثر هذه الجمعيات تكثير سواد القادمين على السويسريين سنة عن سنة.

والحكومة لم تدخر وسعًا في هذا السبيل فبذلت الأموال عن سعة في المدن والدساكر فتحت الشوارع الجميلة وجملت الأرض وعبدت الأرصفة الفسيحة وأنشأت المتنزهات الظليلة والحدائق العامة وأقامت فيها المقاعد الكثيرة ليجلس عليها من أحب وأدخلت الكهرباء إلى كل مكان وكذلك التلفون والمياه الطاهرة النقية وأقيمت القهاوي المهمة في جميع المحال التي يلحظ أن المسافر يقصدها.

وقد أعد السويسريون جميع الألعاب الرياضية التي يحبها الإنكليز كالتينس والفوت بول وغيرها دع أيام الشتاء التزحلق والتدحرج في الثلج (لالوج والسكى والباتناج) عاداة أولع الغربيون بها تقليدًا للإنكليز وكل سنة يموت في خلالها من المرتاضين المئة والمئتان ومع هذا ترى النساء والرجال يرتاضون هذه الرياضة الخطرة ويزيد عددهم كل سنة عن أخرى. وبذلك كثر ترداد الناس إلى سويسرا في الشتاء ولا سيما الإنكليز والأميركان. ويقدر عدد من يقصد سويسرا كل سنة بزهاء مليوني نسمة فإذا فرض أن كل واحد ينفق عشرين ليرة فيكون المجموع أربعين مليونًا تأخذها سويسرا في أشهر معدودة من السنة من الألماني والإنكليزي والروسي والنمساوي والمجري والفرنساوي والإيطالي والاسبانيولي والبرتقالي واليوناني والمصري والهولاندي والأميركاني والبلجيكي والسكانديناني وغيره وللألمان المقام الأول في كثرة العدد وهم يؤثرون النزول في البيوت لرخص العيش فيها.

ويقدرون عدد الفنادق الكبيرة بزهاء ألفي فندق في سويسرا كلها من الطراز الأول والثاني أما الفنادق البسيطة والبيوت فهذه أكثر من أن تعدو ما وصلت هذه الصناعة في إقراء الضيوف إلى هذا الحد من الارتقاء إلا بالثبات والعمل والتفنن والعلم حتى أصبح السويسري معلمًا للأمم في صناعة الفنادق وكثير من مدن أوربا وحماماتها المعدنية ومتنزهاتها البحرية بيد أناس من السويسريين. ويقدرون عدد السرر الموجودة على الدوام في هذه الفنادق بنحو مئة وثلاثين ألف سرير وعشرة آلاف سرير احتياطية.

وما برحت شركة الفنادق السويسرية منذ أسست سنة ١٨٨٢ وهي تتفنن في خدمة الفنادق والإنزال واستجلاب أنظار العالم المتمدن ولها جريدتان لبث أفكارها توزعها مجانًا دع المنشورات والكراسات والكتب

التي لا تقتصر في توزيعها وممَّا أنشاته مدرسة لتعليم صناعة الفنادق يتعلم فيها مدير الفندق تعليمًا على أسلوب معقول وذلك لأن ضرورة المباراة وحاجات الزبن وصعوبة الحياة الحديثة تجعل صناعته مشكلة يومًا بعد آخر ولذلك أحدثوا مدرسة داخلية في ضواحي لوزان واسعة الأطراف مطلة على البحيرة وفيها محال للألعاب الرياضية وجعلتها داخلية وشددت قانونها فقضت بأن ينام طلبتها في الساعة العاشرة وتطفأ المصابيح ويمتنع فيها جميع أنواع اللعب بالورق والقمار ومنعت التدخين والخروج بدون رخصة وأن يذهب الواحد إلى غرفته حتى في النهار بدون ترخيص وأن يختلف إلى الأماكن العامة وأجرة المدرسة أو ثمن الأكل فيها فقط ١٢٠ فرنكًا في الشهر لابن سويسرا و١٥٠ للغريب ومدة الدراسة ثمانية أشهر ويسأل فيها الطالب في الأكثر في اللغات الحية ويجب أن تكون سنة من ١٦ إلى ١٨ وتدرس في هذه المدرسة الفرنسوية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والحساب والجغرافيا (الجغرافية العامة وجغرافيا طرق المواصلات) وتاريخ سويسرا والتعليم الوطني وحسن الخط والحساب (أصول معاملة الفنادق والمعاملات التجارية على أصول الدفاتر) ومعرفة الحاصلات ونظريات في الخدمة ودروس في التنظيم وحسن الهندام وتقديم الطعام وحفظ الصحة والرياضة البدنية والألعاب والرقص. وبعد أن ظهرت فوائد هذه المدرسة أنشئت عدة مدارس في سويسرا كلها للوفاء بهذا الغرض ولكن الظاهر أن مدرسة لوزان أرقاها.

وأنشأت شركة الفنادق تعلم أناسًا فن الطبخ وعهدت إلى خبراء يمتحنون من يريد الدخول في هذه الصناعة بعد أن ينال شهادة منهم بتقدمه فيها. ويقدرون رؤوس الأموال التي وضعتها الفنادق بنحو ثمانمائة مليون فرنك وما برحت على ازدياد وأرباحها كذلك في اعتدال لأن السويسري يرضي بالربح القليل جريًا على ما تستلزمه القاعدة الاقتصادية.

وتختلف أجور الفنادق فمنها ما يدفع فيه الواحد في اليوم مائتي فرنك ومنها ما يأكل فيه وينام كل يوم بأربعة فرنكات وكل على حسبه ويقدرون عدد المستخدمين في الفنادق بزهاء خمسة وثلاثين ألفًا معظمهم من النساء وفيهم الغرباء يدفع إليهم ١٦ مليون فرنك عدا الحلاوين التي تقدر بثلاثة أضعاف هذا المبلغ ومن الصعب تقدير ما تربحه البلاد كلها من السياح والمعروف أن أرباحها من ذلك تجيء بعد أرباحها من صناعة الحرير والتطريز والساعات اللهم إلا إذا حسب من ينتفعون من الغريب بالواسطة فإن أرباح السياح يكون لها المنزلة الأولى وبها اغتنت سويسرا بعد أن كانت فقيرة.

طول الخطوط الحديدية في سويسرا نحو خمسة آلاف كيلو متراي ١٢ كيلو مترًا في كل عشرة آلاف متر مربع وقدر بـ٩٥ مليونًا عدد من ينتقلون كل سنة على خطوطها ولها طريقة جميلة في إعطاء أوراق اشتراك فيدفع الواحد ٤٥ فرنكًا يأخذ بها ورقة في الدرجة الثالثة يركب بها أي قطار أحب مدة خمسة عشر يومًا ويدفع ٦٥ في الدرجة الثانية و٩٠ للدرجة الأولى. هذا عدا الخطوط الكهربائية والخطوط الحديدية الجبلية والحوافل. ولسويسرا ١٢٠ سفينة تجارية في ١٧ بحيرة كبرى من بحيراتها تغدو وتروح في نقل الركاب تنقل زهاء ثمانية ملايين راكب في السنة وهي دائمًا تنتظر القطارات والقطارات تنتظرها. والبرد متصلة علائقها مع السكك الحديدية وفيها جميع أنواع الراحة للغريب ومراكز البرد وصناديقها كثيرة حتى لقد ذكرت إحدى الصحف مؤخرًا ما مثاله: ينم عن ارتقاء الشعب كثرة مواصلاته البريدية وكثرة ما يبتاعه من الصابون وقد امتازت الدانيمرك بكثرة بردها فإن لكل ٢٣٤ ساكنًا فيها صندوق بريد وفي سويسرا لكل ٢٨٦ نسمة صندوق ولكل ٣٢٠ في لوكسمبرغ صندوق ولكل ٤٢٤ ألمانيا صندوق ولكل ٤٧٢ فرنساويًا صندوق ثم تجيء النمسا

فإنكلترا فالبرتقال أما العثمانية فقد أحرزت الدرجة الأخيرة إذ ليس عندها غير صندوق واحد لكل ٦٩,٣٠٠ عثماني! هذا بعض ما عرفته عن سويسرا وما يأتيه الأفراد والحكومة لجلب السياح إليها حتى أصبحت فندق أوربا حقًّا وصدقًا.

سويسرا: تفننها في الإعلانات
٦٢

لا ترى في مدينة سويسرا نقصًا في فرع من فروعها وعمل من أعمالها فكل مخزن وكل دكان وكل إدارة وكل معمل وكل شارع وكل حي وكل دار وكل منزل صغير وكل دائرة وكل مدرسة بل وكل مستراح وكل شيء كتب عليه اسمه وعمله وما يجب للداخل إليه والمعاملة معه بحيث لا يحتاج الإنسان أن يسأل أحدًا وربما إذا ترويت قليلًا بالنظر لوضوح هذه الكتابات تطوف سويسرا كلها وقلمًا تطلب من يدلك على من تقصده إذا كانت نمرة محله واسم شارعه في جيبك. خاصية غريبة قلمًا تجد مثلها حتى في كثير من البلدان الراقية. بل قد كتب على الأبواب الخاصة والعامة (ادفع) أو (اقفل) وكتب على المراحيض (ارفع) أو (اخفض) لتطهير المكان وكتب على بلاس الباب (الرجاء مسح رجليك) وكتب في المدارس (إياك وإدخال عصاك أو مظلتك إلى الداخل) وكتب على الصور والتماثيل (ممنوع مس شيء) وكتب على صناديق البريد (تفتح ساعة كذا ودقيقة كذا) ولو أردنا تعداد مثل ذلك لطال بنا المطال وسئم القراء تفاصيل لم يسمعوا بها ولا تخطر لهم ولا في عالم الخيال.

ومن يظن أن في دور البريد صناديق تدفع إليها ثمن الطابع كما هو في بعض بلاد أوربا الراقية فينزل إليك فتلصقه على كتابك وفي صناديق

البيوت التي تعلق في دهليز الدار وتكون هذه مؤلفة على الأكثر من خمس أو ست طبقات كل طبقة شقتان أو مسكنان فيجيء الساعي ويضع كتب كل منزل وجرائده في صندوقه حتى إذا وضعها يطن جرس من داخل الصندوق فيسمع أهل المنزل فينزلون ويأخذون بريدهم كل ذلك تخفيفًا على الناس من الحركة بدون لزوم وفي المخازن والمحال العامة صناديق للقبض والصرف لا تغلط في العد والحساب وتحصي على العامل ما أباعه في يومه.

ذكرنا هذا وإن كان بعضها لا يدخل في باب الإعلان الذي هو المقصود بهذه الجملة فقد بلغ التفنن بالإعلان في الغرب حدًّا من الارتقاء لا يكاد يوصف وأظن سويسيرا إن لم تكن أرقى الغربيين في التفنن بإعلاناتها فهي من أرقاهم بلا جدال وكفاها فخرًا أنها لولا الإعلان عن بلادها ما استطاعت أن يكون لها هذا الغنى الدثر والسعادة الشاملة فعرفت الناس بقدر بلادها وجمال أصقاعها وربما أفرطت في ذلك أحيانًا لمقتضى الوصف الشعري ولقد اطلعت على كثير من الكراسات التي توزعها مكاتب الاستعلامات مجانًا على طالبيها فما رأيت أكثر من مهارتهم ي إيجاد المزايا لكل مدينة ولكل قرية ولكل طريق ولكل غابة في أرض سويسرا

وكل شيء هنا بالإعلانات إذا لم تقرأ أصحفها لا تهتدي إلى ما تريد ابتياعه أو عمله وقد يكون لها جرائد خاصة بها اسمها جريدة إعلانات مقاطعة كذا ومنها ما يطبع الثلاثين والأربعين ألفًا في اليوم لا تكاد تخلو منها دار واشتراكها عشرة فرنكات في السنة تصدر في ثماني أو عشر ورقات من حجم جريدة المقتبس وكلها إعلانات إلا الصفحة الأخيرة أو الصفحتان الآخريان ففيهما حوادث ونكات قد يكتفي الواحد بهما للوقوف على حركة بلاده على الأقل. وكل جريدة مرتبطة مع شركة

إعلانات تبتاع منها قدرًا معينًا من الصحيفة وهي تفتش لها على إعلانات تناسب سعة انتشارها ومكانتها. كنت أتلهى في الأحايين بقراءة بعض الإعلانات في الصحف لأعرف منها روح الشعب وحركة تجارته وعمله فكنت أستغرب في الضحك عندما أقرأ السذاجة تغلب على إعلاناتهم والتفنن فيها آخذ مأخذه من النيقة والعناية.

فمنهم من يعلن عن ١٠٠ كيلو من الجبن من جنس كذا بثمن كذا ومنهم من يقول إن عنده رأسين من البقر عمرهما كذا وهما يصلحان للذبح ومنهم من يقول يحب أن يبيع خمس نعاج عجفاء وآخر عشرين رأسًا من الغنم وبعضهم يعلن عن لبنه وآخر عن زبدنه وآخر عن بيع عربته أو دراجته أو دثارد أو صندوقه أو ثيابه وآخر عن خنزيره الذي علفه وغيره عن حذائه الذي ما أتلفه. وتجد آخر يعلن عن رفشه وبعضهم عن عفشه وآخر عن خزانته وبعضهم عن سريره وبعضهم عن آلة موسيقاه أو محراثه أو منكاشه أو مجرفته أو حصادته وعصارته ومذراته وآلة تصويره وآلة خياطته وآلة حياكته وآخر عن كلبه والصدق يغلب عليهم في إعلانهم عن مناعهم وآنيتهم وأدواتهم.

أما التفنن في الإعلان عن الاستخدام وطلب عمل في مخزن أو حقل أو إدارة أو منزل ذكورًا كانوا أم أناثًا صغارًا أم كبارًا فهذا ممَّا بلغ الغاية التي لم يبق وراءها وراء فكل طالب وكل طالبة يضع شروطه ومزاياه وعمله وربما الأجرة التي يريدها بأخصر عبارة تستهوي القارئ وتستدعي الراغب فيه إلى مفاوضته ومخابرته على أسرع ما يمكن وكل يوم نقرأ إعلانات كثيرة في طلب حالب بقرات تبلغ عدد كذا في محل كذا بأجرة كذا ومستخدم لمخزن يعرف كذا وطاهية تحسن إدارة بيت فيه كذا من الأنفس وبواب لمحل كذا وسائس بأجرة كذا وحوذي وسائق وراع كذلك وحراث ومجلد ووراق وسكاف ومطرزة وعاملة في معمل إلى غير ذلك

من الأساليب التي لم يسمع بهاالشرق وهي من اختراع الغرب لأن الإعلان نشأ فيها ومنه نشأت الجرائد.

الإعلان عن الحاجيات والكماليات لطيف ونافع ولكن ما كان يظن أن الغربيين إذا أعلنوا عن بيع كذا وإيجار كذا وعمل كذا أنهم يتزوجون بالإعلانات ويستمتعون بالإعلانات أيضًا تساوي في طلب ذلك الرجال والنساء لأنهم يعتبرون الزواج وما يشبهه من الحاجات الطبيعية التي لا عيب فيها وغاية الأمر أنهم يعلنون عن ذلك بدون تسمية اسم الطالب والطالبة. وهذه الطريقة كانت البادئة بها فيما أظن جريدة (الجورنال) الباريزية ثم تبعتها على الأثر جرائد العالم وكان للسويسريين حظ وافر منها وإن كان عدد الطالبين والطالبات أقل من عددهم في باريز.

وذلك بأن يطلب أحدهم خادمة تستخدم لكل شيء بأجرة كذا على أن تقوم بعمل كذا وأن يكون عمرها كذا من السنين أو أن الخادمة تطلب ذلك ولا تتوقف عن أن تصف صفاتها وجمالها وسنها وتصف رزانتها ووقارها. أكتب هذا وأمامي صحيفة إعلانات لوزان وفيها كثير من هذا القبيل منها أن امرأة إسرائيلية تريد التعرف إلى زوج عمره بين الخامسة والعشرين والثلاين وأن تكون له ثروة ثم وصفت عمرها وما تملكه. ومنها أن عقائل وأوانس يردن أن يتعرفن إلى خواجات تكون لهم مراكز طيبة ومنها أن شابًا في الثالثة والثلاثين لا يتناول المسكرات حسن الخلقة والخلق من كل وجه له منصب حسن في الأرياف يريد أن يتعرف إلى فتاة في الخامسة والعشرين إلى الثلاثين ويؤثر أن تكون مسيحية ومعودة النظام ويقبل بأن تكون حاملة شيئًا من النقود وأنه رزين لا يفشي سرًّا وإذا أرسلت إليه الصورة الفوتوغرافية يعيدها في الحال والرجاء أن يكتب في ذلك بنمرة كذا لإدارة جريدة لوزان.

والقوم هنا لا يكتفون بتعليق إعلاناتهم على الحوائط والمركبات في السكك الحديدية والكهربائية وعجلات النقل وفي الصحف والمنشورات والكراسات وعلى الأبواب والنوافذ ورؤوس الأبنية بل إن التاجر يعلن عن محله حتى في الورق الذي يصر لك به قميصًا أو بدلة أو كتابًا أو حذاء أو منديلًا أو ورقًا أو أي شيء تبتاعه بل إن الخيط الذي يربط به الإضبارة أو الرزمة قد كتب عليه اسم محله ونمرته وما فيه وهكذا في جميع ما يخطر ببال.

وتعتقد جميع المحال التجارية والشركات الصناعية والمدارس وغيرها أنها إذا لم تكثر من الإعلان عنها يتناساها الناس وتقل أرباحها وهذه لوزان لولا ما تفنن أهلها في الإعلان ما أصبحت عاصمة العلم في سويسرا الفرنساوية وبلغ طلبة كليتها ألفًا وأربعمائة منهم نحو ألف غريب من غير السويسريين وهكذا المدارس الخاصة التي يعيش بالعلم فيها أناس لا يستقل بعددهم ومنها ما يدرس فن تدبير المنزل وآخر الفنون الجميلة وغيرها التجارة وبعضها اللغات وبعضها الألعاب الرياضية إلى آخر ما تفننوا فيه فجاء الغريب يستفيد منه فكان للوزان فصلان فصل الصيف يكثر فيه السائحون للنزهة وفصل الشتاء يكون خاصًا بالطلاب والمتعلمين ويستفيد من ذلك أ هل البلاد مئات الألوف من الليرات.

وبلغ من تفنن القوم بالإعلانات أن أحدهم ألف كتابًا في فن الطبخ فكسد كساد بضاعة العلم في بلاد العرب ففكر فلم يجد أحسن من أن يعلن أن الفتاة التي تراجعه مرسلة إليه ثلاثة فرنكات يقدم لها خير نصيحة قبل زواجها تكفيها غوائل الدهر وحوادث الأيام فكان يبعث لكل مرسلة بالمبلغ المطلوب بنسخة من كتابه ويقول لها تعلمي هذا فباع من كتابه ثلاثة آلاف نسخة. وكتب بعضهم إذا أردت أن تغتني فاعمل عملي وأنا لا أعلمك ما عملت إلا إذا بعثت بكذا فرنك حوالة. فكان جواب هذا

الشاطر لمن طلب إليه النصحية أن يقول له اعمل عملي فتغتني لا محالة أي اكتب في إعلانك كما كتبت وهناك المال يفيض عليك.

ولكن هذه الطرق نادرة جدًّا والصدق هو الغالب على الإعلانات كما قلنا ولذلك اعتمد الناس عليها وزادت عنايتهم بأمرها وأسست لها البيوت والشركات المهمة التي تدخلها فتظن نفسك في مصرف كبير أو معمل خطير. والإعلانات مادة الصحف في الغرب وكثير من أمهات جرائدها لا تصدر يومًا واحدًا لولا الإعلانات لأن ما تأخذه من القراء والمشتركين لا يبلغ ثمن الورق مع أنها تطبع بمئات الألوف فتأمل يا تاجر بلادنا.

سويسرا: التربية العملية
٦٣

من أعظم أسرار امتياز الغربي عن الشرقي إن الفرد عندهم يعيش بنفسه لنفسه ونحن نتكل في عيشنا في الأغلب على الوالد والوالدة والقريب والحكومة ويقل جدًّا فيهم من اغتنى من غير المذاهب الطبيعية في المعاش من صناعة وزراعة وتجارة وأقل منه فتى أو فتاة في مقتبل العمر تقعد به همته عن اتخاذ أسباب الكسب انتظارًا لإرث ربما يورثه إياه أبوه أو أمه أو لوظيفة تليق بعظمته يتناول راتبها الباهظ بعمل ضئيل قليل.

حالة تدهش في الغرب من عيش الاستقلال ونحن حالنا على ما تعهد من عيش الاتكال الذي أنقص عدد العاملين والعاملات وقذف بنا من خالق مجد وسعة إلى دركات ذلة وفاقة. كلما ذكرنا وأيم الحق إن في دمشق نحو ثلاثة عشر ألف شحاذ أكثرهم أصحاء أقوياء نقضي العجب من حالنا ونسجل بأننا سواء وحكومتنا في هذا النوم أو التناوم عن السعي

في مداواة أمراضنا الاجتماعية وبدون ذلك لا تقوم لنا قائمة ولا نتحرر من قيودنا السياسية والاقتصادية.

وإني آسف وأبكي لمئات من الشبان في سورية ولا سيما في دمشق وحلب وحماة وطرابلس والقدس سئموا الحياة وسئمتهم الحياة لبطالتهم وهم يعيشون عالة على أهلهم ومنهم الموسع عليه في رزقه لا يتنزلون للاحتراف بحرفة ولا يرون أنه يليق بهم إلا أن يتصدروا على مقاعد الحكم آمرين ناهين يؤثرون البطالة منتظرين أن يموت أولياؤهم ليستولوا على أموالهم وفي الغالب أن يموت الموسر عندنا وهو موسر بالنسبة لمحيطه ويخلف أولادًا كثارًا تقسم بينهم الثروة فينال الواحد جزءًا قليلًا لا يستطيع إنماءه ولا يقوم بتفخله وبذخه هذا إذا لم يكن فاسد الأخلاق ولم يصرف دخل سنة في شهر وهناك بشره بالفقر إلى أرذل العمر.

أما الغرب فحاله غير حالنا إذا تعلم الولد التعليم الابتدائي غالبًا يبدأ أهله يقطعون عنه راتبه ويطالبونه بأجرة الدار وثمن الطعام ليلقي بنفسه في معمعان الحياة ويعلم أنه فرد مسئول عن نفسه لا يقوم بإعالته غير عمله ولهذا مئات الألوف من الأمثلة ولقد قلنا في مقالة سبقت أن ليس في الأرض امرأة ضاهت الرجل في عمله كالمرأة السويسرية فلا تكاد تجد في النساء من لا يحترفن في هذه الجمهورية السعيدة غنيات كنَّ أو فقيرات ولذلك تزيد ثروة البلاد يومًا بعد آخر وترتقي في كل فرع من فروعها المدنية الحيوية. وحال معظم أمم الحضارة كذلك.

أكتب هذا وأمامي أربع فتيات في النزل الذي أويت إليه في لوزان لا أطلب لوطني إلا أن يكون رجاله دع نساءه في درجتهن من التفاني في الحياة العملية والتناغي بحب الاستقلال في الأعمال. الفتاة الأولى

إنكليزية والثانية ألمانية والثالثة سويسرية فرنساوية والرابعة سويسرية ألمانية وكلهن سواء في كره الاتكال ومثال صالح غريب المثال.

قالت لي الفرنساوية السويسرية وهي في الحادية والعشرين من عمرها تعطي دروسًا في الموسيقى وقد سألتها عن والدها وحالته في الدنيا: أنه متعهد أبنية ولنا بيتان يحتويان على زهاء عشرين مسكنًا نؤجرهما في (شالي) من ضواحي لوزان وشقيقي الواحد صاحب نزل في نيس والآخر معلم بستاني في لندرا فقلت لها مثلك في الشرق يستريح ولا يعرف إلا الأزياء والرفاهية فقالت إن الناس كلهم في سويسرا يعملون وكل واحد يعيش لنفسه فليس من العدل أن أعيش عالة على والدي أو والدتي ولا على أحد أشقائي بل أعمل وأجمع ثروة لنفسي عملًا بسنة العاملين والعاملات.

أما الفتاة الإنكليزية وهي في الحادية والعشرين أيضًا فقد هجرت بلادها وجاءت لوزان تدخل في إحدى البيوت الخاصة التي توفرت على تعليم الفتيات اللائي تخرجن من المدارس العليا في إنكلترا وألمانيا وروسيا أو غيرها وأردن أن يتقدمن في معرفة الفرنساوية وآدابها والرياضيات البدنية والرقص والغناء وغير ذلك من لوازم المرأة الأوربية الراقية التي تليق لترأس المجتمعات العالية والتصدر في الردهات والقاعات. قالت إنها تعلم الإنكليزية وهي لا تتناول مالًا وإنما تعيش مع الفتيات في مدرسة وتتعلم الإفرنسية بهذه الواسطة. وقد ذهب الفتيات خلال عطلة رأس السنة إلى الجبال للتزحلق والتدحرج والتسلق على الثلج فأقفل باب النزل فعرض عليها هي ورفيقتها الفتاة الألمانية أن يذهبا مع الفتيات فآثرتا البقاء في لوزان فجعلتهما مديرة تلك المدرسة في النزل الذي نحن فيه مدة العطلة تنفق عليهما ريثما تفتح أبواب منزلهاأو مدرستها.

أما الفتاة الألمانية رفيقة الإنكليزية فهي في الثالثة والعشرين وحالها أيضًا حال رفيقتها تعلم الألمانية وتتعلم الإفرنسية وتزيد عليها بأن تعطي دروسًا خارج المدرسة وأهلها أصحاب يسار في الجملة ولكنها تحتاج لتعلم الإفرنسية وهذه هي الواسطة التي رأت أن تعمد إليها في إتقان لغة هوغو وموسيه لتضمها في صدرها إلى لغة كيتي وشيلر.

أما الرابعة وهي ألمانية سويسرية فحالها أدهش من حال الفتيات الثلاث وذلك لأن والدها صاحب مخزنين في لوسرن وانتلاكون لو حسب ما يملكه على حساب بلادنا لعد من الأغنياء عندنا على أنه لا يعد في المحاويج بل المتوسطين هنا فأراد أن يعلم ابنه وابنته الإفرنسية لمسيس الحاجة إليها في تجارته وحتى يكونا على أتم الاستعداد لتلقي مصاعب الحياة فجاء بالولد وهو في السابعة عشرة يجعله في نزل في أرباض لوزان خادمًا يأكل وينام ويتناول راتبًا قليلًا ويتعلم الإفرنسية ويتمرن عليها بالعمل وكان تعلم مبادئها بالنظر في المدرسة.

وشقيقة هذا الفتى في التاسعة عشرة من عمرها شأنها شأن شقيقها تحب أن تتعلم الإفرنسية وتدبير المنزل وتعيش مستقلة فجعلها أبوها خادمة براتب ٢٥ فرنكًا في الشهر في النزل الذي نحن فيه وهي وحدها تتولى جميع أعمال المنزل إلا ملاحظة الطب فإن صاحبة الدار تنظر فيه بنفسها فترى تلك الفتاة من الساعة السابعة صباحًا إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلًا تعمل بكد لم أر مثله وتقوم بجميع أنواع الخدمة عل صورة مدهشة فبينا تراها تكنس بضع غرف في الدار وترتب فرشها وتصلح أدواتها الكثيرة أو تفرك الدهليز والممشى والزجاج والدرفات والأبواب إذا هي تتعهد المطبخ أو تخرج كالبرق في جلب حاجة من السوق أو تقدم الطعام على المائدة وترتب السفرة أو تجلو الطباق والصحون أو غير ذلك ممَّا يكثر عدده في البيوت الأوربية تعمل كل ذلك

ومنه الشاق الوسخ ومع هذا لا تراها إلا باسمة في حين حرمت من رفاهيتها في دار أبيها وعنده الخادمات والخدمة.

هذا مثال ممَّا رأيته بالذات من أمثلة التربية الاستقلالية في البنات هنا وبعدها هل يعجب المرء من غنى هؤلاء الأوربيين بعد أن عدوا كل عمل شريفًا اللهم إلا ما يثلم العرض ويعبث بالمروءة وهذا لا تكاد تخلو منه أمة مهما ادعت أنها أمة أخلاق وتدين وشرف.

كل فتاة من هاته الفتيات وفرت على أهلها بعملها مئة أو مئة وخمسين ليرة في السنة وربحت التعلم العملي والتدرب على الحياة الاقتصادية الاستقلالية فبالله عليك أيستطيع أحد أبناء الطبقة الوسطى عندنا وهي تعد من الفقراء في الغرب أن يقول لابنه اذهب إلى بلد كذا واخدم وتعلم فضلًا عن أن يقول لابنته علمتك القراءة والكتابة و الحساب فعلميها لمن يعلمك الطبخ وتدبير المنزل والخياطة والتفصيل.

رأينا في مصر والشام أناسًا من المساتير لم يعقهم عن تعليم أولادهم التعليم المطلوب إلا ضيق ذات يدهم وكثرة أولادهم لأنهم كلهم يريدون أن يعيشوا مرفهين ابن الحراث كابن الغنى صاحب المزارع والعقارات. ورأينا أناسًا فادوا بالمال واقتطعوا جانبًا من رؤوس أموالهم ليعلموا به أولادهم على أمل أن يعينوهم في أيامهم السود فكان من أولادهم من تعلموا تعليمًا ناقصًا ولم يكن منهم إلا أن عظمت نفوسهم وظنوا أنفسهم شيئًا مذكورًا وشمخت أنوفهم عن العمل إلا في الأعمال التي يصورها لهم الخيال إنها نافعة شريفة وذهب ما صرفه أولياؤهم من الذهب عبثًا.

الأولاد إذا ربوا كما يربى السويسري والألماني والإنكليزي بناته جاء منهم محكنون يعرفون قدر العمل والعمال ويدخلون في الحياة من الصغير فيرتقون إلى الكبير. يتهمون الألمان بالشح والفرنسيس بالاقتصاد

الزائد والإنكليز بقسوة القلب والحقيقة أن البشر كله من طينة واحدة يحن إلى أولاده ويستميت في ترفيههم ولكن الفرق بيننا وبينهم أنهم يلقنون أولادهم معنى الحياة المستقلة ونحن ننشئهم على حياة الاتكال والرضا بالقلة.

أيأتي يا ترى على الشرق الأقرب يوم ترى فيه الرجال والنساء صغارهم وكبارهم يعملون لنشهد أو أبناؤنا وأحفادنا مثالًا من الأمم التي تود البقاء لا الدثور والفناء أم نبقي هكذا يسرق بعضنا بعضًا ونعد عمله مهارة أو ينتظر صغيرنا كبيرنا ليموت فيرثه ونحسبه من الموفقين أم تضعف وطنيتنا وحبنا لبلادنا فنتركها تنعي من بناها إلى بلاد أخرى حيث الحياة سهلة والعيش مخضل.

طف المدينة والمزرعة وأدخل المعمل والمخزن وانظر الباعة والأشراف في سويسرا تجدهم كلهم لا يستنكفون عن العمل. في لوزان سوق تقام مرتين في الأسبوع على عادة معظم المدن الأوربية مثل سوق الأحد وسوق الجمعة في دمشق تباع في ذاك السوق جميع أنواع المأكول والملبوس والمنظور فترى فيه نموذجًا صالحًا من حاصلات البلاد وصناعتها وأكثرها رخيص قصدته عدة مرات للفرجة وابتياع بعض اللوازم فدهشت وقد رأيت بعض النساء الغنيات والفتيات البارعات الجمال يبتعن بأنفسهن حاجات بيوتهن يجعلنها في كيس براق من المطرز ويحملنها إلى مساكنهن وقد تكون بعيدة وعند أكثرهم على ما بلغني الخادمات والطباخات والوصيفات قلمًا يعهدن إليهن بشراء حاجة ولو طفيفة ويذهبن بأنفسهن لابتياعها.

وهكذا تجد الديمقراطية تشربتها نفوس الكبير والصغير فلا يجد أحد من المعيب أن يخدم نفسه وداره وأهله وسواء في الشرف من يكسح

القمامات والثلج من الشارع ويرزق خمسة فرنكات في النهار ومن يملك مصرفًا كبيرًا يعد ما يربحه كل يوم بمئات من الفرنكات ما دام كلاهما يعمل في دائرته بقدر طاقته ولا يتعلق بأحد وأول ما يسأل الزوج عن فتاة يخطبها قبل أن يسأل عن جمالها ما هي معارفها وما تستطيع عمله. فاللهم علمنا علمًا ينفعنا في نهوضنا حتى لا نخجل من انحطاطنا في أنفسنا دع خجالتنا أمام غيرنا فإن الفرق بين بلادنا وبلادهم أصبح كالفرق بين النور والظلمة والجنة والنار وما راء كمن سمع

قل سيروا في الأرض
٦٤

ليس كالسياحة تجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد في الاعتبار بحوادث الليل والنهار. وإني لأتمنى لكل من ساعدته الحال أن ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فإن النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهي تحتاج للنور وللحرارة وإلا فتذبل كالزهرة.

قال وليم هازلت من مفكري الإنكليز (إن الوقت الذي أمضيناه في السياحة الأجنبية مقطوع من عمرنا مفصول من حياتنا لا سبيل إلى وصله ولا وسيلة إلى إدماجه والمرء ما دام خارج وطنه رجل آخر غير الذي كان هنالك حتى إن المسافر ليودع نفسه فيمن يودع ولله در القائل: خرجت من موطني ومن نفسي. فمن أراد أن ينسى الحزن والشجن فليذهب إلى غير بلده من بلاد الله يجد في عجيب المناظر وغريب الأحوال سلوة وروحًا وتغيب من عينه مذكرات الهموم وباعثات الأسى ولذلك كنت أنفق حياتي خارج بلادي لو وجدت من يقرضني حياة أخرى أنفقها في وطني حتى أقضي حقوقه اهـ).

كلمات حكمة وخبرة ولذلك ترى أكثر الأمم رقيًا أكثرها سياحًا والعكس بالعكس. والإنكليز والأميركان هم في المقدمة ثم يجيء الألمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة وأمتنا العربية يكون محلها في قائمة السياح في الآخر بالطبع لأنها اعتادت سير القهقري وإنا لو أخرجنا المصريين من جملة السائحين في الغرب لا تجد لنا إلا عددًا يضحك بالنسبة لأرباب الرحلات من الأمم. أما العرب السوريون ممن يهاجرون إلى أميركا فهؤلاء لا يقصدون من رحيلهم إلا الكسب ولا يعرفون على الأغلب كيف يستفيد المرء من سياحته علمًا وعملًا.

نتمنى لأمتنا أن يسيح منها العلماء والوجهاء والتجار والموظفون وأرباب الصنائع والزراعات الواسعة ممن يمكنهم ولو بعض الشيء تطبيق ما رأوه عند من ارتقوا عنهم مراحل. فهذه الطبقات الغنية هي التي تستفيد بالاحتكاك بغيرها من أهل طبقتها في الغرب إذا أخذت على نفسها البحث والدرس خلال التنقل وترويح النفس.

السياحة لا تكلف اليوم من العناء والمال ما كانت تكلفه منذ مئة سنة فإن العارف قد يستطيع أن يطوف أهم عواصم العالم ولا ينفق في يومه أكثر من ليرة مرفهًا رفاهية لا تتيسر له في بلده ولو كان من أغنى أغنيائها لأن البلاد في الغرب كلها منظم ومعظم الفنادق والبيوت سواء في الأخذ بأسباب الراحة والعيش فيما خلا العواصم الكبرى سهل للغاية وهو أرخص ممًا هو في بلادنا فإن المصطاف أو المشتي في سويسرا قد يستطيع أن يكون في عائلة ولا ينفق في شهره ثمن الطعام والمنام الجيد أكثر من ١٥٠ فرنكًا وهذا قلمًا تجد له مثيلًا في بلدة أوربية اللهم إلا في المدن الصغرى أو القرى وكل مدينة من مدن سويسرا حرية بأن يتعلم فيها الشرقي سنين لا أيامًا ومن رأى مدينة أو اثنتين يكون قد رأى نموذجًا صالحًا من هذه المدينة الفاضلة.

بيد أن من يسيح في الغرب لا يصح له أن يتخلى عن غشيان العواصم الأمهات مقر المدنيات الضخمة كرومية ولندن وباريز وبرلين وفينا وهذه العواصم يكتفي منها السائح ببضعة أيام والأولى أن ينظر إلى دولاب الحركة في المدن الصغرى إذ يستطيع أن يحيط بها فكره أما العواصم الكبرى فإن أهلها قد ضاعوا فيها ولا تكاد تجد واحدًا منهم يعرفها حق معرفتها فباريز مثلًا كلمًا غبت عنها أشهرًا وعدت إليها تجد فيها غرائب جديدة وجواد فخمة لم تكن من قبل وكل شيء فيها يزداد على الزمن فخامة وعظمة فالفرع الواحد فيها إذا أراد درسه السائح الشرقي لا يتيسر له في أقل من بضعة أشهر ولكن النظرة الإجمالية يكفي لها خمسة عشر يومًا ومثلها سائر العواصم وأصعبها على السائح إحاطة لندن مدينة الثمانية ملايين نسمة ونيويورك مدينة الخمسة ملايين.

إن مدنية الغرب متشابهة في أكثر الأوضاع فمن رأى نموذجًا منها اكتفى والزيادة على ذلك من النوافل. من زار باريز مثلًا يشهد أعظم نموذج في الحضارة الحديثة. وخير لمن يعرف لغة مملكة في الأكثر أن يذهب إليها. وإن كان من يعرف لغة أوربية كبرى مثل الإفرنسية أو الإنكليزية يستطيع أن يسيح بدون عناء في كل مملكه ويتفاهم مع أهلها ولا سيما أهل الطبقة العليا والتجار والعلماء

ثلاث لغات أصول هي التي تفرعت منها لغات القارات الثلاث أوربا وأميركا وأوستراليا الانكلوسكسونية واللاتينية والسلافية فمن عرف الروسية مثلًا لا يشق عليه السياحة ف البلقان وأكثر النمسا ومن عرف الإنكليزية استطاع السياحة في أميركا الشمالية وأوستراليا ومن عرف الإفرنسية كانت عليه سياحة إيطاليا وأسبانيا والبرتقال والبرازيل والأرجنتين مثلًا من أسهل الأشياء.

أما من لم يكتب له الأخذ بحظ من هذه اللغات وأراد الاستفادة من الغرب فليس أحسن له من استصحاب ترجمان من بلاده ويكون ممن سبقت له الرحلة إلى ديار الغرب وإذا أريد الاقتصاد فالأولى أن يجتمع كل ثلاثة أو أربعة أشخاص ويرافقهم ترجمان مؤتمن عندهم وعندها تقل النفقة نحو الثلث. ولقد شاهدنا كثيرًا من أغنياء مصر ساحوا أوربا وهم لا يعرفون لغة من لغاتها ولكنهم بواسطة التراجمة استطاعوا أن يحسنوا التصرف بيد أن الأولى أن يكون المرء نفسه عارفًا بإحدى لغاتهم وهناك حدث ما شئت أن تحدث عن استفادته وسروره.

وبالجملة فإن الخوف من السياحة توهم ليس في محله فلا المال وقلته ولا عدم الإحاطة بلغة إفرنجية بل إن المحرك الأعظم في السياحة الإرادة ومن صحت عزيمته زعزع الجبال فما بالك بالسياحة وأبناء السابعة والثامنة اليوم يسيحون في أوربا وأميركا بدون أن يخشوا ضررًا والفتيات الجميلات يضربن في البر والبحر ولا من يتعرض لهن بسوء فهل من العدل أن يكون فتيان الغرب وفتياته أرقى منَّا كعبًا وأكثر إقدامًا ما دامت لنا في السياحة فوائد لا يقدرها الخامل في بلده والسياحة مدرسة لتعليم الكبار كما إن المدرسة هي المعلمة للصغار فاللهم علم كبارنا وصغارنا علمًا نافعًا.

نحن في البلاد الفرنسوية

٦٥

ليس عجيبًا أن ترى العثماني والإيراني وغيرهما من سكان آسيا الغربية والساحل الشمالي من إفريقية يطربون في البلاد الفرنسوية ويؤثرونها على غيرها من بلاد الغرب في التجارة والتعلم والنزهة فإن

معرفة لغة قوم هي مفتاح جميع هذه الأعمال وتعليل صحيح لعامة هذه الأحوال.

انتبهت فرنسا قبل غيرها لاستتباع الشرق الأقرب بتعليمه على مناحيها وتلقينه لغتها فكانت منذ زهاء قرنين تبعث البعوث وترسل المعلمين مبشرين بمدنيتها ولغتها فلم يمض زمن طويل وفرنسا إذ ذاك صاحبة الكلمة الأولى في السياسة الغربية قبل إنكلترا وألمانيا وروسيا إلا والخاصة في هذه البلاد يعرفون الإفرنسية ويأخذون عنها ويؤثرون الفرنسيس على غيرهم لأنهم لم يعرفوا غيرهم خصوصًا وإن المرونة التي يجدونها عندهم تشبه مرونتهم والفرنسيس عرفوا بلين الجانب وكثرة التفاني بتعليم ما عندهم لغيرهم لأنهم يرون لغتهم أرقى اللغات الأوربية وأمتهم في مقدمة الشعوب التي قاتلت لأجل الحرية.

إن ميل الفرنسيس [1] للابتكار في كل شيء دعا إلى نشر أفكارهم وأوضاعهم في بلادنا.

---

(١) كتب أحدهم مقالة افتتاحية في جريدة الأيكودي باري قال فيها: إنه ممّا أثبتته التجارب أن الفرنسوي خلق مخترعًا وقد أتى الفرنسيس أمثال لافوازيه وكوفيه وكلود برنال وبيشا وباستور من الأعمال العلمية ما استحقوا به أن يكونوا مؤسسين لجميع العلوم الحياتية والكيمياء والتشريع والفسيولوجيا والجيولوجيا وقامت أهم الاختراعات الغربية في الأربعين سنة الأخيرة على أيدي الفرنسيس فهم الذين اخترعوا سر التلغراف بلا سلك وأوجدوا صناعة الأتوموبيلات وعملوا مدفعًا من عيار ٧٥ وعثروا على الأسباب الرئيسة التي سمحت بالطيران. وهكذا في السياسة فإن الفرنسيس أول من أوجدوا في أوربا وحدة وطنية وهي الوحدة الفرنسية وأول من أسسوا وطنًا وهو الوطن الفرنسوي وهم كانوا أول الناشرين تحت ستار الحرية والمساواة الأفكار الثورية.
فالفكر الفرنسوي حاد ينبه بسرعة للصلات المجهولة في الأشياء وهو براق يدرك بدون كبير عناء المؤثرات التي تحدث بين أجزاء عناصر المادة فهو ذو خاصية تخدم حاجته للمعقول وحبه للوضوح. الفرنسوي جريء على مثال لويس الثالث عشر ونابليون والموت

الفرنسوي يتحرك في الهواء أسرع من الطير. وهو طيار خارق للعادة بجرأة طبيعية فيه تظنها بلادة منه ولكنه يستطيع أن يجعل للطيارين ولمراكز الطيران نظامًا معقولًا وإذا سقطت في درجات الأشياء الصغرى ترى الفرنسوي على هذه الصورة من الاضطراب وعدم الانتظام وقلة الاهتمام. ويقال في ذلك إن الفرنسوي يكره وهو على هذه الصورة من الحركة أن ينثني إلى ضرورة انتباه طويل متساوق ويشعر بأنه يخنع إذا لم ير نفسه مائلة إلى الأعمال المختلفة التي تحثه وإذا وجب عليه أن يعمل عملًا مجهولًا يحتاج إلى صبر. أما الألماني فهو على العكس من ذلك له قليل جدًا من النبوغ في الاختراع والإيجاد بل لا يكاد يذكر له شيء منه ولكنه مختص كل الاختصاص بالانتفاع بما اخترع وتنظيمه.

وما عدا الفلاسفة والموسيقيين في ألمانيا القديمة الذين اخترعوا وأوجدوا فإن الألماني لا يخترع لأن فكره ثقيل وبطيء ومفكر لم يخلق لهذه الأنوار الفجائية التي توحي بالمجهول ولكنه متى اخترع اختراع

الذي كثيرًا ما يكون جراء المخترع قلمًا يفرغه بل يبعث همته ويشحذ سيف مضائه. وللفرنسي ميل للحوادث وذوق في اكتشاف المجهول وهذا مما حدا بكثير من الضباط أن يتجشموا الأخطار إلى آسيا وأفريقية لفتح أراض جديدة واسعة وهذا الذوق هو الذي ساق فما مضى النورمانديين والبروتونيين إلى سلوك البحار التي لم يسلكها أحد ليؤسسوا مدائن في الشواطئ البعيدة.

هذا هو الوجه الحسن وإذا جئنا إلى نقيضه نرى الفرنسوي يخترع ولكنه ما قط عرف الانتفاع بثمرة اختراعه ولا يخفق ويعظم ما اخترعه. و؟؟ العقيمة تحمل إلى غيره الانتفاع بتطبيق ما أوجده هو. فهو يفتح المستعمرات بدمه وماله ولكن الألمان أو الإيطاليين أو الأسبانيين هم الذين يستثمرونها. اختراعاته في العلوم لا يقع عليها حصر ولكنه لم يستعملها قط لتحسين أدواته أو حاصلاته فقد أسس مثلًا الكيمياء ولكن ألمانيا هي التي وجدت في الصناعة الكيماوية موردًا عظيمًا من الثروة أي مليارًا وستمائة ألف مليون من الحاصلات السنوية منها نحو سبعمائة مليون صادرات وأنشأت تسعة آلاف معمل فيها مائتا ألف عامل يدفع إليهم ٢٦٠ مليون فرنك مشاهرات وأجورًا.

فهناك حدث ما شئت أن تحدث عن حسن استخدامه له فهو يحب العمل الذي يحتاج لثبات ولا يستعجل لأن الضروري عنده أن لا يعمل بسرعة بل أن يعمل بجودة وأن يكون على استعداد لحين الحاجة فيكون مجهزًا لساعة العمل ولا يبدأ قط بطيئًا.

جاء الألماني بعد الفرنسوي في الطيران ولكنه أدهش العالم بتنظيمه له فلم يخبط على غير هدى بل رأى بسرعة كل ما ينبغي أن يرى ووفاه حقه. له قليل من المستعمرات ولكنه يسكن مستعمرات غيره فينزلها التجار والصناع الذين يبعث إليها بها. الألماني لم يخترع التلفون ولكن لألمانيا الآن نحو مائتي الف كيلو متر من الأسلاك التلفونية أي أكثر من فرنسا وعدوا المخابرات التلفونية في بلاده بـ٨٠٠ مليون مقابل ١٩٠ مليونًا في فرنسا وما من قرية ألمانية مهما صغرت إلا وهي مرتبطة بهاتف تخابر به وإدارتها في البريد أول إدارة في العالم. وهي تعترف أن ليس بين كيماوييها الكثار واحد مثل لافوازيه وبرتلو ولكن لها معامل تجربية تعينها الحكومة والمدن والنقابات الصناعية. إن كان الفرنسوي مخترع الأصباغ الصناعية فالألماني بفضل مدارسه ومعامله أتى فيها بالعجائب حتى كاد يتخص بتجارة الأصباغ. وما من بلد يعنى فيها بتجديد أدواتها على الدوام لتكون كاملة من كل وجه على أحدث طرز كما يعنى في ألمانيا. وإلقاء أدنى نظرة على محطة من محطات سككهم الحديدية تشهد لهم بذلك إلخ.

ثم انتبه الإنكليز والأميركان ثم الألمان والطليان للأمر ولكن بعد أن رسخ التمدن الفرنساوي في النفوس وكثر أنصاره بطبيعة الحال مع أنه ربما كان في أوضاع الأمم الأخرى ما يماثله أو يفوقه. وإذا قبلت مصر والعثمانية وإيران أن تعلم الإفرنسية بصفة إجبارية في مدارسها مثل لغة

البلاد كان ذلك من أكبر المعونات على بث هذه اللغة البديعة فاتخذناها لغة التخاطب والتكاتب في التجارة والسياسة.

للبلاد المصرية والعثمانية والإيرانية في البلاد الفرنسوية اليوم مئات من الطلبة يدرسون العلوم المنوعة في مدارسها في حين لا تجد سوى عدد محدود من الطالبين في مدارس إنكلترا وأميركا وأكثرهم من المصريين والهنود أما في ألمانيا والنمسا وإيطاليا وروسيا فإن عددهم يعد من الأنامل والإيرانيون أكثر الشرقيين اختلافًا إلى مدارس روسيا للجوار والسياسة.

فإذا طربت النفس يوم دخولها أرض فرنسا وسويسرا الفرنسوية وبلجيكا الفرنساوية فذلك لأننا نشعر بأننا بين قوم يفهمون من نحن ونفهم من هم. إننا نستفيد هنا أضعاف استفادتنا في أي أرض سواها لأننا نجد تقاربًا في الأفكار والمناحي ولأننا نعرف تاريخ هذه البلاد كما نعرف تاريخ بلادنا وقد حصلت لنا على الزمن أنسة بأوضاعها المرنة اللطيفة ومن تعلم لغة قوم قلت ما بينه وبينهم من الفوارق وتيسر له أن يشاركهم ويشاركوه في كل ما لا يضر بعاداته واخلاقه الخاصة.

إن المدنية الأوربية تتسرب كل يوم إلى عقولنا في طرق مختلفة تنقلها الصحف والسياح والمدارس والجيش والأسطول بل ينقلها البرق والهواء ونحن لو أردت أن تجردنا ممَّا استفدناه منها منذ عهد محمد علي الكبير وسليم الثالث لرجعت بنا قرونًا إلى الوراء ظننتنا معها من أهل القرن السابع أو الثامن للهجرة على نحو ما تشاهد اليوم الأفغانيين أو المراكشيين أو الجاويين الذين سدلوا دون مدنية الغرب حجابًا كثيفًا فحرموا من حسناتها ولم ينجوا مثل غيرهم من شرورها.

إن سكان الشرق الأقرب إذا ذكروا الفرنسيس كثيرًا فذلك لأنهم يعتقدون فرنسا فاتحة العالم وممدنته على نحو ما كانت على عهد نابليون الأول ففرنسا هي التي وضعت في الحقيقة أساس النهضة المصرية الحديثة وفرنسا هي التي كانت كذلك في سورية منذ جاء نابليون عكا طامعًا في فتحها لأنها كانت مفتاح سورية حتى إذا جاءت حادثة الستين المشؤمة وكان لفرنسا اليد الطولى في إعطاء لبنان استقلالًا إداريًا عظمت تلك المنة على أهلها وعمت المدنية الإفرنسية بلاد الشام من طرق مختلفة خاصة وعامة وطنية وأجنبية رسمية وغير رسمية.

نحن اليوم إذا لجأنا إلى فرنسا في معظم حالاتنا فللأثر الناتج من تلك التربية والدعوة الطويلة المتأصلة ولا يضرنا الأخذ من مدنية القوم ولكن يضرنا الغلو والجمود فكما إن الفرنسيس أنفسهم لا يستنكفون أن يقتبسوا ما عند الأمم الأخرى كالإنكليز والألمان والأميركان مثلًا ممَّا ليس في أوضاعهم فنحن من مصلحتنا أن لا نكون حكرة لأمة فنأخذ عن كل قبيل أحسن ما عندهم ولا نقول هذا سويسري وذاك بلجيكي وهذا فرنسوي وآخر ألماني وغيره إيطالي أو إنكليزي فكلهم أرقى منَّا مراحل ونحن في حاجة لكل من يعلمنا مدنية تنهض بنا من خمولنا ليساوينا بنفسه بعد ونعد شيئًا مذكورًا في سلسلة المراتب البشرية.

رأيت كثيرًا من خاصة الطليان والألمان والإنكليز يشيرون إلى أن السوريين خاصة من بين سكان الشرق الأدنى يغالون بحب الفرنسيس وليس حتى في البلاد التي حكمتها فرنسا في أقطار الشرق بلد كسورية يحسن أهلها الظن بالفرنسيس فكنت أقول لهم إن ذلك صحيح ولكن لا على إطلاقه فإن القوم هناك درجات ومن يحبون الفرنسيس هم الذين أحسن هؤلاء إليهم بتعليمهم على أساليبهم وتلقينهم لغتهم العذبة فأممكم أيضًا إذا مدت يدها لسورية تعلمها لغاتها وأمجادها يعترف السوريون لها

بصنيعها ويصبحون زبنها في التجارة. وكيف يحب السوري ألمانيًا مثلًا وهو لا يعرف عنها إلا ما يقرأه في الجرائد الفرنسوية والكتب الإفرنسية وألمانيا حتى الآن لم تفتح لهم مدرسة راقية في سورية والفرنسيس ملأوا سهلنا ووعرنا بمدارسهم الدينية والعلمانية على اختلاف درجاتها.

لا ينال المرء إلا بقدر ما بذل. والأمم الانكلوسكسونية هي أرقى الأمم بأخلاقها وآدابها ولكن أنانيتها الكثيرة دعتها إلى أن أحبت في العهد الأخير الانتفاع من الشرق دون أن تبذل في سبيل رقيه درهمًا أو تخطو إلى إعلاء شأنه قدمًا. ولذلك يبقى الشرق الأقرب يتغنى بالفرنسيس والفرنسوية حتى ينافسهم غيرهم من أمم الحضارة الحديثة منافسة حقيقية. ولا عار علينا إذا صرحنا بأننا نطرب في أرض فرنسا لأننا لا نعرف غيرها في الواقع ونفس الأمر فقد سبقت فعلمتنا آدابها وذكرتنا أمجادها فنحن بها عرفنا الغرب والمرء لا ينفق إلا ممَّا عنده وعرفان الجميل لأهله طبع الكرام. ولا ينسى الأيادي التي لك عندهم إلا اللئام والسلام.

الحياة السياسية والاقتصادية في بلاد المجر

٦٦

تسكن بلاد المجر عناصر مختلفة قد يثور بينها ثائر الخلاف أحيانًا ولذلك كان لمسالة الجنسيات في الأرض المجرية شأن عظيم وحروب قلمية ولسانية لا تكاد تهدأ وتدور المناقشات في الغالب على برامج المدارس وعلى القدر الذي يجب أن يعطي للغة المجرية في التعليم في المقاطعات التي فيها رومان وسلوفاكيون وصربيون. وهناك اضطرابات تحدث زمن الانتخابات النيابية تتدخل فيها القوة المسلحة لتحمي حرية الانتخاب وأزمات وزارية قد تطول سنة وجلسات نيابية شديدة الوطأة قد

يتلاكم فيها النواب ويتضاربون وربما أطلق بعضهم عيارًا ناريًا على خصمه أو هدده بالقتل أو ضربه بكتاب وذواة كما حدث ولا يزال يحدث.

نحو نصف سكان بلاد المجر هم من العنصر المجري والنصف الآخر من عناصر مختلفة (ألمان وسلوفاكيون ورومانيون وروتنيون وخرواتيون وصربيون) بلاد أشبه ببرج بابل اختلطت فيها الألسنة وتبلبلت والمجريون يحاولون بكل ممكن أن يحترم غيرهم جنسيتهم باحترامهم لغتهم والاعتراف بتقدمهم السياسي والمدني وهذه هي حالة المجر ولولا أن العناصر غير المجرية مؤلفة من أجناس كثيرة ليس بينها أقل صلة وطريق الانتخابات النيابية الجارية في المملكة تحول دون أدنى مقاومة لما تم للمجر هذا التقدم على غيرهم.

ولئن حاول الإمبراطور فرنسيس يوسف ملك النمسا والمجر أن يصلح أسلوب الانتخاب بوضع الاقتراع العام منذ سبع سنين فإن مسائل الجنسيات ما برحت مقدمة على المسائل الاجتماعية وقد وقع التحكيم على أن تكون النمسا متجانسة بالجرمانية وأن يكون للمجرية حق التقدم في هنغاريا (بلاد المجر) وقد كان في مجلس النواب المجري سنة ١٩١١: ٤٥٣ مبعوثًا منهم ٣٨٧ مجريًا و٤٠ خرواسيًّا و٣٤ وطنيًّا وهذه نسبة تستدعي الاستغراب والمجلس الأعلى أو مجلس الأعيان مؤلف من أعضاء وراثيين مثل البالغين من الأرشيدوقة وأعضاء الأسر الشريفة التي تدفع على الأقل ضرية عن عقاراتها لا يقل عن ٦٠٠٠ كورون ومن أعضاء يعينهم الملك مدة حياتهم بإنهاء رئيس المجلس ومن أرباب المناصب العليا مثل كبار الحكام ومن ٣٣ أسقفًا كاثوليكيًّا و٩ أساقفة روم أرثوذكس و٦ يمثلون المذاهب اللوثرية والكالفانية البرتستانية ومن ثلاثة ينتدبهم مجلس نواب خرواسيًّا.

وللمجلس الأعلى أن يرد ما يشاء من المشاريع والقوانين التي يقررها مجلس النواب ولكنه لا يستعمل هذا الحق إلا نادرًا لأن مجلس النواب موقر في صدره وغاية ما يستطيع عمله أن يرجئ الإقرار على قرار مجلس الأمة

ومن الأمراض التي أصيبت بها بلاد المجر كما أصيبت بها فرنسا والعثمانية مرض كثرة الموظفين الذي يزداد استحكامًا اليوم بعد اليوم ففي إحصاء رسمي أخير إن في المجر ٣٠١٠٤٨٠ موظفًا في شعب لا يتجاوز أحد وعشرين مليون نسمة فإن الوزارة التي تولت شؤون المجر منذ سنة ١٩٠٦-١٩١٠ قد أحدثت عملًا لـ٤٥ ألف رجل والوزارة التي خلفتها أحدثت في العشرة الأشهر الأولى لتوليها الأمر ثلاثين ألف وظيفة. وهذا السواد العظيم من الموظفين ينفع الحكومة مدة الانتخابات النيابية لأنه يمثل نحو ثلث المنتخبين بيد أن كثرة الموظفين في الحكومة لا يفسر بأن الأشغال تمشي بسرعة على طريقة حسنة بل إن الوقت والمال والقوة تضيع في هذا التطويل والقيود. يساعد على ذلك الإهمال المغروس في طبيعية الموظفين على الأغلب ولا سيما في المجريين فمن لم يتابع البحث عن أوراقه ويلحقها من ديوان إلى آخر ويوصي صاحب الشأن تضيع وتهمل ولا نغالي إذا قلنا إن المجر على كثرة تغاليهم في التناغي باستقلالهم قد فتحوا للحكومة من أبواب التدخل في أمرهم حتى في المسائل الخاصة ما يصح معه أن يحكم بأن البلاد المجرية أكثر الممالك التي جعلت نفسها تحت وصاية حكومتها في كل شأن من شؤونها.

ولقد عددت مجلة القرن العشرين الحرة وهي لسان حال علم الاجتماع في بودابست عدة أحوال نابت فيها سلطة الحكومة مناب الإقدام الخاص والنبعة الشخصية فقالت إن الحكومة تعطي راتبًا للكاهن الذي يعمد الوليد وللموظف الذي يقيده في السجل وترزق المعلمين

وتوصي الطابعين وصناع الأدوات المدرسية وتدفع لمؤلفي الكتب المدرسية ولنقادها ولإنشاء دكات للمدارس ويستعمل خشب الحكومة وحديدها والحكومة تعاون المطابع ومخازن الدحان وعمال الدخوليات (أوكتروا) والكتاب والإخباريين وغيرهم والجمعيات العلمية والصناعية والزراعية والنقلية والمجمع العلمي والممثلين والمغنين وكل من لهم مشاريع يريدون إبرازها إلى حيز الوجود ولأرباب الضجة والسكوت وتدر المال على الصنائع الأهلية واستملاك محال الوقود وتساعد العامل الصغير والصانع الكبير ومنها يطلب الممثل قرضًا والصراف مالًا.

هذا وحرية الأديان والمساواة لم تتم في المجر إلا سنة ١٨٩٥ وكان للكثلكة المقام الأول ولرجال الدين سلطة نافذة ويكفي أن يقال إن مساحة بلاد المجر تبلغ ٣٢٤,٨٥٠ كليو مترًا مربعًا تملك الأسقفيات والأديار والبيع ١٢ ألف كيلو متر مربع منها وبذلك يحكم رجال الدين لأن من المال قوة فكيف فيمن اجتمعت له القوتان القوة الروحية والقوة المالية

أهم القوانين الدستورية في المجر ٤٥ قانونًا يرد عهد الأول منها إلى القرن التاسع أي إلى أحد عشر قرنًا وأهمها قانون سنة ١٧٢٣ و١٨٤٨ وضم النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ الذي تم الاتفاق بين المجر والنمسا على أن يدافع المجر عن مملكة النمسا كما يدافعون عن مملكتهم أنفسهم ويكونون مستقلين إلا في الجيش والبحرية والأمور الخارجية فيدفعون قسطًا صالحًا من المال لمعاونة حكومة فينا وتتعهد الأسرة المالكة النمساوية بالمحافظة على استقلال المجر وحرية البلاد واستعمال جميع قوة النمسا للدفاع عن سلامة الأملاك المجرية وملك النمسا يحكم المجر كما يحكم بلاده ولكنه يمثل مملكتين متباينتين ولا يكون ملك النمسا ملكًا شرعيًا إلا إذا أقر على تتويجه مجلس المجر ويقضي القانون

الأساسي في البلاد أن يقيم الملك ستة أشهر في فينا وستة أشهر في بودابست ولكن هذه العاصمة لا تنال حظ قدومه سوى شهر واحد على الأغلب وهو يتلطف كل التلطف مع الأمة المجرية إلا أن هذه لا تنسى ما نالها من سحق النمساويين لها في ثورة ١٨٤٨ التي لا يبرح المجر يذكرونها ويحتفلون كل سنة بذكرى مقتل الثلاثة عشر قائدًا مجريًا الذين اعدموا سنة ١٨٤٩ لاشتراكهم بحرب الاستقلال ضد النمسا ويسمونهم الثلاثة عشر شهيدًا وترفع الأعلام السوداء على النوافذ وقد كانت جنازة كوشوت سنة ١٨٩٤ من أعظم الدلائل على ذلك كما كان الاحتفال بافتتاح قبته سنة ١٩٠٩ بالغًا حدًا دل على مبلغ تعلق هذه الأمة برجالها الذين سعوا لاستقلالها.

للمجر أنشودتان أنشودة الملك والجيش وأنشودة الأمة ولهما عيدان وطنيان الأول في ١٥ آذار والثاني في ١١ نيسان فالأول هو عيد المجر الحقيقي يحتفل فيه بذكرى سنة ١٨٤٨ وقد قرر مجلس الأمة المجرية اشتراك الأشراف في جميع التكاليف العامة وإلغاء حقوق السادة وحرية الصحافة وفي ١١ نيسان هو اليوم الذي صدق فيه الملك فرديناند على القوانين الدستورية.

لا يحب المجر النمساويين ويريدون أن يخالفوهم في كل شيء ولو بالصورة الظاهرة وما أنس لا أنس يوم اجتاز بنا القطار من الأرض النمساوية وابتعدنا ساعتين عن فينا ودخلنا في الأرض المجرية فإن الأرض تكاد تلبس حلة غير الحلة الأولى وقال لي رفاقي في القطار وكانوا مجريين أنت الآن في أرض هنغاريا يا مولاي ثم خرج الشرطة والمفتشون كأننا دخلنا إلى مملكة أخرى وإن ما بين فرنسا وألمانيا من التباين لا يشعر به على الحدود بأكثر ممَّا يشعر بالتباين بين المجريين والنمساويين

والمجر يطلبون إشارات خاصة لعسكرهم كما يطلبون أن يكون التعليم العسكري باللسان المجري ولهم مطالب أخرى يسعون إليها لئلا يكون للنمساويين عليهم أقل سلطة وتأثير وإن كان لهؤلاء تأثير كبير في الأمور الاقتصادية والعلمية كما للألمان هذا مع إن بلاد المجر غنية بصناعتها وزراعتها وعلمائها ويكفي بأن ثروة المجر قدرت سنة ١٩١١ بثمانية عشر مليار فرنك قيمة أملاكها العقارية وخمسة مليارات قيمة أموالها غير المنقولة ومثلها صناعتها وباثني عشر مليونًا نقودها وبثلاثمائة مليون أموالها في الخارج أي بأربعين مليون مليار وثلاثمائة مليون فرنك يخرج منها ديونها العمومية خمسة مليارات ونصف

هذا حال مملكة أفقدتها النمسا استقلالها ولكنها لم تقض أو لم تستطع القضاء على حياتها الوطنية والاقتصادية كما فعلت روسيا مع بولونيا وبقيت بولونيا بحالها أو زادت ولولا معاونة روسيا للنمسا مااستطاعت هذه أن تغلب المجريين.

ليست الأمة المجرية عريقة في المدنية كالأمم القديمة في أوربا فقد جاءت حوالي القرن التاسع وانضمت إلى أهل أوربا ونزلت بلادها اليوم ولذلك تجد فيها حتى الآن شيئًا من أوضاع القرون الوسطى في نظاماتها الاجتماعية فإن تسعة أعشار من يعملون في الحقول المجرية إلى اليوم هم من السلافيين (الصقالبة) أو الرومانيين المغلوبين على أمرهم افتتح المجر البلاد وامتلكوا الأراضي وما زالوا يستثمرونها بأيدي غيرهم ولم يبرحوا في كثير من البلاد على طريقة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

وإذا تأملت مليًا في حال المجري تجده يشبه التركي في كثير من أحواله فإنه يعمل القدر اللازم حتى لا يموت جوعًا هكذا شأن الفلاح

والصانع وكذلك شأن طالب العلم وصاحب المنصب كأن حكم العثمانيين على بودابست مئة وخمسين سنة قد طبعهم بطابع تركي فقد رأيت المجريين يشكون من ضعفهم وقلة توفرهم على العمل ويقولون إن منًا كثيرين من يعملون شهرين وينقطعون عن العمل عشرة أشهر وهذا عيب كبير في مجتمعنا.

تقدر مساحة أملاك صغار الفلاحيين في المجر بعشرة ملايين هكتار أي أن يكون الواحد يملك ستين هكتارًا والوسط الذي يملك ستمائة هكتار يقدر بثلاثة ملايين وكبار المزارعين بستة ملايين ومجموع ما تملكه الحكومة والمدن والمقاطعات والكنائس والأديار بعشرة ملايين هكتار.

وقد أصيبت بلاد المجر بداء الهجرة فهاجر منها منذ ١٩٠٠ إلى ١٩١٠ سبعمائة ألف رجل فارتفعت أجور العملة وبيعت أملاك صغار الفلاحين من أواسطهم وكبارهم ومهاجرهم مقتصد بحيث يرسل مهاجروهم إلى بلادهم كل سنة مئة وستين مليون كورون ومن يعودون إلى بلادهم يعودون أغنياء وقليل ما هم والعائدون يبتاعون الأراضي بالأثمان الفاحشة.

وللإسرائيليين المقام الأول في تجارة البلاد تعرفهم بسيماهم ولا سيما في بودابست عاصمة البلاد فإن ثلث سكان هذه العاصمة من الإسرائيليين أي ثلثمائة ألف من أصل تسعمائة ألف وبيدهم التجارة والصرافة والصناعة وهم أكثر الأمة تعلمًا وأقدمهم على الأعمال هذا مع أنهم ليسوا قدماء في البلاد بل إن هجرتهم إليها ترد إلى العهد الذي طردت فيه أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد القاع الإسرائيليين من بلادها فوجدوا في بلاد المجر صدرًا رحبًا وخلفوا اليونان في التجارة. وحيث توطدت قدم التاجر الرومي يصعب على التاجر الإسرائيلي أن ترسخ قدمه

والرومي كالإسرائيلي بشوش لين العريكة يعرف من أين تؤكل الكتف في التجارة بخلاف المجري.

يقدر عدد الإسرائيليين في المجر بثمانمائة وأربعين ألفًا منهم ستمائة ألف (تمجروا) أي أصبحوا مجرًا حتى في أسمائهم ومناحيهم ولا يزال عددهم ينمو فإن كان أبناء إسرائيل يقبلون على التوطن في هنغاريا فليس لأن التجارة والصناعة والصرافة تستميلهم إلى نزولها لأن جميع الصناعات الحرة مفتحة الأبواب أمامهم.

هذه معلومات قليلة عن بلاد المجر التقطتها في يومين اثنين صرفتها في عاصمة بلادهم أزور معاهدها البديعة وبودابست من أجمل عواصم أوربا وهي مدينتان في مدينة أي بوداوبست يفصل بينهما نهر الطونة وترتبط البلدان بأربعة جسور كبرى بديعة من أجمل ما هندس المهندسون والجسران الجديدان الأخيران هما من صنع مهندسين مجريين أما المدينة فمقسمة شوارع فخمة فسيحة وهي نظيفة لا تقل عن أحسن العواصم.

وأهل المجر يحبون الأتراك ولا يزالون يذكرونهم بالخير لأنهم يرون أن إخواننا أسدوا إليهم جميلًا غير مرة وآخر مرة في ثورة المجر الأخيرة يوم لجأ زعماء الثورة إلى الأرض العثمانية فحماهم سلطان العثمانين (وأظنه المرحوم السلطان عبد المجيد) من أن تنالهم يد النمسا التي طلبت بإلحاح تسليمهم وآثر أن يشهر حربًا على النمسا أو تشهرها عليه على أن يسلم من دخل حماه ولذلك ترى المجر يذكرون هذه المنة على الدهر ويشفعونها بالشكر وحسن الذكر

حياتنا والحياة الأوربية [١]

٦٧

سادتي الأعزة: تقاضاني بعض الأحباب دينًا لم أر بدًّا من قضائه على حين اشتداد الأزمة بل الأزمات في بلادنا. أرادوني أن أحاضركم بشيء ممَّا جنيته في هذه الرحلة الثانية إلى ديار الغرب من ثمرات مدنيته الزاهرة فلم يسعني إلا إجابة الطلب مع الشكر لحسن ظنهم وإن كان البحث في نهوض القوم أو في فرع من الفروع ارتقائهم يحتاج إلى درس عميق وبحث دقيق ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله فإذا أتيتكم بأمور تعرفونها أو أكثرها فذاك لأني أحببت المبادرة إلى امتثال الأمر مع علمي بأني لا آتي بجديد على أنه لا جديد تحت الشمس:

كانت السياحة في سالف الزمان ضربًا من شاق الأعمال ولكنها أصبحت في هذا العصر على سهولتها حاجة من حاجات المجتمع يحتاج الخاصة إليها أكثر من غيرهم ويدخل في الخاصة أرباب النعمة من التجار والزراع والصناع كما يطلق على العلماء والمفكرين والباحثين والمتعلمين وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في الحث على السياحة ولكن الشرق ضعف في العمل يهدي قديمه ولم يهتد إلى وجه الصواب في حديثه.

كان أجدادنا يطوون الأميال والفراسخ أيامًا وشهورًا لينتقلوا من قطر إلى آخر ونحن اليوم نسيح في شرق الأرض إلى غربها في أيام يسيرة ونقطع بضعة ألوف من الكيلومترات في ساعات معدودة ومع هذا نرى

---

(١) محاضرة لنا ألقيناها في المنتدى الأدبي في الأستانة يوم ٢٤ ربيع الأول ٣٣٢ و٢٠ شباط ٩١٤

السائحين منَّا إلى الآن أقل من السائحين في العصور الماضية هذا إذا قابلنا بين سرعة المواصلات وتوفر أسباب الراحة في عصرنا وفقدانها في أعصار أجدادنا أيام كان يقول ابن زريق البغدادي وقد رحل من بغداد إلى الأندلس:

ما آب من سفر إلا وأزعجه ... رأي إلى سفر بالبين يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل ... موكل بقضاء الله يذرعه

إننا إذا رحلنا اليوم إلى الغرب نجدد حياتنا بعد ذبولها ونقوي حواسنا بعد انثلام حدها وندخل في طور نتعلم فيه ونعتبر ونتعود عادات حسن أ كثرها وجدير بنا أن نقتبسها عمن سبقونا مراحل وأشواطًا. لأنها نتيجة علم متوارث ونظر بعيد متسلسل. فكل ما نراه في ديار الغرب هو عمل قرون خلت. وأجيال علمت فعملت:

وأحب آفاق البلاد إلى الفتى ... أرض ينال بها كريم المطلب

تكثر الخواطر على السائح منَّا في ربوع أمم الحضارة الحديثة فلا يلبث أن يذكر بلاده ويقابل بين حالها وما يشاهده هناك من السير نحو الكمال بخطا سريعة في حين يرى أمته تسير سير السلاحف:

إن القباع سار سيرًا نكرًا ... يسير يومًا ويقيم شهرًا

نعم يسير الغرب بسرعة البخار والكهرباء. ونحن مازلنا نسير بسير الجمال والبغال والحمير. وشتان بين نظام السيرين.

سر أين شئت من بلاد المدنية تجدها نسقًا واحدًا في الاستمتاع بنعم الجمال والكمال وقد تشاهد لبعضها على بعض امتيازًا في أمور تتفرد بها ولا فرق في أصل المادة بين الشرق والغرب: سهول وأودية وجبال وأنهار

وبحيرات وبحار. ولكن الفرق في تربية العقول ونمط الحياة فالسر إذًا في السكان لا في المكان.

سحت هذه المرة في إيطاليا وسويسرا وفرنسا والنمسا والمجر فرأيتها إلا قليلًا متشابهة في راحتها ونعيمها وعمرانها وعلمها وآدابها وصناعاتها: الناس كلهم يتفننون فيما يعلمون ويسيرون اليوم بعد اليوم نحو الكمال فيارب ما هذه الروح التي تجرد منها جسم الشرق وسرت في عظام الغرب وأعصابه وشرايينه فأتى أهله بالعظائم ونحن بقينا حامدين مبهوتين منحلين متضائلين.

لا تغبط المجدب في علمه ... وإن رأيت الخصب في حاله

إن الذي ضيع من نفسه ... فوق الذي ثمر من ماله

مدنية الغرب غريبة في كل مظهر من مظاهرها، لأن أهلها أحسنوا الانتفاع من كل قوة في الوجود ونحن أضعنا بجهلنا القوى القريبة الانتفاع. هذا شأنهم في كل شيء فكأن الغرب حلف أن لا يحالف الشرق والشرق آلى أن يخالف الغرب على كثرة حاجته إليه واضطراره إلى الأخذ عنه.

رأيت أولادًا وبنات دون العاشرة يسيحون في الغرب من قطر إلى آخر وحدهم بدون أدنى رهبة وارتباك، ولم أشهد كثيرًا من رجالنا يستطيعون السياحة في أوربا وأميركا على ما يجب، وبهذا نعرف درجتهم ودرجتنا وتسجل بأن صبيانهم أقوى من رجالنا وفتياتهم أعقل من نسائنا فإذا كانت النسبة مفقودة بين ابن العاشرة وابن الخمسين فهلا تكون المسافة بين حالنا وحالهم أطول وأجزل.

إننا في درس المدنية الغربية نأخذ ما تهيأ لنا وتمثل لأنظارنا باديء الرأي ولو أردنا استقصاء البحث لاقتضى علينا أن نصرف السنة والسنتين لندرس حال مدينة واحدة من مدنهم فما بالك بالمملكة أو الممالك. ينفد العمر ولا تنفد مادة الكلام عن رقي الغرب وكلما تأملنا معاهده، وحللنا مادة قواه نبكي لضعفنا وقوتهم، وجهلنا وعلمهم، ونكاد ندخل في اليأس المميت، من تحسين حالنا لولا أن اليأس محرم، وأن التاريخ يحدثنا أن أممًا كانت أحط منَّا منزلة فارتقت لما صحت عزائم بنيها على إنهاضها، والأمم لا تموت إلا إذا أسلمها بنوها العارفون للموت.

مواد هذه المدنية التي تأخذ بالعقل والقلب كثيرة ومن أهمها تقدم الغربيين في بيوتهم عنَّا، ورقي الأسرة هنالك وانحطاطها هنا. والمملكة التي تتألف من بيوت راقية هي التي تحرز شوطًا أبعد من غيرها، وما الممالك الراقية إلا مجموعة بيوت راقية والكليات تتألف من الجزئيات، ومن تماسكت أجزاء مادته، كانت أسبابه أقرب إلى القوة بالطبيعة.

كل من يدخل مدينة من مدن الغرب ويختلط بسكانها بعض الاختلاط فلا يبقى مقتصرًا في معلوماته على حياة الشارع والمطعم والفندق والمسرح والقهوة والأماكن العامة يسجل في مذكرته أمثلة لا يكاد يحصيها من رقي الأسرة الأوربية تجسمت في جميع حالاتهم أي تجسيم، وحامل المسك لا يخلو من العبق

تحمل مدنية الغرب في مطاويها حسنات وسيئات، ولكن حسناتها تربو على سيئاتها فترى فيها الفضيلة التي بزت الفضائل، والرذيلة التي تربو على مجموع الرذائل، ولكن المليح، يغطي وجه القبيح، فكأن شعار المدنية الحديثة الارتقاء، في كل شيء، والجمع بين المتناقضات، أما

الشرق فهو وسط أو دون الوسط، والوسط والدون لا يكادان يعملان عملًا محمودًا في هذا الوجود.

أذكر لكم أمثلة ثلاثة من عشرات من الأمثلة وقعت العين عليها في باب ارتقاء الأسرة الغربية تمثل أدوار الأعمار وأدوار البيوت. المثال الأول أسرة فرنساوية مؤلفة من والد ووالدة وطفلتين وطفلين من سكان الولايات من أهل مقاطعة الجورا على الحدود السويسرية جاءت لوزان لتطبب أحد أولادها ونزلت في المنزل الذي أقمت فيه فلاحظت أمرها مدة أربعة أسابيع انظر عناية الأبوين بتربية أولادهما فكان الوالد يوقظ أولاده في الساعة السادسة والنصف ويأخذ في إلباسهم ثيابهم مع زوجته وهذه تسرح شعور الابنتين وتمشطهما فإذا تناولوا طعام الصباح يرافق الثلاثة من أولاده إلى المدرسة لأنه وضعهم في المكتب مع أن مدة مقامه في تلك المدينة لا تتجاوز شهرين ثم يعود إلى الدار ويحمل ابنه إلى الطبيب ويعود به بعد ساعتين فيجيء الأولاد في وقت الظهر وبعد تناولهم الطعام يعود فيشيعهم ثانية إلى المدرسة وربما عاد إليهم في المساء ليستصحبهم أو اكتفى بانتظارهم للخروج بهم مع والدتهم الى النزهة. عناية فائقة في هذين الوالدين الذين لا يعرفان غير تعهد صحة أولادهما وتعليمهم وتربيتهم وتخريجهم على الآداب والفضيلة والتدين. هذه الأسرة من أسر الأرياف والفلاحين من أهل الطبقة المتوسطة التي تكون على شيء من اليسار ولطالما هنأت الوالدين على عنايتهما بأولادهما وقلت لهما إن الأسرة الفرنسوية لو كانت كلها مؤلفة على هذا النحو وتربى بمثل هذه العناية وتتعهد بما يشبه هذا الحنان الفتان لاستحت فرنسا أن تشكو من قلة نفوسها وانحلال التربية في بعض عواصمها. ولهذه الأسرة مئات الألوف من الأمثلة ومثل ذلك يقال في جميع ديار الغرب.

والمثال الثاني الذي رأيته يمثل درجة أخرى من درجات الأسرة رأيته في إيطاليا في قصر من أعظم قصور الكبراء الذين جمعوا بين الطريف والتليد وأعني به منزل صديقي الأمير ليوني كايتاني الذي صرفت أيامًا في الاشتغال في مكتبته أبحث عن تاريخ بلادي وأجدادي فإن هذا الرجل الشريف في أمته الغني بعلمه وما له لم يرزق سوى ولد واحد هو دون العاشرة ولما جاء وقت تعليمه أرسله إلى سويسرا يتعلم فيها ولم تأخذه الشفقة عليه وآثر أن لا يراه وأن يربى تربية راقية صحية على أن يكون في داره القوراء بين والديه وأهله وقبيله.

والمثال الثالث آتيكم به من بودابست عاصمة المجر فإن العلامة غولد صهير شيخ المشرقيات في هذا العصر لم يرزق سوى ولد واحد علمه فلمَّا زوجه أخرجه من بيته على عادة الإفرنج في إخراج أولادهم من دورهم متى شبوا وتأهلوا ليؤلفوا أسرة برأسهم ويعيشوا مستقلين عن أبويهم فلا يقع نفور بين الكنة وحماتها ولا بين الولد ووالده. والراة في الاستقلال في كل شيء. هذه أمثلة ثلاثة من أطوار الاسرة الأوربية تمثل أطوار تلك الأمم أمَّا تحليل أجزاء تلك التربية ومادة تلك النفوس الكبيرة فيحتاج لمعمل كيماوي كبير يحشر إليه علماء التربية من أجدادنا والمحدثين من أهل الغرب ليقولوا لنا خلاصة تحليلهم لمادة الحياة الأوربية النامية. والعبرة بالكيفية لا بالكمية.

دعاني الأستاذ غولد صهير لتناول طعام العشاء في بيته وقال لي إنه سيكون معنا ابنه غولد صهير المهندس وكننه ولما قدمني إليهما قال لي: إن كنتي وهي نعرف خمس لغات فقط تكتب بها ونتكلم بسهولة عارفة بالآثار المصرية ؟؟؟ فقلت لها: بارك الله فيك أيتها العقيلة المحترمة مجرية في مقتبل الشباب تدرس آثار مصر ومصر باريزيًا وأهلها أرقى شعب إسلامي ليس فيهم لدرس آثار بلادهم سوى رجل واحد هو العلامة أحمد

كمال بك وكيل المتحف المصري هذا الرجل الفرد في وادي النيل يتوفر على البحث في عاديات مصره على الأصول الغربية وهو منذ زهاء عشرين سنة يلوب على من يعلمه ما يعلم ليخلفه على الأقل في منصبه لأنه بلغ سن الشيخوخة ولم يجد في ثلاثة عشر مليون مصري من يقبل على تعلم ما أفنى حياته في تحصيله وألف فيه ونوع الأساليب في نشره في الكتب والمحاضرات والمقالات. أنا أعلم أيتها العقيلة النبيلة أن في أوربا نحو عشرة من علماء الآثار المصرية ولكن ما كان يخطر لي ببال أن أرى في بلاد المجر فتاة تشارك الرجال في علمهم وتساهمهم في من يحتاج إلى نظر دقيق ومادة منوعة في العلم. فإن كان نساؤهم على هذا المثال فلا عجب إذا كان من رجالهم العجب العجاب

إلى اليوم لم نفكر في هذا الشرق الأقرب في تعليم فتياتنا كما يتعلم فتيات الغرب والنساء نصف البشر ولا يقوم النصف الأول إلا بنهوض النصف الثاني، فإن كانت كنة غولد صهير أستاذ تفسير القرآن والأصول والحديث والملل والنحل في جامعة بودابست عالمة بالآثار المصرية. فكم عالمة بل عالم عندكم معاشر العرب بآثار البتراء وبعلبك وحرش وتدمر وبابل وأشور وحمير والحيرة.

أنا مع الأسف على كثرة بحثي في تراجم الناس وأيامهم لا أقدر أن آتيكم بواحد يكون على النمط الأوربي في بحثه وردسه كما لا أجد في أمتي المهندس الذي أريده ولا الكيمياوي ولا الطبيعي ولا المصور ولا النقاش دع من يماثلهم من النساء اللاتي شاركن الرجل في معظم حياته المادية والمعنوية في الغرب. وعمَّا قريب يشاركنه في الحياة السياسية.

كل ما تعلمناه إلى يوم الناس هذا وقلدنا فيه الأمم الراقية لم يخرجنا من الظلمات إلى النور فلم تبرح عيالًا على الغرب في معظم شؤوننا

ومرافقنا وقيام أمرنا، فما دمنا نريد التحرير السياسي وليس لنا من أسباب التحرير العلمي قليل ولا كثير هيهات أن تقوم لنا قائمة.

كيف تعمر بلادنا وتستبحر الحضارة فيها ونقلد الغربي في حياته السعيدة وليس عندنا مصور ولا مهندس ولا نقاش ولا معمار ولا موسيقار ولا كيمياوي ولا غيرهم وزيادة على ذلك جهل النساء وهو من أعظم الويلات.

لم تعمل حتى الآن إحصاء بعدد الأميين في بلادنا ولكن المفهوم إن عدد الأميين هو ٩٥ في المئة في بلاد العرب في حين أصبح عدد المتعلمين في أكثر مدن الغرب مائة في المائة تساوي في الأخذ من العلم بالخط اللازم النساء والرجال والمتعلم منهم التعليم الابتدائي أرقى من المتعلم منَّا التعليم الراقي وكل شيء نسبي

قالت لي فتاة بولونية في الثامنة عشرة من عمرها تدرس علم التربية والتعليم في جامعة جنيف على أحد مشاهير هذا العلم وهي عارفة ببضع لغات أوربية وقد سألتها عمَّا تقصده من تعلم هذا العلم فقالت: أريد أن أؤسس مدرسة في بلدي لأن الواجب على المرء أن يكون شيئًا في هذا الوجود. فقلت لها: جزاك الله عن هذا السعي لأمتك خيرًا ولكن نساءنا في الشرق لا يردن ولا يريد أولياؤهن مثل ما تريدين. اكتفين بأن يكن لا شيء في هذا العالم ولذلك لا تجد بين ألوف من الطالبات البولونيات والروسيات والمجريات والألمانيات والإيطاليات والرومانيات والبلغاريات والصربيات واليونانيات والإسبانيات والبرتقاليات والبرازيليات والأرجنتينيات طالبة عربية اللهم إلا واحدة مصرية فيما أعلم تساهم بنات جنسها وتزاحمهن على دكات الجامعات في سويسرا وفرنسا

وإنكلترا وألمانيا فتأملوا حال أمتكم وانظروا إلى أي درجة بلغ بين أظهركم انحطاط عقول بنات حواء.

كلمَّا نظرت مليًا في سعادة الحياة في الغرب وشقائها في هذا الشرق يتجلى لي سر تعليم المرأة كما يعلم الرجل وإنها هي التي أوجدت تلك الحياة البيتية السعيدة فبالحث والجمال والعواطف والرغبة في الكمالات تمت للبيت الغربي سعادته ومن سعد في بيته أو توقع السعادة فيه كان حريًا بأن يعمل الأعمال العظيمة خارجه إذ يجد له في منزله سلوى وعزاء وراحة وهناء.

رأيت كثيرًا من شباننا يشكون انحطاط تربية المرأة العربية وقلة ما عندنا من الفتيات المتعلمات اللآئي يلقن للزواج الذي تكون من سعادة أسرة حديثة قوامها الآداب العصرية والفضيلة والمعارف ولكنني لم أر شابًا من هؤلاء المتعلمين ولا ممن سبقوهم من العلماء من عني بتعليم أخته أو ابنته التعليم الراقي ولا من فكر في تأسيس مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث لتلقين البنات مبادئ تنفعهن حقيقة في تأليف البيوت التي يرفرف عليها طير السعد والرغد. النظريات عندنا كثيرة ولكن العمليات لم تسلك طريقها ويالأسف حتى الآن.

أوربا ممدنة العالم وجنات النعيم المقيم وقرارة الراحة ومستقر الهناء أيقضي يا ترى على مدنيتك البديعة وتنحل بما حوت ديارك من جمال الوجود وجمال الفعال ووفرة العلم والغنى وآثار الغبطة ومعاهد الصفاء والنعمة ليقوم الشرق فيستلم زمام هذه المدنية ويكمل ما بدأت به أو يمزقه تمزيق الأخرق الأحمق كثروة ورثها وارث لم يعرف قيمتها أم تسلم لك هذه الحياة السعيدة وتقل مؤلماتها وموبقاتها ويعم الشرق أثرها ويشاركك في كل معنى من معانيك البديعة ويكون حظه كحظ البلاد

الراقية من ربوعك ويتحرر من أسره السياسي وأسره الاقتصادي واسره العلمي ويتخلص من التبعية لك في كل ما يدل على ضعفه وتراجع أمره.

تيار الغرب ينهال علينا فيأتينا تارة بحمأة وطورًا بقليل ماء فهل نرزق التوفيق يا ترى فنكرع من معينه ونطرح كدوراته أم نتناوله على علاته ولا نكاد نسيغه.

إن ما لدينا اليوم من أسباب القوة لا يقوم في وجه ذاك التيار لأنها ضئيلة لا كفاء لها بالمقاومة. ولعمري أن ألف أمي وأمية لا يوازي عقلهم عقل متعلم أو متعلمة واحدة.

كانت حكوماتنا ومجتمعاتنا حتى الآن تعد الجهل قوة والانحطاط نهوضًا. وكلمَّا كانت الأفكار منصرفة إلى وجهة واحدة يعينها صاحب الشأن كانت تلك المجتمعات تغتبط وتفرح ولطالما قال بعض من أحسنت الأمة ظنها بهم قرونًا واستولوا على عقلها وقلبها وتصرفوا بعجزها وبجرها إذا قيل لهم إن العلم الفلاني مفيد ينبغي أن يكون في الأمة أفراد يعرفونه: إن هذا العلم لا تنفع معرفته ولا يضر جهله.

بيد أن الأيام أثبتت أننا في أشد الحاجة لكل علم وفن ومجتمعنا العربي العثماني لا يقوم حق القيام إلا متى عمد أفرادنا إلى الأخذ من كل مطلب من مطالب الحياة كما هي سنة من سبقونا ومن الأسف أننا لم نبرح في مجتمعنا نشاهد ناشئتنا الكريمة على الأغلب تميل إلى المذاهب الاتكالية وأكثرها يؤثر التوظف في فروع الإدارة والجندية ولو كانت هذه غير رابحة في الجملة. إن جعل وظائف الحكومة هدفًا لنا في تعلمنا هو الذي أفقر هذه المملكة وجعلها في مؤخرة الممالك في عمرانها وثروتها وراحتها. والمال أساس الأعمال ولا يأتي به إلا المتعلمون من الرجال.

فهل لكم يا رجال الأمة أن تحققوا هذا الظن بكم فقد سئمنا ونحن نسمع من إقبال المتعلمين من أمثالكم على الوظائف والزهد في الصناعات الحرة وإني لا أخجل إذا قلت إن صانع الخزف والفخار والقرميد أنفع لهذه الأمة من وزير متوسط القريحة ضعيف مادة العلم لا يحسن عمله وقد وصل إلى منصبه بالمصانعة والشفاعات وإن دباغ الجلود أو صباغ الحرير والقطن أشرف من فقيه تعلم بعض فروع المعاملات ليتولى بعض الأعمال القضائية والشرعية.

وبعد فرجائي إليكم ياشبان هذه الأمة وبغيركم لا تجدد شبابها، أن تجعلوا نصب أعينكم الأعمال الاستقلالية ويكفي بعضكم أن يتولى الأعمال الإدارية وغيرها في المملكة فإن الكل لا تتسع خزينة هذه الأمة لإعاشته خصوصًا وأنتم تعلمون ضائقة الموظفين وإن جيوبهم في الغالب فارغة تتقاذفها الرياح لأنها خالية وهم على الدوام مثل تجار البورصة إقبال وإدبار والإدبار في الأكثر هو الغالب.

من لي بأن يعمل كل احد من شبان هذه الأمة الواجب عليه أولًا ويتوفر على دراسة الفرع الذي يمت به فإن سن الدراسة معينة محدودة لا ينبغي أن يعمل فيها ما يجب عمله في غيرها ومتى أتم الطالب ذاك الدور فلا جناح عليه إذا اشتغل بالعموميات فمشاركة الطالب في المسائل العامة يجب أن تكون في سن الدراسة إلى حد محدود وبعد ذلك فهو في حل من الاشتغال بما أراد.

أنا أحب أن أشهد من أبناء امتي وقرة عينها رجالًا يفكرون في ترقية نفوسهم وذويهم وبيوتهم والأخذ بأيدي إخوانهم أكثر ممَّا أحب أن أراهم يفكرون في المسائل الاجتماعية الكبرى التي يضيع بها الوقت على غير

طائل بالنسبة إليهم وإن كان الواجب على كل وطني أن يصرف من فكره ووقته شطرًا ولو قليلًا للنظر في المسائل العمومية.

تلامذة الكليات في ألمانيا هم الذين هيأوا الوحدة الألمانية ووضعوا أساسها في القرن الماضي ولكن كان العلم رائدهم وكان عملهم يقف عند حد محدود فهل يأتي يوم على هذه الأمة البائسة يا ترى يشهد فيه طلاب مدارسها العليا بعد أن يتموا وظائفهم المدرسية يفكرون في الخير العام لأمتهم خصوصًا متى أتموا سني الدراسة وأصبحوا أحرارًا في أعمالهم وإراداتهم. نعم أيها الإخوان (إن الشفيق بسوء ظن مولع) وإن ما يتمثل للأنظار من مدنية أوربا مهما كان طاهره فيه الرحمة فرحمته لأهله لا لنا ونحن لا رحمة لنا إلا إذا أتتنا على أيدي رجال لنا أمثالكم وهؤلاء لا يأتون بعمل تام إلا إذا شاركهم النساء وحسن نظام البيوت وتنظيمها على الأساليب الغربية نعم نحن لا حياة لنا إلا إذا تعلم الرجال وربات الحجال التعليم اللازم وقام كل واحد بواجبه ووجدنا المقاصد في التربية والتعليم.

إن القليل المتعلم منًا لا يؤلف أقل أمة صغيرة. وهذه الزهرات التي أراها مهما بلغ من نضارتها تضيع بين ما هناك من عوسج وبلان فلا سبيل إلى وقايتها إلا بتنقية هذا الشوك ما أمكن ولا ينقى بغير معول العلم والتربية ومعرفة الواجب والعمل بسنة الغرب التي سلكها في الترقي على تعديل طفيف يدخل فيها بطبيعة الإقليم والعادة.

إن ناديكم هذا مثال من أمثلة التضامن ولكن أمتنا لا تعد مرتقية إلا متى كان في كل مدينة بل في كل قصبة من مدنها وقصباتها أندية تنسج على منواله في التعارف والتعاطف وتوقد في الصدور جذوة الغيرة الوطنية وتحمس النفوس إلى طلب العلم ويأخذ القوي بيد الضعيف حتى

يساويه في المنزلة ويتدبر الكل في مستقبل محيد للأمة يخرج بها إلى حال أحسن من حالتها الآن ويتعلم ابن الفلاح الصغير كما يتعلم ابن الغني الكبير وإذا لم تقم جميع أعضاء هذا الجسم لا ينمو ولا يتم له البقاء.

واجباتكم أيها الأعزة كثيرة جدًا والأولى البداءة بالجزئيات ولكن على شرط أن نبدأ ونجعل تاريخ الأمم التي نهضت قدوتنا ومهما زنا على العمل يجب أن تكون مدنية الغرب إذا أردنا أن نحيا حياته مصدرنا وموردنا وبدون ذلك الفناء المطلق والعياذ بالله أو الاندماج في جسم الأمم الغربية التي تبسط أيديها علينا اليوم بعد اليوم.

إننا لا نحيا إلا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا أمس وحال أمم الحضارة الحديثة اليوم ولكن هذا اللفظ الجميل -لفظ القومية- لا يطابق معناه مبناه إلا باتخاذ جميع أسبابه على نحو ما يعمل المجر والبولونيون والإيطاليون وما يجري من منافسة محمودة بين الفالونيين والغلامنديين في البلجيك والألمانيين والفرنسويين في سويسرا

ومن دواعي الحسرة أن من رحلوا من أبناء العرب إلى ديار الغرب يدرسون في معاهد العلم ليستحقوا الاسم العربي الشريف بالفعل لا بالقول أقل عددًا من أكثر عناصر هذه الدولة. نعم هم أقل من الأتراك والروم والأرمن هذا مع أننا أكثر من نصف سكان هذه المملكة المحبوبة وبلادنا أغنى من بلاد تلك العناصر التي أخذت ما استطاعت من الحكومة لتعليم أبنائها وقامت بسد العجز من أموالها الخاصة.

بلغني أن في نية الحكومة السنية إرسال ستين طالبًا من أبناء العرب إلى مدارس أوربا العليا فإن صح النبأ عد من أعظم الإصلاحات. وإن كان هذا العدد دون الواجب أيضًا وذلك بأنا إذا ضمنا عدد طلابنا الآن

بستين طالبًا بلغ من قابل مجموع طلبتنا في الغرب مائة وعشرين وهم لا يبلغون نحو سبع طلبة الإيرانيين في مدارس أوربا مع أن العرب العثمانيين أكثر سوادًا من الإيرانيين بالتحقيق

هذه عددنا وهذا ما أعددناه، هذه أدواؤنا وتلك أدويتنا، وبأيديكم وأيدي أمثالكم خلاصنا، فلا تخيبوا آمالنا فيكم معاشر الشبيبة المستنيرة العبء ثقيل عليكم وبتضامنكم وتماسككم يهون كل عسير على شرط أطراد العمل وأتقانه. ومضاعفة الأفعال أكثر من الأقوال، وصرف المسعى إلى المنتج النافع، والزهد في التافه العبث. والله يتولاكم ويسدد مراميكم، ويقر عيون أوطانكم بنجاحكم ويجعل منكم أعضاء عاملة في جسم مجتمعنا وأصواتًا داعية إلى كل نافع ورافع إنه سميع الدعاء.

أرض يونان

٦٨

اغتنمت فرصة إرساء الباخرة الرومانية التي ركبتها من الآستانة إلى الإسكندرية في ميناء بيرا لأزور آتينة مدينة أرسطو وسقراط والمسافة بين بيرا وآتينة تسعة كليو مترات تقطعها السكة الحديدية الكهربائية في خمس عشرة دقيقة. رأيت آتينة مدينة وسطى لا تزيد نفوسها عن مائتي ألف وهي في منبسط من الأرض وعلى مقربة منها أكمة قام عليها الاكروبول والمدينة نظيفة في الجملة مبلطة أرصفتها بحجر أبيض يشبه الرخام وفيها حدائق نظيفة وأبنيتها الحديثة من الرخام أيضًا وأهم ما لفت نظري فيها معاهدها التي قامت بعطايا المحسنين من أبنائها مثل الستاد أو الملعب العجيب الذي أنشئ بمال أفيروف ونصب تمثاله أمامه. وأفيروف هو الذي

خلف ملايين من الفرنكات أعطاها لأمته ومنها أنشأت قسمًا من الدارعة اليونانية المنسوبة لاسمه

نعم في آتينة تتجلى عطايا اليونان المحدثين فترى مدرسة البنات عالية داخلية وخارجية أنشأها أرساكي من ماله وترى مكتبة الأمة أسسها فاليانوس وترى لافبروف حبوس النساء والأولاد ولسنيا المجمع العلمي ولسينكروس حبوس الرجال وقد أنشأ على نفقته من آتينة إلى فالير طريقًا معبدة وطولها ٩ كيلو مترات. وأنشأ فارفاكيس مدرسة عالية للأولاد وجاياس قصر المعرض وهو مؤسس مدرسة البنات العليا للروم في الآستانة وهكذا تجد فلانًا من أغنياء اليونان أنشأ مدرسة صناعية وآخر مدرسة زراعية وغيره مدارس ابتدائية وليلية للفتيان والفتيات فتجد اليوناني مع إنه أكثر الأمم هجرة لبلاده -لأن نصف اليونان هاجروا إلى مصر والسودان وأميركا وشواطئ البحر المتوسط وغير ذلك من البلاد- أكثرهم تعلقًا بحبها وتفكرًا في إنهاضها يغتني احدهم من مصر أو من أميركا ويجود بالألوف لبلاده لينهض بها وهذه خاصة من خصائص اليونان وإن كان المشهور عنهم كزازة الأيدي.

نهضت يونان في المدة الأخيرة نهضة عظمى بفضل نشر التعليم على اختلاف صنوفه بين أبنائها وهو الدواء الشافي لكل مرض اجتماعي.

التعليم في يونان مجاني إجباري وفيها اليوم ١٤١٤ مدرسة ابتدائية للذكور منها ١١٩٧ من الدرجة الأولى و١٣٤ من الصف الثاني و٢٩ من الصف الثالث و٥٤ من الصف الرابع وعندهم ٤٠٠ مدرسة للبنات منها ٣٠٠ من الدرجة الأولى وفي القرى ٨٨٤ مدرسة تقبل الذكور والإناث على السواء وعندهم مدرسة عليا لتخريج المعلمات وقد أنشأت جمعية آتينة الأدبية عدة مدارس مسائية يتعلم فيها مئات من الفتيان المضطرين أن

يعملوا في نهارهم وليس لهم من الوقت غير الليل. في يونان ١٨٧٨ أستاذًا و٦١٠ معلمات و٧٦٨ معلمًا في مدارس الأولاد في الحقول ولهم مدرسة صناعية عليا تنقسم إلى قسمين قسم يعلم الفنون والعلوم ويخرج المهندسين والميكانيكيين ومنهم من يعد من الدرجة الأولى والقسم الآخر يعلم الصناعات النفيسة أي النقش والرسم والتصوير والحفر والصناعات النقشية وعندهم مدرسة تجارية ومدرسة جامعة عليا فيها أساتذة اشتهروا بأعمالهم العلمية حتى في أوربا.

هذا مع أن لليونان في الممالك العثمانية مدارس كثيرة راقية فإن لهم في الآستانة وحدها ٧٨ مدرسة فيها ٥٩٧ معلمًا يدرسون ١٦٠٣٧٣ طالبًا دع ما لهم في البلاد التي ضمت إلى بلادهم حديثًا وكل المدارس التي هي خارج علمهم لا تنال شيئًا من الرواتب من الحكومة بل إن يونان هناك يقومون بنفقاتها.

ربما لمن نصب بلاد بمصائب الهجرة أكثر من اليونان فإن الداخل منهم إلى نيويورك وحدها كل سنة يقدر بأربعين ألفًا فما بالك في الأقطار الأخرى فإذا كان عدد يونان قبل الجزر وسلانيك ويانيا ألتي انضمت إليهم نحو ثلاثة ملايين فإن المقدر إن مثل هذا العدد منهم موزع في أقطار العالم وهم يحافظون على لغتهم وعاداتهم حيثما كانوا بحيث كادوا يجعلون لغتهم في الإسكندرية ومصر والآستانة لغة رسمية لكثرة انتشارها وحرصهم على التناغي بها.

ومع كثرة المدارس في اليونان ترى طلبتهم في جامعات الغرب كثارًا جدًّا ولا سيما في باريز ولندن. واليونان إن لم يكونوا أكثر الأمم إقبالًا على تلاوة الصحف والتشوق للأخبار السياسية فهم في جملة الأمم المتقدمة في هذا الشأن فلا تكاد تجد واحدًا لا يتلو جريدة أو كتابًا أو

مجلة في كل مكان والفقير منهم يستعير جريدة جليسه ولذلك لا تربح جرائدهم كثيرًا فإن لهم في أثينة ١١ جريدة يومية وإذ كان العدد الواحد ينتقل من يد إلى أخرى كما تنتقل جرائدنا في الشام ومصر في أيدي قرائها الذين لا يحبون أن يشتركوا ولا أن يبتاعوها اقتصادًا باردًا منهم صعب على جرائدهم أن ترقى.

ولليونان جرائد كثيرة في الآستانة والقاهرة والإسكندرية وجرائد أسبوعية في بعض عواصم أوربا ومنها ما يصدر بغير اللغة اليونانية ليبثوا فيها أفكارهم ويؤثروا في الأسواق المالية والمجالس السياسية.

هذا ما أمكن الإلماع إليه من حالة رقي المعارف في يونان وأرضهم القديمة قبل الحرب لم تتجاوز ٦٤ ألف كيلو متر مربع وهي غير مخصبة في الجملة بل أكثرها جزر متقطعة في عرض البحر حتى إن سواحلها تبلغ في مساحتها سبع مرات مساحة سواحل إنكلترا وتربو ١٢ مرة على سواحل فرنسا ولذلك كان اليونان في كل زمن يحصرون قواهم في بحريتهم ويصرفون فيها أموالهم وقسمًا عظيمًا من ميزانيتهم وقد كان لبواخرهم التجارية يد طولى في استقلالهم سنة ١٨٢٤ لا ينكرها التاريخ.

واختلف العلماء في أصل اليونان الحاليين هل هم من نسل القدماء الذين ملأوا الأرض فتوحًا وفلسفة وصناعات نفيسة والأرجح عند الباحثين في أصول الشعوب أنهم أخلاط من الناس جاؤا منذ قرون إلى هذه الأرض واستعمروها بعد أن فرغت من سكانها الأصليين أما هم فيصعب عليهم سماع هذا الحجاج ويحاولون بالطبع أن ينتسبوا لأفلاطون وأرسطو وسقراط وديوجنس وهوميروس وغيرهم من فلاسفة يونان الذين بيضوا وجه التاريخ بعلمهم وحكمتهم.

آثينة تشبه المدن الأوربية ممزوجة بشيء من الحياة الشرقية ولكن الفقر ظاهر على السكان والغلاء فيها أكثر من جميع أوربا قال صاحب كتاب يونان الحديثة [١] إن أسعار العيش في يونان يزيد ٥٠ في المئة عمَّا هو عليه في إنكلترا ونحو ٢٥ في المئة عمَّا هو في الولايات المتحدة.

المدنية الرومية الحديثة منقول أكثرها عن فرنسا وفرنسا ساعدت اليونان كثيرًا ولذلك حفظوا لها جميلها وما برحوا حتى اليوم يتخذونها معلمة لهم ومربية حتى إن معلمي جيشهم إلى الآن هم ضباط من الفرنسيس وفي الحرب الألمانية الفرنسوية بعث اليونان بكتيبتين من متطوعتهم ليقاتلوا في صفوف الجيوش الفرنسوية فقتل بعضهم وبيضوا وجوههم مع من أسدى إليهم جميلًا ومن طبع اليوناني معرفة خدمة الأمزجة المختلفة والميل إلى النافع له ما أمكن بكل وسيلة.

إن ما في آثينة من بقايا العاديات القديمة ليس بالشيء الذي يلفت نظر السائح اللهم إلا إذا أحب أن يزورها ليتذكر ما فيها. وأين عظمة رومية من عظمة آثينة ولا نغالي إذا قلنا إن بقايا عادياتنا في جرش ووادي موسى وبعلبك وتدمر أفخم وأعظم من بقايا عاديات اليونان كلها التي لم تقو على عاديات الأيام.

في العاصمتين
٦٩

رأيت هذه المرة في العاصمتين عاصمة الترك الآستانة وعاصمة العرب القاهرة ما طالما شكا منه الاجتماعيون من الاتكال المجسم

---

(١) Perey F.Artin la Grece nocinelle

والغلو في حب التوظف والاستخدام رأيت ابن الآستانة لا يفكر ولا يريد أن يفكر في غير استحصال الرزق من باب الحكومة ورأيت المصري كذلك كلاهما يستميتان في طلب الوظائف وقد زهدا في الأعمال الحرة فلا تكاد ترى في الآستانة متعلمًا إلا وهو يرغب أن يبيع استقلاله من غيره ويكون بيده آلة تحرك بدون اختيارها. ومن الأسف إن هذا الخلق استحكم حتى لا تشهد سوى أسباب الرزق الضئيلة بيد الأتراك أما التجارات الواسعة والصناعات الرابحة فهي للرومي والأرمني والألماني والإفرنسي وغيرهم من الشعوب والأمم وكذلك المصري المتعلم لم يتعلم إلا للخدمة في الدواوين وترك التجارة وغيرها من مذاهب المعاش للرومي والإيطالي وغيرهما.

داء استحكمت حلقاته حتى أفقرنا يسلب الغريب منَّا أموالنا ليحملها إلى بلاده ولا يزال آخذًا بالانتشار والعبر في القطرين تتلو العبر داعية القومين إلى أطراح المذاهب الاتكالية وإن أبواب الاستخدام إذا فتحت اليوم قليلًا فغدًا تقفل حتى في وجوه الكفاة من الطالبين وخزائن فروق ومصر تضيق صدرًا عن إنفاق ما يلزم من المال على العمال والمستقل في عمله أنفع لنفسه ولقومه من المتعلق بأذبال غيره الذي يعيش عالة على السوى.

كنت في القاهرة في زيارة صديق لي من أهل العلم والمكانة في الحكومة المصرية فجاءته فتاة مسلمة ودفعت إليه ورقة بخطها كتبت فيها صورة ما نالها من من تنحية ديوان الصحة لها من الخدمة في المستشفى وحرمانها من خمسة جنيهات كانت عينت لها منذ تخرجت من مدرسة القصر العيني وطالبة إليه أن يساعدها لإرجاعها إلى مركزها.

فقال لها صاحبي إن مصلحة الصحة قد أسدت إليك معروفًا يجب عليك أن تشكريها عليه. وهو أنه فتحت أمامك باب الاستقلال في عملك ومصر في حاجة إلى طبيبة مسلمة مثلك وليس فيها كثيرات من أمثالك وأنت تكتبين العربية والإنكليزية وتحسنينهما كما لحظت من كتابتك فأنصح لك أن تعمدي إلى نشر إعلانات عن محل تتخذينه وتشتهرين مع الزمن فلا ترضين بعد مدة أن تدفعي هذا القدر من المرتب الذي تعدنيه شيئًا للممرض الذي تستخدمينه فإنك ستربحين العشرات من الجنيهات في شهرك وتخدمين بذلك بلادك ونفسك.

فلم يحل هذا الكلام محل القبول من قلب الطبيبة وأخذت تورد الحجج على صحة ما تريده وأنه لا قبل لها إلا باستخدام ولا رزق لها إلا فيه وأنها إذا نالت الخمسة جنيهات ففد حيزت لها الدنيا وأخذت بحظ من السعادة لها ولأسرتها لأن هذه أنفقت ما كانت تملكه في تعليمها فلم يعد في وسعها أن تزيد على ذلك.

وهكذا بقي صاحبي وإنا نورد البراهين القاطعة التي تلقن الفتاة معنى الاستقلال وتبعد بها عن مواطن الاتكال حتى كل اللسان وانتهى الأمر إلى أن يكلم في أمرها أحد أصحاب الشأن ليرجعوها إلى وظيفتها التي أخرجت منها من غير سبب ولا تجد سعادتها إلا فيها.

هذا مثال رأيته بالأمس في مصر وكل يوم يقع مثله عشرات في الآستانة. وإن المرء ليأسف جد الأسف على عقول تضيع من غير فائدة وأعمال وكفاآت تذهب هباءً.

أناس يرضون بالدون من العيش وفي استعدادهم أن يبرزوا في كل عمل تصح إرادتهم على اتخاذه وأن يغتنوا ويرتاشوا ويعيشوا مرفهين لا مقترًا عليهم وأحرارًا لا مقيدين مستعبدين.

في الشرق قوى كثيرة تضيع وبعض ما يمكن الانتفاع به من موجوده لا يحسن استخدامه والمتعلم من أهله يعتقد أن الراحة والغبطة في الاعتماد على خدمة يخدمها وما درى أن تعبه في هذه الراحة وأنه لا راحة بدون تعب ولو كان هذا الخلق غرس في طابع الإنكليز والأميركان والألمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة كما غرس في طباع سكان هذه الديار ما قامت هذه الحضارة التي تدهشنا ولمَّا استقام نظام الأسرة على صورة تبهرنا آثارها.

أليس من الأسف أن نكون حتى في بلادنا غرباء فإذا أراد أحدنا أن يترفه بعض الرفاهية لا يجد نزلًا ولا مطعمًا ولا قهوة لا مسرحًا لوطني بل كلها للإفرنج. والتركي والعربي باهتان شاخصان لا يعرفان من أين تؤكل الكتف لأنهما يجهلان أصول الحياة وتحصيل الرزق ويحبان التفخل والفخفخة وضخامة الألقاب.

ولطالما رأينا من نعدهم من كبرائنا يطأطئون رؤوسهم ذلة لتاجر صغير في الحقيقة ولكنه كبير في ذاته لأنه جمع مالًا وعدده إرادة أن يقرضه ما يستعين به على تمشية أموره أو يتبلغ به يسيرًا ريثما تصرف له مشاهرته وهذه الحال تراها على أشدها في القطر المصري لأن ابن مصر منفاق على الأكثر لا يفكر في أن يوازي غالبًا بين دخله وخرجه ولذا انتقلت الأملاك أو جزء كبير منها من أيدي المصريين إلى الغرباء والرومي في المقدمة والحال في الآستانة أدهى وأمر.

وبعد فحيث اشتد العراك بين الأمم وبعبارة أخرى في العواصم الشرقية التي تكون فيها المنافسة على أتمها تجد الوطني يتضاءل ويضعف أمام الغربي بل ينهزم شر هزيمة وتتحلى للناظر صورة الاتكال

والاستقلال- بل صورة من العلم النظري الذي هو القشور وصورة العلم العملي الذي هو اللباب.

اشتدت في فرنسا على عهدها الأخير محبة الوظائف وكثر فيها جيوش الموظفين والمستخدمين فأحس القوم بهذه الآفة التي تهدد كيانهم فأنشأ بعض المستنيرين حقيقة يستنكفون من تولي الوظائف حتى ضاق ذرع الحكومة أو كاد في البحث عن الكفاة إذ لم يقبل عليها إلا المتوسطون وزهد في خدمتها النوابغ وما أنس لا أنسى وزيرًا تعارفت إليه في باريز ترك الخدمة وتولى إدارة مصرف صغير وكم في الغرب من رجل عظيم خطبته المناصب فأبى وآثر أن يكون تاجرًا أو صرافًا أو صاحب معمل أو مدير شركة أو محرر جريدة أو أستاذًا في مدرسة على أن يكون وزيرًا كبيرًا يقدم ويؤخر في مصالح أمته ويحل ويعقد في أقدارها. والأمثلة كثيرة في هذا الباب فهل يتعظ شرقنا المسكين.

(تم الجزء الأول)